قطوف
من
السيرة والدعوة

الدكتور
السيد محمد الديب

الطبعة الأولى
١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

إهداء

أحتسب هذا الكتاب عند الله تعالى، وأهب ما يمكن أن يتحقق به من ثواب وأجر إلى أهل بيتى جميعا ٠

إلى زوجتي وشريكة حياتى ورفيقة دربى... وأم أبنائى ،جزاها الله خيرا، فلا أذكر أننى اختلفت معها مرة إلا كانت البادئة بمصالحتى ، وهو طبع فيها، سارت معه سفينة الحياة ٠

وإلى ابنى الأكبر المهندس/**أحمد السيد محمد الديب**.

وإلى عزيزتى الدكتورة/ **إيناس السيد محمد الديب**.

وإلى توءم روحى الطالب الجامعى/ **محمد السيد محمد الديب**.

وإلى كريمتى طالبة الثانوية العامة/ **إسراء السيد محمد الديب**.

أ.د. السيد محمد أحمد الديب

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

لا يسير هذا الكتاب على نسق واحد، ومنهج ثابت، إذ تناولت صحائفه الأولى جزءا من بدء حياة الرسول إلى بعثته، احتكمت فيها إلى الروايات التاريخية الموثقة، المثبتة بالمؤلفات القديمة، وبعض الكتب الحديثة التى نالت ثقة القراء.

وكنت مأخوذا ومشدودا إلى عرض القليل من الأحداث فى هذه الحقبة إيمانا واقتناعا بأن بواكير النشأة المحمدية كانت مقدمات متميزة وإرهاصات صادقة للبعثة والتكليف الإلهى، لذلك كان هذا الجزء ضروريا، لأن ما كتب فيه قليل بالنظر إلى ما كتب عن حياة الرسول وتاريخ الدعوة بعد نزول القرآن الكريم.

وكنت حريصا على عرض الموضوعات بإيجاز وبلغة سهلة؛ لكى يقبل القارئ عليها ولا ينفر منها ما دام راغبا فى المعرفة التى تحتاج دائما إلى من يتحراها ولا يغفل عنها.

ثم تواصلت الموضوعات بالترتيب التاريخى، وإن لم تكتمل بها أحداث السيرة النبوية.

وجاء توجيه الموضوعات توجيها يخدم الدعوة، ويقدمها فى صورة قضايا لا تنفصل عن غيرها لعدد من الصحائف يختلف بين موضوع وآخر، وربما ينقسم الموضوع الواحد إلى عدة أجزاء كما فى

الهجرة النبوية ، أو يبقى كلا موحدا كما فى غزوة بدر الكبرى، وفى الحديث عن زوجات الرسول ﷺ ٠

وأصارح القارئ بأن الكتاب لم يعرض لموضوعات كانت جديرة بأن تكون بين دفتيه، لكننى حرصت على الإيجاز سواء أكان ذلك فى بيان الموضوعات أو فى عرضها، وكان مجيؤها مرتبطا بمناسبات متعددة تحدثت عنها ٠

وجاء إتمام الكتاب فى مرض صعب زادت وطأته على، خشيت أن أفارق الدنيا وأستقبل الآخرة، ويبقى ما كتبته مفرقا لا يجد من ينفض عنه غبار الزمن، ويضيئ له أنوار الطريق٠

كنت أحيا على حب الرسول ﷺ فى مرافقته بالليل والنهار .. وفى وجدانى وعلى لسانى آيات القرآن الكريم وأحاديث السنة النبوية التى تعرض لحياته ودعوته،فضلا عن أشعار الحكمة والمديح النبوى٠

وأمدنى الله بالجهد والطاقة والصبر على البحث حتى وصل الكتاب إلى ما قبل وفاة الرسول بزمن قليل٠

وأدعو الله أن يوفقنى فى إتمام ما كتبته عن الرسول ﷺ والدعوة الإسلامية فى جوانب أخرى جديرة بأن تصل إلى القراء، ولعل ذلك يكون قريبا ٠

وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ٠

أ.د/ السيد محمد الديب

٢٠/ ٣/ ٢٠٠٦م

الاحتفال بمولد الرسول ﷺ بين العادة والعبادة

عندما يهل شهر ربيع الأول من كل عام تهفو نفوسنا شوقا لرسول الله، ونسترجع سيرة حياته الطاهرة فنراها مليئة بالدروس النافعة والمواقف الرائعة والأسوة الحسنة والقدوة الطيبة التى تقربنا من المولى سبحانه وتعالى، وتبعدنا عن الزيف والضلال وكل آفات اللسان لكن بعض المسلمين خاصة فى السنوات الأخيرة أخذوا من الشهر الكريم مناسبة للاحتفال بمولده، ولم يقفوا فى أفراحهم عند حدود المباح من الأفعال والأقوال ، وإنما بالغوا فى عاداتهم وسلوكياتهم الاجتماعية، وألصقوها بمولد محمد ﷺ ، وكان ذلك من أهم الأسباب التى جعلت كثيرا من المسلمين يرفضون أى احتفال لهذه الذكرى ويرونها بدعة وضلالة لا قيمة لها فى ميزان الشرع الحنيف.

ونقول: إن الرسول ﷺ لم يحتفل بيوم مولده، ولم يحدث أصحابه عن شيء من هذا، كما أنهم لم يحتفلوا بهذه الذكرى على أية صورة، ولم يخرج على ذلك أحد من التابعين وتابعيهم طوال القرون الثلاثة الأولى من الهجرة، ولما جاء الفاطميون إلى مصر فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى شرعوا الاحتفال فى مجموعة من المناسبات الدينية حسب مذهبهم وطريقتهم فى الحياة واتفاقا مع التوجه الصوفى نحو المبالغة فى الاحتفالات لجميع المناسبات الدينية ومنها الاحتفال بمولد النبى عليه الصلاة والسلام.

واستجاب المسلمون فى مواطن كثيرة لهذه العادات المستحدثة، وأسرفوا فى الإنفاق عليها، تقربا حسب اعتقادهم ــ إلى الله سبحانه وتعالى ــ ، وأسهم فى ذلك انتشار الأمية الدينية، ووجود الشيع والمذاهب وأصحاب الأطماع الدنيوية الذين يملكون قدرة عجيبة فى التسلط على العامة ، وجذبهم إليهم باسم الدين والرغبة الشديدة لدى الناس فى اللهو والانشغال بظواهر الأمور التى يجدون فيها متعة وترفيها وتسلية عندما لم تكن الحياة بمثل ما هى عليه الآن، واقتصر المحتفلون بمناسبة ذكرى المولد فى بلدان كثيرة على الأناشيد والأهازيج والتمايل أو التراقص وإقامة الموائد وأكل الحلوى، ورفع الرايات الملونة وصنع الزينات وإقامة السرادقات، وإضاءة الأنوار والسير فى المواكب بطول البلاد وعرضها، وكان ذلك سمة عامة حتى منتصف القرن العشرين الميلادى وإن كان بعض هذه المظاهر قد أخذ فى التلاشى شيئا فشيئا لاعتبارات كثيرة.

ولقد عرف الناس بعض الجوانب المفيدة عند الاحتفال بهذه الذكرى مثل قراءة القرآن، وعقد الندوات الدينية ودراسة سيرة الرسول وسنته؛ وذلك لتذكير الناس بما يفيدهم فى دينهم ودنياهم، ولهذا تباينت مواقف العلماء المحدثين من الاحتفال بالمولد النبوى الشريف، فجماعة تقول إنه بدعة؛ ولأن الدين قد اكتمل على عهد الرسول ولم يعد محتاجا لإضافة أو زيادة على ما نص عليه القرآن الكريم والحديث الشريف. قال تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ

لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ ﴾ (١) وأن رفض هذه البدعة ثابت سواء أكان بالاحتفال شيء يتعبد به أم لا ... فإذا كان دينا، فعليه أن الإسلام كان ناقصا لهذا الشيء ، وإذا كان غير دين فلماذا يشغل المسلمون به أنفسهم؟! فالاحتفال نوع من الغلو والشطط، وقد قال الرسول: "إياكم والغلو فى الدين، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو فى الدين"(٢).

وعن عائشة رضى الله عنها عن النبى ﷺ قال: " من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد" (٣).

وقال فى حديث آخر : "... عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار"(٤).

ومعلوم أن البدع المنهى عنها ما كانت موجهة إلى الشرع الإسلامى إضافة أو حذفا أو إثباتا أو إنكارا ـــ أعاذنا الله من كل ما يقدح فى ديننا السمح الكريم ـــ أما ما يتصل بأصول الشرع تفسيرا وشرحا وتوضيحا وتبيانا فهو مطلوب ينبغى الحرص عليه.

أما الابتداع فى أمور العلم والحياة فهو محمود ومطلوب؛ ولأن الرسول ﷺ قد نبهنا إلى الاجتهاد فى كل عمل يعود بالخير والنفع على

---

(١) المائدة ٣ .
(٢) رواه النسائى وابن ماجة وأحمد.
(٣) وفى رواية من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد رواه الثلاثة.
(٤) رواه أبو داود والترمذى.

الإنسانية، ولعل كلمته ﷺ تذكرنا بشيء من هذا حيث ترك الأمور التى لم يرد فيها نص واضح ولم تكن موجودة على عهده إلى الاجتهاد الذى ينبغى أن ينهض به كل من لديه القدرة والاستطاعة من كافة النواحى فقال ﷺ فى حديث طويل : "...أنتم أدرى بأمور دنياكم"[١] إشعارا وتأكيدا على أهمية الأخذ الأسباب فى الأمور كلها، والابتداع والاجتهاد فى كل ما يعود على البشرية بالتقدم والازدهار.

والقاعدة الشرعية واضحة لكل راغب فى العلم والمعرفة وهى: "ما تنازع فيه الناس وجب الاحتكام فيه إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ" كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [٢].

وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [٣].

فالاحتفال بالمولد النبوى لم يرد فى القرآن ولا فى السنة، وهو بذلك ليس من الدين — حسب هذا الرأى — وإنما هو من البدع المحدثة التى أمر الرسول بتركها، وحذر منها[٤] ومن أصحاب هذا الرأى الشيخ عبدالعزيز بن باز رحمه الله.

(١) رواه مسلم وفى رواية أنتم أعلم بأمور دنياكم.
(٢) النساء ٥٩ .
(٣) الشورى ١٠ .
(٤) انظر جريدة اللواء الإسلامى العدد ١٥٠ .

وتقول جماعة ثانية[١]: إن الاحتفال ليس من قبيل الابتداع؛ لأنه ليس فيه عبادة لم يشرعها الإسلام، وقد ذكر الرسول يوم مولده في حديثه عن صوم يوم الاثنين فقال : "...هذا يوم ولدت فيه"[٢].

ومن مظاهر هذا الاحتفال صناعة الحلوى وتبادلها بين الناس وهى تدخل السرور على الصغير وعلى الكبير أيضا، ويا ليت المسلمين يحتلفون بذكرى المولد بما يرضون به الله سبحانه وتعالى حتى يكونوا أمة متماسكة قال ﷺ : "مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء بالسهر والحمى..." [٣].

وقال العلماء فى هذا الشأن إن البدعة المنهى عنها هى التى تدخل النار، والتى ذكرها القرآن الكريم فى قول الله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [٤].

وهى الزيادة فى الدين على وجه التعبد وهذا المعنى غير موجود فى أى احتفال يقام لمناسبة دينية خاصة ذكرى مولد الرسول ﷺ ، وأكثر الذين يجاهرون بهذا الرأى من المتصوفين.

---

(١) من أصحاب هذا الرأى الدكتور أبوالوفا غنيمى التفتازانى .
(٢) رواه مسلم فى صحيحه وأحمد فى مسنده .
(٣) رواه مسلم وأحمد.
(٤) سورة الشورى ٢١ .

وتقول جماعة ثالثة[١] إن الاحتفال بدعة أدخلها الفاطميون مصر، وكل جديد على الإسلام نزنه بموازين الشريعة الواضحة الجلية، فما وافق القواعد والأصول الشرعية، ولم يكن منكرا، أو وسيلة إلى منكر قبلناه وما خالفها أو أدى إلى ضلالة رفضناه وتركناه.

والاحتفال بالمولد يشتمل على أمور مباحة، وعلى أمور محرمة، وعلى قليل من الأمور الحسنة، فمن الأمور المباحة إضاءة الأنوار، وصناعة الحلوى، والتوسعة على الأهل فى الطعام والشراب ولكن يشترط لاستمرار إباحتها أمران: ألا يدخلها إسراف، وألا يظن مسلم أن هذه العادات من الإسلام، أو أنها من السنن والمستحبات والأفضل للمسلمين ألا يلتزموا بهذه الأمور؛ حتى لا يظن أنها من أصول الدين.

ومن المحرمات : بناء الخيمات فى ميادين الأضرحة وأمام المساجد، واختلاط النساء بالرجال وتجمع الناس من البلاد، وتركهم لمصالحهم من أجل ذكرى المولد النبوى ،ولمشاهدة الألاعيب والملاهى التى لا تنمى شعورا دينيا، وإنما تغزى الفساد والضلال فى عقول الكثيرين، وفى هذه المواطن تكثر الشعوذة ولعب القمار وممارسة النصب والاحتيال.

ومن الأمور الحسنة: المحاضرات العلمية والندوات الدينية وقراءة القرآن ومدح الرسول بالصورة الملائمة التى تناسب السيرة العطرة ، تذكر الناس بأمور دينهم؛ وحتى يعيشوا هذه المناسبات فى

---

(١) الرأى للدكتور موسى شاهين لاشين .

تقوى وإيمان ويتوقفوا إن لم ينصرفوا تماما عن الانشغال الدائم المستمر بمتع الحياة الزائلة وماديتها الفانية.

والرأى الذى نعتقده[١] ونرتاح إليه ونؤمن به وندعو إليه أن الاحتفال بذكرى مولد الرسول ﷺ يكون مقبولا إذا اقترن بإحياء سنة الرسول والعمل بما جاء فيها وعقد المحاضرات والندوات المفيدة الهادفة والاستماع إلى القرآن الكريم وشرح أحاديث الرسول وتطبيق المنهج الذى وضعه الله للناس ليتسفيدوا به فى الدنيا والآخرة ويكون الاحتفال مرفوضا إذا اقتصر على اختلاط الرجال بالنساء والإسراف فى الأطعمة والأشربة والإمعان فى العبث واللهو والإنصراف عن العمل الجاد والتظاهر الممقوت الذى لا قيمة له فى الشرع، والركون إلى السهر والتواكل وفعل المحرمات، وعلى المسلم بعد كل ذلك أن ينتبه إلى واقعه وأن يبدأ بنفسه وأن ينشغل بأمور المسلمين فى هذا الوقت الذى صارت قضاياهم محلا للاتفاق والاختلاف مما جعل الناس فى حيرة كبيرة من أمر هذا الدين الذى يبدو ـ للأسف الشديد ـ غريبا بين الكثرين من خلق الله تعالى.

---

(١) قريب من رأى الأستاذ الدكتور موسى شاهين لاشين (السابق بيانه) .

مولد الرسول فى مكة
والمطامع الأجنبية فى الجزيرة العربية

جاء الرسول ﷺ إلى العالم الذى كان يسوده الجهل والظلام وعبادة الأحجار، ثم بدأت الدعوة الإسلامية فى مرحلة تالية فكان التغيير الذى اشتمل الكون شيئا فشيئا، حتى عم الضياء جوانب كثيرة من مناحى الكون ونذكر فى ذلك قول الشاعر أحمد شوقى:

ولد الهدى فالكائناتُ ضياء ∴ وفم الزمان تبسم وثناء

أقبل الرسول ﷺ إلى الدنيا فى العشرين من أبريل عام ٥٧١م، الموافق لليوم الثانى عشر من شهر ربيع الأول قبل الهجرة بثلاث وخمسين سنة قمرية على خلاف بين المؤرخين.

وكان العالم موزعا بين قوتين متحاربتين هما الفرس والروم، وذكر القرآن الكريم قتالهما فقال: ﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (١) .

---

(١) الروم ١ ــ ٥ .

وكان الأحباش يدينون بدين الروم، ويخضعون لهم، ويتوجهـون حسب رغباتهم وجاء (أرياط) إلى اليمن فحكمها باسم الحبشـة التـي صارت لها قوة كبيرة ونفوذ فعال فى جنوب الجزيرة العربية.

وسار القائد الحبشى أبرهة [الأشرم] بجيش تتقدمه الفيلة إلى مكة؛ ليهدم الكعبة ويصرف الناس عنها، ويحولهم إلى الكنيسة التـي بناهـا بصنعاء؛ لأهداف متعددة ولما اتجه من اليمن جنوبا إلى مكـة شـمالا وسمع الناس بقوته وعنف آلته الحربية تفرق العرب فـي الصـحراء خوفا منه، وهربا من جيشه، ولكن الله سبحانه وتعـالى حمـى بيتـه المحرم ورد الأعداء عن بلد الله مكة، وانسحب عبدالمطلب جد الرسول من المواجهة؛ خوفا على أهله وأبناء بلده لكن قـوة الله كانـت غالبـة فانهزم أصحاب الفيل بغارة جوية شديدة خرجت من البحـر الأحمـر، مكونة من الطير الأبابيل، فألقت على الجيش المغير مـا تحملـه فـي مناقيرها وأرجلها من حجارة صغيرة مثل حبات الحمـص وأصـيب الجنود فى أبدانهم، وتسمرت الفيلة فى مكانها، وأبى الفيل (المقـدم) أن يسير إلى مكة وإذا ما وجوه إلى الرجوع اسـتجاب هادئـا ومطيعـا، وحفظ الله بيته من المعتدين الغاشمين.

وكانت تلك الحادثة من أبرز الوقائع فى زمن ولادة الرسول ﷺ ، وأوردها القرآن الكريم فى سورة كاملة هى سورة الفيل قال تعـالى : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ (١).

---

(١) الفيل ١ ـ ٥ .

وهكذا كانت الجزيرة العربية مطمعا للروم، كما لم تكن الحملة الجيشية التى انطلقت إلا رغبة رومانية، أو حربا صليبية فى المراحل الأولى من عمر الصراع بين الشرق والغرب، ولم يكن الفرس أقل طمعا فى جزيرة العرب من الروم خاصة أن الفرس لم يكن لهم دين وليسوا أصحاب رسالة سماوية، وهم أشد عنفا وعداوة للعرب آنذاك وقد كثرت حروبهم مع القبائل العربية، وسجل التاريخ والشعر معظمها كيوم (ذى قار) الذى قاتل العرب فيه الفرس قتالا شديدا ، قال الشاعر الجاهلى ميمون بن قيس الملقب بالأعشى :

إذا أمالوا إلى النُّشَّاب أيديهم ∴ ملنا بِبِيض،فظل الهامُ يختطف[١]

وخيلُ بكر فما تنفك تطحنهم ∴ حتى تولوا وكاد اليوم ينتصف

لو أن كل مَعَدٍّ كان شاركنا ∴ فى يوم ذى قار ما أخطاهمُ الشرف[٢]

كما كانت القبائل العربية تتناحر وتتقاتل على مواقع الكلأ وأسواق التجارة، أو لشدة الرغبة فى فرض النفوذ أو لأجل التعصب القبلى البغيض، أو لأسباب بسيطة قليلة الأهمية، ومع ذلك تطول الحرب لأخذ الثأر ورد الاعتبار، والقتلى كثيرون والدعوة إلى السلام لم تتوقف، وهذه حرب عبس وذبيان التى ذكرها زهير بن أبى سلمى وخاطب رجالهم فقال:

وما الحربُ إلا ما علمتم وذقتمُ ∴ وما هو عنها بالحديث المرجّم

---

(١) فى رواية يقتطف بدلا من يختطف .

(٢) ديوان الأعشى صـ٣٦١ القصيدة ٦٢ .

واشتغل العرب بالتجارة شتاء إلى اليمن وصيفا إلى الشام، وعاش أهل مكة خاصة فى أمن وسلام ، قال تعـالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَـٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ [(١)]؛ وذلك لوجود الكعبة فيها، والتفاف الناس حولها فى موسم الحج من كل عام فضلا عن موقعها ومركزها التجـارى بـين الشمال والجنوب.

وهكذا كانت هزيمة الروم بنص القرآن الكريم وهزيمة أصـحاب الفيل الأحباش وهزيمة الفرس من القبيلة العربية [بكر] مدعاة لتحقيـق الأمن والرخاء للبيت الحرام، وتخصيبا للأرض العربية التى اسـتقبلت الرسول ﷺ ، فعاش بها ونزل القرآن الكريم عليه فيها، وشرع فى نشر الدعوة بين ربوعها؛ تحقيقا للألفة بين العرب ونشر الثراء المادى فـى منطقة مكة، وزرع الأمن والأمان بين كافة المستويات، مما أسهم فـى استمرار الدعوة الإسلامية وزيادة الإقبال عليها حتـى لـو ووجهـت بالصعوبات فى البداية، لكنها لم تلبث أن تلاشت مع انطلاق الإسـلام إلى خارج الجزيرة العربية.

لم تكن الحياة الإسلامية قبل الإسلام سوءا على الإطـلاق، فمـن الصفات الحميدة والخلال الطيبة التى عرفت فى الجاهليـة الشـجاعة والكرم، ومعاونة الضعفاء والمحتاجين ،ولكن الجانب الآخر من هـذه

---

(١) العنكبوت ٦٧ .

الحياة كان سيئا ومظلما وفى حاجة إلى أهمية التغيير الذى تتطلبه الدعوة الإسلامية بداية من عصر المبعث.

وكانت الحياة العربية [أنذاك] جافة مثل الصحراء التى نشأوا عليها، واشتد تنافسهم على مواطن الكلأ والعشب، واقتصر نشاطهم على التجارة والرعى، وخضعوا للنظام القبلى فى إدارة شئونهم العامة، والذى أسهم فى شدة التنافس وكثرة الحروب، غير أن القبائل كانت تتوحد وتتجمع إذا لحق بأهلها أو ببعض منهم عدو خارجى، وعرفوا – بالتجارة – الغنى والفقر، ومارسوا الربا أيضا، ومن هنا ظهرت أخطار ومساوئ الاستقلال الذى نجم عن اختلاف الطبقات من حيث السلطة والنفوذ والتحكم والسيطرة فى مراكز تكوين الثروات.

أما مكانة المرأة لديهم فكانت مختلفة بين قبيلة وأخرى فبنو تميم وبنوأسد كانوا يئدون بناتهم – أحيانا – خوفا من العار أو الفقر وتحدث القرآن عن هذه العادة، قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ ؟[١] .

فبنو تميم وبنو أسد قبيلتان من ثلاثمائة وستين قبيلة هى مجموع القبائل العربية تقريبا، غير أن أكثر العرب كانوا يكرهون البنات ويفضلون البنين [٢]، وسجل القرآن ذلك، قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ

---

(١) التكوير ٨، ٩ .

(٢) لا زالت هذه العادة موجودة حتى وقتنا الراهن.

أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (١).

واحترم معظم العرب المرأة، وتعلقت قلوب أكثر الشعراء بهـا، ونادوا عليها بالكنية، أو رمزوا لها بأسماء مستعارة، ووجدت ــ فـي جانب آخر ــ بعض التصرفات والأفعال الذميمة كالزنى ونكاح البغايا الذى تتزوج فيه المرأة أكثر من واحد، وهذا السلوك نوع مـن نفـوذ المراة وسيطرتها على الرجل، كما أنه يعبر عن حالـة مـن سـلوك وتصرفات بعض الضعاف من النساء اللاتى لا حول لهن ولا قوة مـن حيث الفقر وعدم القدرة على الحياة إلا بهذا السلوك الضـال، أو أنـه يمثل طائفة من الرجال المنحرفين الشذاذ الذين لا يعبرون عن شريحة اجتماعية واسعة، وعلى كل فالمرأة لم تكن منكسرة ذليلـة فـي كـل الأحوال، كما أن الزنى لم يكن منتشرا بين جميع النساء.

ولقد عرف العرب شرب الخمر وكانوا يستوردونها مـن أمـاكن متعددة إلى أن جاء الإسلام فحرمها ونها عن شربها، كما حرم كثيـرا من العادات الاجتماعية السيئة مثل لعـب الميسـر، والاحتكـام إلـى الأنصاب والأزلام والكهنة والطيور والحيوانات والتفـاخر بالأنسـاب والأخذ بالثأر واستمرار الحروب وغيرها.

---

(١) النحل ٥٨ ، ٥٩ .

الحياة الدينية فى بلاد العرب:

لقد كانت الحياة الدينية فى جزيرة العرب قبل الإسلام موزعة بين الوثنية واليهودية والنصرانية، فكانت الوثنية امتدادا لما يدين به الفرس فى الشرق، بينما انتشرت اليهودية فى الشام، ووصل أتباعها إلى يثرب وخيبر ونجران، كما دان أهل الحيرة وغسان بالمسيحية، التى ظهـرت فى نجران ثم اختفت منها فى ضوء ما جاء فى قصة أصحاب الأخدود التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم٠

وكانت الأصنام تحيط بالكعبة، وتنتشر فى أماكن كثيرة بالجزيرة العربية، وكان بعضهم يعبدها على أنها تشفع لهم عند الله، وتقـربهم إليه. قال تعالى: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ (١)٠

وبعضهم ... "يعبدها على أنها الآلهة التى تضر وتنفـع وتعطـى وتمنع ، وهؤلاء عامتهم وضعفاء العقول منهم، وهم الـذين أخبـر الله عنهم أنهم عجبوا من محمد؛ لأنه جعل الآلهة إلها واحدا، وذلـك فـى قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ (٢).

وتمثال هبل أعظم معبود عندهم، وهو مصنوع من العقيق الأحمر على شكل إنسان مكسور اليد اليمنى، وأدركته قريش على هذا الوضع،

---

(١) الزمر ٣ ٠

(٢) القول المبين صـ٤٣ للدكتور/ محمد الطيب النجار ــ والآية التى فى آخر النص من سورة ص رقم ٥ ٠

فصنعت له يدا من ذهب، وكان منصوبا فى جوف الكعبة، وبين القرآن الكريم بعض الأصنام التى كان العرب يعبدونها فقال تعـالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ۝ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۝ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴾ (١).

وذكر الدكتور/ محمد حسين هيكل عبادة الأصنام والأوثان عند العرب فقال : وقد كان لكل قبيلة صنم تدين له بالعبادة، وكانت هذه المعبودات الجاهلية تختلف ما بين الصنم والوثن والنصب، فالصنم ما كان شكل الإنسان من معدن أو خشب، والوثن ما كان على شكله من حجر، أما النصب فصخرة ليست لها صورة معينة تجرى عليها قبيلة من القبائل أوضاع العبادة(٢).

ولما فتح الله على المسلمين مكة المكرمة، ودخل الناس فى الإسلام أفواجا أشار الرسول إلى ما كان بالكعبة وما حولها بعود فى يده، فحطم الناس تلك المعبودات وكان ﷺ يتلو قول الله تعـالى: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ (٣) .

وقد استقر بعض اليهود فى يثرب وعلى مقربة منها ــ كما أشرنا ــ واعتنق كثير من أهل اليمن اليهودية، وانتشرت فى قبيلة حمير ،

---

(١) النجم ١٩ ــ ٢٣ .
(٢) حياة محمد صـ ٩٩ .
(٣) الإسراء ٨١ .

وكان ذو نواس الحميرى من أشد الداعين لها والمدافعين عنها، وهو الذى اضطهد نصارى نجران وأقام الأخدود لهم فأحرق به جمعا كبيرا منهم قال تعالى: ﴿ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ (١).

وبيان هذه الأحداث كما جاءت فى كتاب حياة محمد للدكتور/ محمد حسين هيكل هو : "أن رجلا صالحا من أتباع عيسى يدعى [قيميون] كان قد هاجر من بلاد الروم واستقر بنجران، فأتبعه أهلها لما رأوا من صلاحه، وظل عددهم يزداد حتى استفحل أمرهم، فلما نما خبرهم إلى [ذى نواس] سار إلى نجران، ودعا أهلها إلى الدخول فى اليهودية، أو يقتلوا، فلما أبوا شق لهم أخدودا أوقد فيه النار، ثم ألقى بهم فيها، ومن لم يمت بالنار، قتل بالسيف، ومثل به، وقد هلك منهم على رواية كتب السيرة عشرون ألفا، ثم إن أحد هؤلاء النصارى فر من القتل، ومن ذى نواس، وسار حتى أتى قيصر الروم [جوستنيان] فاستنصره على ذى نواس، ولما كانت الروم بعيدة عن اليمن كتب القيصر إلى النجاشى، ليأخذ بالثأر من ملك اليمن ... فلما بلغت النجاشى رسالة القيصر بعث مع اليمنى الذى حمل إليه هذه الرسالة جيشا جعل على رأسه أبرهة الأشرم ... وغزا أرياط اليمن، وملكها

(١) البروج ٤ ــ ٨ .

باسم عاهل الحبشة، وظل على حكمها حتى قتله أبرهة وتولى الأمـــر مكانه"[١].

وحدث بعد ذلك ما تحدثنا عنه سابقا من رغبة أبرهة فـــى هـــدم الكعبة وتحويل الحجيج إلى كنيسة صنعاء، وهكذا كانت المسيحية قــد دخلت بلاد العرب ، واستقر أتباعها فى الحيـــرة إلـــى الجنـــوب مـــن العراق، وجاءت إلى اليمن عن طريق الأحباش الذين رغبوا فى هـــدم الكعبة وذلك فى العام الذى ولد فيه الرسول ﷺ ولذلك قيل عـــن عـــام ولادته أنه ولد فى عام الفيل.

كما عاش فى الجزيرة العربية فريق من الباحثين الحنفاء الـــذين اختطوا لأنفسهم طريقا متميزا فى العبادة، حيث كانوا يتبعـــون مـــنهج سيدنا إبراهيم ويعبدون الله على ديانته، وبعضهم كان فى مرحلة مـــن انتظار نبى جديد يظهر فى مكة، ومن هذا الفريق الزاهد الراغب فـــى المعرفة أمية بن أبى الصلت وقس بن ساعدة الإيادى وورقة بن نوفـــل وغيرهم.

---

(١) حياة محمد صـــ٩١، ٩٢ .

الوفاء والفداء

(بذور وجذور)

ولد عبدالمطلب الذى كان معروفا بشيبة الحمد فى يثرب ولما بلغ مبلغ الشباب انتقل إلى مكة، وعرف بعبدالمطلب، وأسندت إليه رفـادة الحجيج وسقايته بعد وفاة عمه (المطلب)، وكـان يجمـع المـاء فـى أحواض من الأدم بعسر ومشقة، وتزوج امرأة تسمى سمراء، وأنجـب منها ابنه الحارث وكان يشارك أهل مكة أفـراحهم وأحـزانهم وهـو صاحب رأى ومشورة لما له من خبرة ودراية بأمور الحيـاة فالنـاس يستمعون إليه ويثقون فى رأيه ولا يعقبون عليه إلا فى القليـل النـادر وقد كتب عميد الأدب العربى(١) فصلا مفيدا عن دوره فى حفر زمـزم وتحدث عنه فقال: "كان عبدالمطلب سمح الطبع رضى النفس، سـخى اليد، حلو العشرة ، عذب الحديث. وكـان عبـدالمطلب أيضـا قـوى الإيمان، تملك قلبه وتسيطر على نفسه نزعة دينية حادة عنيفة ولكنهـا غامضة، يحثها ويخضع لها، ولكنه لا يتبينها ولا يستطيع لها فهما ولا تفسيرا"(٢) ومن الملاحظ أن هذه الخصال الفريدة لم تكن عنـد عامـة القرشيين وأهل مكة عموما، وإنما كانت عند الصفوة منهم الذين تميزوا على غيرهم ومنهم عبدالمطلب الذى رهـن حياتـه لخدمـة الحجـيج واطعامه وسقايته قبل أن تشتمل مكة بأنوار اليقين ٠

---

(١) الدكتور / طه حسين ٠

(٢) على هامش السيرة للدكتور طه حسين جـ١/ ص١ ٠

ويحسب لعبدالمطلب أنه نهض بإعادة حفر زمزم حيث كان الحرم فى حاجة إلى الماء الذى يستقى منه الوافدون لزيارته.

كان عبدالمطلب مشغولا بهذا الأمر مهموما بقضايا قومه وصاحب دائرة ضيقة تحتويه هو وابنه الحارث وزوجته سمراء.

ويرجع موضوع حفر زمزم إلى رواية عن على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه يحدث فيها حديث زمزم حين أمر عبدالمطلب بحفرها، قال: "قال عبدالمطلب: إنى لنائم فى الحجر إذ أتانى آت فقال: أحفر طيبة. قال: فقلت: وما طيبة؟ قال: ثم ذهب عنى. فلما كان الغد رجعت إلى مضجعى فنمت فيه، فجاءنى فقال: أحفر بره. قال: فقلت: وما بره؟ قال: ثم ذهب عنى، فلما كان الغد رجعت إلى مضجعى فنمت فيه، فجاءنى فقال: أحفر المضنونة . قال: فقلت: وما المضنونة؟ قال: ثم ذهب عنى. فلما كان الغد رجعت إلى مضجعى فنمت فيه، فجاءنى فقال: احفر زمزم . قال: قلت: وما زمزم؟ قال: لا تنزف أبدا ولا تذم، تسقى الحجيج الأعظم، وهى بين الفرث والدم، عند نقرة الغراب الأعصم عند قرية النمل"[١].

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام جـ١ صـ٨٩ وجاء فى هامش هذا الكتاب التفسير الآتى لبعض ما ورد فى النص المذكور — طيبة لأنها للطيبين من نسل إبراهيم عليه السلام — وقيل بره لأنها فاضت على الأبرار . والمضنونة: ضن بها على غير المؤمنين. ولا تنزف: لا يفرغ ماؤها . ولا تذم: لا توجد قليلة الماء — الأعصم من الغربان: الذى فى جناحيه بياض . والمراد بقرية النمل: أى الأرض لا تحرث ولا تزرع .

وقد ذهب عبدالمطلب إلى المكان المحدد حيث قرية النمل، وشرع فى الحفر ومعه ابنه الحارث ولكن قريشا رفضا ذلك منه لأن المكان الذى حددته الرؤيا كان بين وثنين هما [أساف] و[نائلة]، وحزن عبدالمطلب لذلك حزنا كبيرا، لكنه فى الوقت نفسه مضى لما شرع فيه ولم يتوقف عن الحفر فلما أيقنت قريش أنه مصمم على ما شرع فيه تركوه وشأنه وتوقفوا عن منعه لكن حزنه على منع قريش له أثر فيه تأثيرا كبيرا ونذر إن رزقه الله بعشرة أبناء فسوف يذبح أحدهم عند الكعبة تضحية وقربانا فلما تمادى فى الحفر وجد فيها غزالين من ذهب كما وجد أسيافا قلعية[١] . وأدراعا وهنا تفجرت مطامع قريش وأرادوا مشاركة الرجل فيما وجده، وشجر الخلاف بينهم ثم احتكموا إلى الأسهم التى كان يستقسمون بها وأسفرت النتيجة عن تخصيص الغزالين للكعبة والأسياف والأدراع لعبدالمطلب ولم تظفر قريش بشىء وجعل عبدالمطلب الأسياف بابا للكعبة، كما جعل الغزالين حلية لها حسب ما ورد فى كتب السابقين ــ وحفر البئر فى المكان الذى أشار إليه هاتف الليل وأخذ عبدالمطلب يهئ نفسه للزواج فضلا عن امرأته التى تقاسمه الحياة، حتى يفى بما قطعه على نفسه فتزوج ثلاث زيجات حتى اكتمل له تمام العشرة سوى ابنه الحارث وهكذا صار الرجل أبا لعشرة وتهيأ للتضحية بأحد أولاده وشرع إعداد نفسه للتنفيذ، وأراد أن يريح ضميره فأجرى القرعة بين العشرة فوقعت على أصغر ابنائه وهو عبدالله، وثار الناس عليه ثورة عارمة وأبوا أن يذبح ابنه لمجرد

---

(١) قلعية نسبة للقلعة جبل بالشام.

الوفاء بالنذر خاصة أن عبدالله كان خلوقا ومحمود السيرة وطيب الذكر وفى مرحلة الفتوة والشباب وكان واحدا من إخوته العشر ومن بيـنهم الحارث الذى قيل فى رأى آخر إنه بقى حتى وقت الوفاء بالنذر وجاء فى البداية والنهاية لابن كثير أن العشرة هم : الحـارث ــ الزبيـر ــ حجل ــ ضرار ــ المقوم ــ أبولهب ــ العباس ــ حمزة ــ أبو طالب ــ عبدالله ، وذكر أيضا أن عبدالمطلب بن هاشم أنجـب سـت إنـاث وأشار القوم على عبدالمطلب بالاحتكام على عرافة فـى خيبـر ذات بصر ودراية، فأوصت بإجراء القرعة بين عبدالله وعشرة من الإبـل، فإن خرج السهم عليها ذبحت فداء له وإن خرج على عبـدالله زيـدت عليها عشرة أخرى، وهكذا فعلوا إلى أن بلغت الإبل مائة فتم نحرهـا جميعا فداء لعبدالله، وسعد أهل مكة جميعا كما سعد عبدالمطلب بنجـاة ابنه فرغب أن يزوجه واحدة من أفضل فتيات العرب ، فخرج به مـن الكعبة إلى بيت وهب بن عبدمناف، وخطب له ابنته آمنة بنت وهب بن عبدمناف بن زهرة، وبقى معها زوجا لمدة شهر واحد، ثم ارتحل فـى تجارة إلى الشام، وقد جاء فى حديث الدكتور طه حسـين عـن هـذا الفراق بين زوجين لم يمر عليهما إلا شهر واحد فى حياتهما الزوجيـة الجديدة فقال عن آمنة مصورا لوعتها للفراق وحزنها على ترك عبدالله لها بعد هذه المدة القصيرة من الزواج : "لم تظهر آمنة ارتياعا للوداع، ولا التياعا للفراق، ولم تصعد من صدر آمنة زفرة، ولا انحدرت مـن عين آمنة عبرة، وإنما كان وجهها هادئا منبسـط الأسـارير، وكـان صوتها مطمئنا لم تفارقه عذوبته الحازمة، حين أقبل زوجهـا عليهـا

يودعها آخر السحر، وقد أخذ الفجر يتنفس فى دعه، ويمس بأصـــابعه الرقيقة ما حول مكة من الربا. وكان عبدالله يدافع حزنا عميقـــا كـــان يريد أن يظهر على وجهه وينطلق على لسانه، وكان يتكلف من التجلد والتصبر ما لابد منه، ليكون فتى من فتيان قريش"[١].

وسار عبدالله فى القافلة التجارية ورجع منها ووصل إلى يثـــرب فمات فيها بعيدا عن جده وأعمامه، وهو لا يعلم أنه سينجب خير خلـــق الله كلهم تاركا زوجته تقاسى آلام الوحدة والفراق ومشـــقات الحمـــل، وهواتف الغيب.

أما عبدالمطلب فقد استمرت به مسيرة الحيـــاة إلـــى أن تـــوفى ورسول الله ﷺ ابن ثمان سنين بعد أن حفر زمزم وسعى للوفاء بنـــذره وتحمل سقاية الحجيج، وسعد بحفيده محمد، وواجه أبرهة فى مواقـــف، خالدة يشهدها التاريخ القديم بكل تقدير للرجـــل ودوره ورســـالته فـــى الحياة.

---

(١) على هامش السيرة جـــ١/ ص ٥٤ .

الحزن واليتم

لقد مات عبدالله بن عبدالمطلب بن هاشم عند أخوال والده من بنى عدى بن النجار فى يثرب عند عودته من الشام ووصل نعيه إلى مكـة التى تجدد حزنها عليه بعد أن كانت سعدت بنجاته يوم الفـداء وتـرك عبدالله الدنيا بعد أن حمل زوجته آمنة بنت وهب أمانة بين جوانحهـا، فحفظت الأمانة وكتمت أحزانها، وآوت إلى بيت زوجها وحيدة فريـدة تسترجع مع نفسها القليل من الذكريات التى عاشتها فى رحاب حياتهـا القصيرة معه، إذ لم تكن إلا شبيهة بالطيف الذى ألم بها واشتملها ثـم ولى عنها وتركها تقلب حوادث الأيام وتتساءل فى حيرة عن مصـير القادم إليها من رحم الغيب بعد شهور قلائـل ولا تجـد إلا الصـمت المطبق الذى تلجأ إليه وتلوذ به آناء الليل وأطراف النهار .

ولما جاءها المخاض وأحست أن نورا ينبعث منها فيملأ الأرض من حولها ويزيل الحجب عن عينيها، وخرج رسول الله إلى الدنيا يتيما ولكن الله حفظه وستره وآواه وخلقه نموذجا لكل يتيم يبحث عـن يـوم جديد يشرق عليه بالبسمة والفرحة والسرور قال تعـالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾ [١].

وجاء البشير إلى عبدالمطلب بنبأ ولادة حفيد له (هو ابن لعبدالله) الذى مات غريبا فى يثرب، وكان الجد فى الحجـر وحولـه أبنـاؤه، فنهض إلى بيت آمنة مسرعا ورفع الغلام، وقبله وقال لآمنة: سنسـميه محمدا؛ليكون محمودا فى الأرض وفى السماء، وذكروا أنه قال يومئذ:

الحمـدُ لله الـذى أعطـانى ∴ هـذا الغـلامَ الطيـبَ الأردان

---

(١) الضحى ٦ .

قد ساد فى المهد على الغِلْمان ⁖ أعيــذُه بـــالله ذى الأركـــان
حتـــى أراه بـــالغَ البنيـــان ⁖ أعيـذُهُ مـن شـر ذى شـنآن
من حاسدٍ مضطرب العنان[١]

وقيل إنه أخذه وأدخله الكعبة، وطاف به حولها ودعا الله وشكره على هذا العطاء، وقد زادت عناية عبدالمطلب بالمولود الجديد امتزاجا لعاطفة الفرح بمقدمه، وحزنا على والده الذى لم يكتب له أن يرى هذا الوافد الجديد.

روى عن وائلة بن الأسقع أن رسول الله ﷺ قال : "إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل واصطفى من ولد إسماعيل كنانة واصطفى من كنانة قريشا، واصطفى من قريش بنى هاشم، واصطفانى من بنى هاشم فأنا خيار من خيار"[٢].

وروى مالك بن أنس أن رسول الله ﷺ قال : "لى خمسة أسماء أنا محمد وأحمد، وأنا الماحى يمحو الله بى الكفر وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى، وأنا العاقب" [٣] وجاء فى رواية أخرى زيادة عما سبق : "وأنا العاقب الذى ليس بعده نبى"[٤] وكان يكنى بأبىالقاسم، وروى أنه قال : "تسموا باسمى، ولا تكتنوا بكنيتى"[٥].

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد جـ١ صـ١٤٦ (مطابع الأهرام).
(٢) رواه الترمذى وأحمد فى مسنده.
(٣) رواه البخارى وأحمد.
(٤) البخارى والموطأ.
(٥) البخارى.

وجاء فى رواية أخرى بسنن البيهقى: "تسموا باسمى ولا تكتنوا بكنيتى، وإنما أنا أبوالقاسم" ونفهم من الحديث فى روايته الأخيرة أن قوله أقسم بينكم أى يكون فيه عادلا بين أصحابه فى المحبة والمودة والشفاعة وغيرها أما القسم الأكبر بين العباد فمرجعه إلى ذات الله سبحانه وتعالى كما فى قوله عز من قائل : ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ [1] والله أعلم .

المرضعات والحاضنات :

رضع محمد ﷺ أول مرة من أمه (آمنة بنت وهب)، ثم أرضعته (ثويبة) وهى جارية لأبى لهب، وذلك لعدة أيام قبل أن تأتى إليه حليمة السعدية، وقد أبر عليه الصلاة والسلام ثويبة، وزاد بره لها بعد أن كبر وعرف طعم الحياة فكان يصلها ويعطف عليها وهو بمكة اعترافا وتقديرا بكرمها معه وإرضاعها له فى بداية حياته، وذكر ابن سعد فى طبقاته الكبرى عن هذه الجارية ما يأتى :

"وكانت خديجة"[2] تكرمها — وهى يومئذ مملوكة — وطلبت من أبى لهب أن تبتاعها منه؛ لتعتقها، فأبى أبولهب، فلما هاجر رسول الله إلى المدينة أعتقها أبولهب وكان رسول الله يبعث إليها بصلة وكسوة،

---

(١) الزخرف ٣٢ .
(٢) تزوجها الرسول فى شبابه .

حتى جاءه خبرها أن توفيت، وذلك سنة سبع"[١] وأرضعت حمزة بن عبدالمطلب قبل الرسول، وأرضعت بعده أبا سلمة بن عبدالأسد، فهما أخواه من الرضاعة.

ونأتى إلى حليمة بنت عبدالله بن الحارث (السعدية) امرأة الحارث بن عبدالعزى، فهى المرضعة الأساسية لمحمد ﷺ وكان قد قدم إلى مكة ركب المرضعات يطوى الطريق ويقطع المسافات؛ بحثا وسعيا إلى أمل جديد وطفل وليد تتغير به سورة الحياة التى كانت شديدة الجفاف وتأخذ طبيعة العيش فى البادية ألوانا مختلفة، ففيها تصمد الخيام أمام الأنواء؛ لتستقر تحتها الأجساد الهامدة بعد يوم شاق من السير البطئ خلف قليل من الدواب إلى أن يصفر وجه السماء والشمس تحتضر فى هدوء وتمضى بالحركة البطيئة نحو الغروب وفى واحدة من سنوات الحياة المتقلبة تغدو عشرة نسوة من ديار بنى سعد بن بكر إلى منازل الأثرياء من قريش يطلبن الرضاع فأصبن بغيتهم إلا حليمة حيث كانت الغالبية منهن قد انصرفن عن محمد بن عبدالله ليتمه وبساطة أسرته وقلة ماله ولم ترغب حليمة فى العودة دون رضيع تواجه به زميلاتها وأهلها وتستعين بالقليل من المال الذى يأتى من أمه وجده فى الإنفاق على بنيها وأسرتها، وتخلف ركبها عن القوم فضمت محمدا، وسعدت به وأشفقت على حاله وأرضعته من ثديها واستبشرت به خيرا، وأمطت أتانها، وصحب زوجها الركب بشارفهم[٢]، وغادروا

---

(١) الطبقات الكبرى جـ١ صـ١٥٤ .
(٢) بشارفهم أى بناقتهم .

مكة، ولحقوا بموكب الرضعاء إلى أن وصلوا إلى ديـار بنـي سـعد والطفل اليتيم لا يدرى عن أمره شيئا ولا يعرف ماذا خبأ القدر عمـا ستأتى به الأيام.

وهكذا انتقل محمد من دار قومه فى مكة إلى خيمة تخفـق فيهـا الرياح من خيام السعديين، فعاش فى البداية، ونعم بهوائهـا الصـافى وشمسها الساطعة وقمرها البهيج وطبيعتها الخلابة فى رفقة من إخوته فى الرضاعة وهم عبدالله بن الحارث وأنيسة بنت الحارث وحذافة بنت الحارث [وهى الشيماء] التى كانت تحضن محمدا مع أمها وترعاه فـى غيابها وتقوم على شأنه إذا ألم به ما يلم بأمثاله من الصغار، وتتـوالى الشهور ولا هم لمن فى خيمة حليمة سوى الحفاظ على هذا الصـغير اليتيم الذى يتعلق بصره بالفضاء الرحب الفسـيح إلـى أن أتـم مـدة رضاعته التى تتبعها المرضعات وهى سنتان، وكأنه ابن أربع سـنين وعادت به حليمة إلى مكة بعد أن أكملت مهمتها وحافظت على الأمانة التى كلفت بها فهنأ الجد عبدالمطلب وبقية أهله بحالته إلا أن أمه ــ مع شوقها له ــ كانت خائفة عليه، لأنه أملها فى الأرض ورسالتها التـى كلفت بها منذ جاء إلى الدنيا وانتصرت على عواطفها واحتكمت إلـى عقلها فقالت فى صوت مرتجف مملوء بالخوف والإشفاق إلى مرضعته حليمة: "ارجعى بابنى، فإنى أخاف عليه وباء مكة، فوالله ليكـونن لـه شأن فرجعت به وهكذا استقر الطفل فى البادية منـتقلا مـن مرحلـة الرضاعة إلى مرحلة التنشئة والتكوين والعيش فى الخيمـة البسـيطة كبساطة الحياة، لكن رحم الغيب ما زال يحمل فى خباياه بعض حوادث

العبرة ودروس السنين مما يمكن أن يكون ممثلا لحالة من الإرهـاص المبكر لدلائل النبوة لهذا الطفل اليتيم ، فبعد أن بلغ أربع سنين تعرض لحادثة شق البطن أو شرح الصدق التى أفاض القدماء والمحدثون فيها قبولا أو رفضا وإيجازا، أوبسطا، وهى لا تخرج فى أبسط أحوالها عن كونها آية من الآيات التى أراد الله بها الإشعار بوجود (محمد) والتنبيه على أهمية المحافظة عليه ممن يكرهون سموا أو رقيا لمن يمكـن أن يكون وافدا يزداد كبرا فتتغير به أنماط الحياة.

ونرى أن عناية الله برسوله ـ والتى تتمثل فى هذه الحادثة هـى التى جعلت بعض العلماء متمسكين فى القول بها حسب ورودهـا فـى بعض كتب السيرة، ونعتقد أن هذه العناية لا تتأثر فى القـول بشـرح الصدر على صورته غير الحسية التى نفهمها من قـول الله تعـالى : ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ (١).

وبعد أن أتم الوليد خمس سنين عادت به مرضعته من بنى سـعد لترده إلى أمه بعد أن قضى مدة كافية فى التنشئة الأولى التى ينمو فيها جسم الطفل وعقله خاصة أن [محمدا] كان محط الأنظار ومتميزا عـن الأقران، وربما اشتمل حليمة بعض الخوف عليه فأرادت أن تعيده إلى أهله وتسلم الأمانة إلى أصحابها، حتى تتفرغ لتصريف أمورها وتأدية رسالتها وتنشأة أبنائها.

---

(١) الشرح ١ ـ ٤ .

لم تكن الصلة قد انقطعت بين حليمة وآمنة فى سنوات الرضاعة، كما أن هذه الصلة لم تنقطع بين حليمة ومحمدا فى السنوات التالية وبقيت مرضعته على حبها له فهى أمه وحاضنته وهو رضيعها وحبيبها وجاءت إليه بعد أن تقدم بها العمر وزادت تجارب سيدنا محمد وتزوج خديجة بنت خويلد واشتكت إليه جدب البلاد وهلاك الماشية، فكلم خديجة عنها، فأعطتها أربعين شاة وبعيرا وانصرفت إلى ذويها فى سعادة غامرة لم تكن تتوقعها.

وهنا نلحظ بر الرسول ﷺ فى شبابه لمن أسدوا إليه معروفا وأحسنوا إليه عندما لم يكن يملك من الحياة شيئا فلم ينكر جميلا ولم يبخل على أحد، ولم يترفع عن البسطاء الذين كانوا عونا وسندا له فى المراحل المتقدمة من حياته .

أما (بركة) فلها فى طفولة الرسول الأثر العظيم، وهى فتاة حبشية كانت فى ريعان الشباب عندما أقبل محمد إلى الدنيا وكانت هى وخمسة أوارك[1] وبعض الأغنام كل ميراث محمد ﷺ ، وحزنت بركة لفراق محمد لها عندما ذهب للرضاعة فى بنى سعد، وكان حبها له كبيرا، ولم تفارقه بعد عودته إلى مكة وسفره مع أمه إلى المدينة، وتعلق قلبها به أكثر من ذى بل بعد وفاة أمه، وبقيت إلى جواره حتى نما عوده وعظم شأنه وزادت مكانته فى قومه، وأعتقت بعد زواجه من خديجة، وتزوجت فى مكة رجلا من أهل يثرب وانتقلت إليها معه،

---

(١) أوارك : ابل .

وأنجبت ابنها [أيمن بن عبيد] ومات زوجها فعادت إلى مكة وبقيت إلى جوار الرسول ثم تزوجت من مولاه زيد بن حارثة، فأنجبت منه ابنهـا القائد البار [أسامة بن زيد] الذى ولاه الرسول قيادة الجيش، وهـو لـم يزل صغيرا ثقة فيه واعتزازا به، وتقديرا لمكانة أمه وأبيه من نفسه.

وهكذا تتضح عطف الرسول على أتباعه من الموالى والضعفاء، وبقى طوال عمره وفيا ودودا لم ينس ماضيه ولم يتنكر لحاضره فعاش محبوبا من الناس جميعا إلى بداية عصر المبعث.

وهاجرت [أم أيمن] إلى المدينة وساندت الرسول، واستشهد ابنها [أيمن] يوم حنين، وعاشت بقية عمرها صابرة مجاهدة إلى أن توفيـت فى خلافة ذى النورين [عثمان بن عفان].

وعاش محمد شطرا من طفولته المبكرة فى كنف جـده ورعايـة أمه، هانئا مطمئنا إلى أن كشفت له الأيام عـن غواشـيها وهمومهـا الثقال.

وفاة الأم وكفالة الجد

عندما بلغ "محمد" ست سنوات خرجت أمه إلى يثـرب لزيـارة أخوال جده من بنى عدى بن النجار، ومعهما "بركة" حاضنة الرسـول وارتحلوا على بعيرين، ومكثوا فى يثرب قرابة شهر زار فيه "محمـد" قبر والده عبدالله، وتجسد اليتم فى نفسه، وما لبث الركـب أن غـادر يثرب متجها إلى مكة، ولم يتم رحلته بمثل الحالة التى كان عليها، فقـد ماتت "آمنة" فى الطريق بين يثـرب ومكـة عنـد قريـة "الأبـواء" واصطحبت بركة "محمدا" إلى مكة، ونهضت بـدور الأم والحاضـنة والقلب الرحيم بهذا الطفل الصغير ٠

ولقد ذهب عبدالله وذهبت آمنة، وبقى "محمد" ليحمل أحزان اليـتم فى طفولته المبكرة وانتقلت كفالته إلى جده الذى ضمه إلـى مجلسـه، ورق له وأوصى بركة به خيرا، وتابع مطعمه ومشربه وكل شىء فى حياته٠

ولم تطل رعاية جده له فقد مات عبدالمطلب والرسول ابن ثمـان سنين ودفن "بالحجون" عن اثنين وثمانين سنة وقيل عن مائـة وعشـر سنوات، وقد سئل الرسول ـ ﷺ ـ فيما بعد فقيل له : "أتـذكر مـوت عبدالمطلب"؟ فقال "نعم ، أنا يومئذ ابن ثمان سنين"٠[1]

---

(١) راجع الطبرى وسيرة ابن هشام مع اختلاف فى اللفظ ٠

لقد حرم "محمد" من أشياء كثيرة بموت جـده ولكـن الله حفظـه وآواه، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴾ (١) أى جعل لك مأوى تركن إليه عند عمك "أبى طالب" حيث اشتمله بعد أن حرم من عطـف الأب وحنان الأم ورعاية الجد فشرب الحزن فى طفولته؛ ليهب الناس فى مستقبل أيامه الفرحة والسعادة والخلاص.

إن حياة الرسول منذ ولاته إلى أن توفى جده مليئـة بالتجـارب المفيدة والمواقف المتميزة ، وهى طفولة متفردة وذات أطوار متغايرة، ففيها لين الحضر ، وجفاف البادية، وفيها اليتم والبؤس وخشونة الحيـاة وفيها عطف الأم ورعاية الجد وحدب المرضعة وحنـان الحاضـنة، ولكن ذلك لم يكن إلا غطاء خارجيا لتلك الحياة التى حرم فيهـا هـذا الطفل من الأب أولا ثم من الأم والجد بعد ذلك.

لقد تحدث القرآن الكريم الذى نزل على محمد منجما فيمـا بعـد بالعديد من الآيات عن اليتامى الذين يقعون فريسة لـذوى الأطمـاع، فتبرز بعض الآيات للحق المالى لليتيم، وتدعو للحفاظ عليه، بينما تدعو بعض الآيات الأخرى للحق الإنسانى المتمثل فى الرأفة بهم والتسـامح معهم والعطف عليهم .

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾(٢) .

---

(١) الضحى ٦ .
(٢) الأنعام ١٥٢ ، والإسراء ٣٤ .

وقال : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾(١) ، وذكر القرطبى أن هذه الآية نزلت فى رجل من غطفان يقال له [مرثد بن زيد] الذى ولى مال ابن أخيه وهو يتيم صغير فأكله، فأنزل الله تعالى فيه هذه الآية... وقيل نزلت فى الكفار الذين كانوا لا يورثون النساء ولا الصغار(٢).

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾ (٣)أى ادفع إليه حقه ولا تتسلط عليه بالظلم وخص اليتيم؛ لأنه لا ناصر له غير الله تعالى.

وقال عز من قائل : ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴾ (٤)، وعن أبىهريرة أن رجلا شكا إلى النبى قسوة قلبه فقال له: "إن أردت أن يلين فامسح رأس اليتيم واطعم المسكين"(٥).

وفى الصحيح عن أبىهريرة أن الرسول ـ ﷺ ـ قال : "أنا وكافل اليتيم له أو لغيره كهاتين" وأشار بالسبابة والوسطى.(٦)

---

(١) النساء ١٠ .
(٢) الجامع لأحكام القرآن جـ٥ ص٥٣ .
(٣) الضحى ٩ .
(٤) الماعون ١، ٢ .
(٥) رواه الطبرانى .
(٦) رواه مسلم.

فالآيات القرآنية والأحاديث النبوية تؤكد وجوب المحافظة علـــى الحقوق المالية لليتامى، وذلك بإعطائهم نصيبهم من الميراث ومحافظة الولى على أموالهم ،والتأكد من رشدهم قبل دفع الأموال إليهم،وكـــذلك تدعو الشريعة الإسلامية إلى ضرورة المحافظة على الحقوق الأدبيـــة والإنسانية لليتامى، فلا يقعون تحت قهر وإيذاء من أحد ، كما لا يجوز أن تكون الولاية سيفا مسلطا عليهم،بل يجب أن تكون عونا وإرشـــادا لهم ٠

ذكر الأستاذ "عباس العقاد" أن الإشارات التـــى صـــاحبت مولـــد الرسول والتى تحدث المؤرخون عنها لم تقنع أحدا بالرسالة يوم صدع النبى بالدعوة، أو كان ثبوت الإسلام متوقفا عليها قال : "قالت حوادث الكون: لقد كانت الدنيا فى حاجة إلى رسالة وقالت حقائق التاريخ لقـــد كان محمد هو صاحب تلك الرسالة ولا كلمة لقائل بعد علامة الكـــون وعلامة التاريخ"[١]٠

فالكلام عن طفولة الرسول إنما هو تذكير لحقوق اليتـــامى التـــى أكدها القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف تلك الحقوق التى باشرها واهتم بها المجتمع الإسلامى،ولم يتركها لأهواء الكفلاء والأولياء،وإنما وضع لها الأسس والقواعد فى ضوء النصوص الشرعية الصحيحة٠

---

(١) عبقرية محمد ص٢٦ طبع دار الهلال٠

من عهد الطفولة والصبا

فى كفالة عمه أبىطالب:

لقد انتقلت كفالة محمد إلى عمه بعد وفاة جده عبدالمطلب، وكـــان أبوطالب قليل المال كثير العيال، ومع ذلك أحب محمدا حبـــا عظيمـــا، واصطبحه فى تجارة إلى الشام، ووثق فيه فعوضه عن يتمه، ومنحـــه الحرية فى اختيار العمل الذى يروق له ويتناسب مع ميوله واتجاهاتـــه فى مجتمع مكة.

أما أبوطالب فلم يتحول فى كبره وشيخوخته عن معتقداته وديـــن آبائه وأجداده، ولم يستجب لنداء الإسلام بعد البعثـــة النبويـــة، وكـــان الرسول آنذاك يود لو نطق عمه بكلمة التوحيد حيث كان يتمناها له، إذ خاطبه فى مرض الموت قائلا: "يا عم قل: لا إله إلا الله، كلمة أشـــهد لك بها عند الله" وكان عنده: عبدالله بن أبىأمية وأبوجهل، فكانا يقولان لأبى طالب: "يا أبىطالب أترغب عن ملة عبدالمطلب؟" وكـــان آخـــر كلامه: "أنا على ملة عبدالمطلب" ثم مات وقال الرسول: "لأستغفرن لك ما لم أنه"، فاستغفر له، فنزلت هذه الآية: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ (١).

---

(١) التوبة ١١٣.

ونزل على الرسول فى حق أبى طالب أيضـــا: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[١].

وقيل إن آية أخرى نزلت فى شأنه،وهى قوله تعالى:﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾[٢].

فكان أبو طالب ينهى عن أذى رسول الله ﷺ وينأى عن الـــدخول فى الإسلام.

مات أبوطالب قبل حادث الإسراء والمعراج، وفى العـــام الـــذى توفيت فيه السيدة خديجة والذى عرف بعام الحزن.

وتعرض محمد ﷺ فى طفولته لموقف عظيم عندما اصطحبه عمه أبوطالب فى قافلة تجارية إلى الشام، وكان عمره يومئذ ثلاث عشـــرة سنة، ولما وصلت القافلة إلى [بصرى] وهى قرية على الحـــدود بـــين الشام وبلاد العرب . ووجد الراهب [بحيرا] أن أوصاف محمـــد هـــى أوصاف النبى الذى بشرت به التوراة والإنجيل، وكان بحيرا مخلصـــا وفيا ودعا أبى طالب أن يرجع إلى بلده بابن أخيه، وأن يحذر عليه من مكر النصارى وكيد اليهود، واستجاب أبوطالب لما قاله الراهب، وعاد إلى مكة دون أن تترك الحادثة أثرا فى نفس الرسول أو على عمه، أو

---

(١) القصص ٥٦ .
(٢) الأنعام ٢٦ .

بين الناس، ولم ينس أبو طالب ما قاله بحيرا أن ابن أخيه سيكون لــه شأن فى قابل الأيام.

ويبدو أن أبا طالب قد استشعر الخوف الشديد على ابــن أخيــه، فعاد به دون أن ينتظر إلى ما يمكن أن تسفر عنه تلك الرحلة التجارية التى جهز لها نفسه وماله، ورضى بالأمن والعودة سالما.

وبقيت صورة محمد متجسدة فى وجدان أبىطالب ممثلــة لأبيــه الراحل الكريم المدفون فى ثرى يثرب الطيبة.

وذكر القرآن الكريم ما جاء فى التوراة والإنجيل عن رســول الله ﷺ من ذلك قولــه تعــالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ [1] .

حرب الفجار وحلف الفضول:

كانت حرب الفجار بين قبيلتى كنانة وقيس عيلان بسبب النــزاع على التجارة فى سوق عكاظ، وسميت بذلك لأنها وقعت فــى الأشــهر الحرم، أو بدأت فيها ــ كما ذكر كثير من المؤرخين ــ أربعة أعــوام، وانضمت قريش إلى كنانة، وقيل إن الرسول قد شارك فى هذه الحرب حيث حمل السلاح إلى جانب أعمامه، وقيل إنه كان يناولهم الســيوف،

---

(١) الأعراف ١٥٧ .

إذ بدأت وعمره خمس عشرة سنة، وانتهت بالصلح الذى اتفـق عليـه الطرفان فى [حلف الفضول] وعاد الرسول من هذه الحرب آمنا سالما لم يمسسه أذى، ولم ينله مكروه، ولم يكن مطلوبا لثأر أو عداوة وبقـى أمينا محبوبا بين سائر الناس ٠

إن مشاركة محمد ﷺ فى هذه الحرب كانت استجابة لنداء القبيلـة وتنفيذا لما يجب عليه نحو أهله وخضوعه لمتطلبات المجتمع القبلـى، حيث لم يعهد الناس فيه شرا أو سطوة، كما أن معاونته كانت للمساعدة وليس للتنفيذ الفاعل، ومن مباركة السماء لشخصه وتوجهه أن القتال لم يترك فيه أثرا يذكره بهذا الماضى وبكل ما فيه من أحداث اجتماعيـة وقبلية، كما أن هذه الحرب انتهت إلى الوفاق والصلح والهدوء الـذى حل محل العداوة والقتال٠

أما حلف الفضول فقد عقدته قريش بعـد الانتهـاء مـن حـرب الفجار، وكان محمد فى العشرين من عمره [تقريبا] وشارك فـى هـذا الحلف وشاهد بنى هاشم وزهرة وتيما وهم يجتمعون فى دار عبدالله بن جُدْعان بمكة حيث تعاهدوا بحماية الضعفاء والمظلـومين، وعلـى أن يأمن كل واحد على ماله وعياله ، وقد رفع هذا الحلـف مـن منزلـة قريش بين القبائل العربية٠

وكان ابن جدعان من أثرياء مكة وكرمائها المشـهورين، ولهـذا استضاف الأقطاب البارزين للتحالف، وصنع لهم طعامـا، وتعاهـدوا

وتحالفوا قائلين: "لنكونن مع المظلوم حتى يؤدى إليه حقه ، ما بل بحر صوفة [أى بدا] وفى التأسى فى المعاش" .

وتحدث محمد ﷺ عن هذا الحلف وأشاد به ، ونقل عن قوله: "لقد شهدت فى دار عبدالله بن جدعان حلفا ما أحب أن لى به حمر النعم، ولو ادعى به فى الإسلام لأجبت"(١).

إن التحالف الجاهلى دعوة للوفاق وليس للنزاع وأن كل مجموعة من القبائل لو تعاونت فيما بينها على النمط القديم واتفقت على السلم ونبذ الحرب ومعاونة المظلومين، ومساندة الضعفاء والمحتاجين ، لكان ذلك خيرا عظيما يمكن أن يمتد من مجموعة إلى أخرى، حتى يعم السلام، وينتشر الرخاء، ولكن هذا لم يكن متاحا إذا لم يلتئم الأعراب فى منظومة شاملة ينضوون تحت لوائها، وأن هذه الأحلاف صارت الآن موضعا للتنفيذ والتقدير بين كثير من البلدان، وأن بعض الدول تسعى إلى الانضمام إلى التحالفات الإيجابية لكنها تجد عسرا ومشقة.

وتبقى أن تكون الأحلاف سبيلا لخدمة المشاركين فيها ومساعدة غير المنضمين لها بحيث لا تكون تكتلات تشجع المعتدين، وتغير على الضعفاء، وتسطو على مقدرات الشعوب النامية أو النائمة فى بدايات القرن الحادى والعشرين، وأن هذا — للأسف الشديد — يحدث بصورة مكشوفة عارية، لكن القوة غالبا تهزم معظم الإرادات الضعيفة التى توشك على الانهيار.

---

(١) من السيرة النبوية لابن هشام جـ١ صـ٨٤ وحمر النعم : النعم هى الإبل والبقر والغنم، والحمر منها: هو الغالى الثمن .

ففى حلف الفضول ، وفى زمن انعقاده سعد به وتحدث عنه محمد ﷺ مع أن عمره فى الحياة العامة لم يكن كبيرا يشجعه على الخــوض فى التفصيلات التى ينهض بها أصحاب الخبرة والتجربة بالنظام القبلى الذى لم يكن جديدا على ساحة بلد الله الحرام وما حولها ٠

وقد تحدث القرآن الكريم عن منزلة الرسول، ومجيئه إلى النـــاس بالرأفة والرحمة التى وجهت للنـــاس جميعـــا ، قـــال تعـــالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ (٢).

(١) التوبة ١٢٨ ومعنى عزيز عليه ما عنتم: أى شديد عليه عنتكم أى مشـــقتكم ولقائكم المكروه٠

(٢) الأنبياء ١٠٧ ٠

الرعى والتجارة

عمل الرسول ﷺ برعى الغنم فى أول شبابه فقد كانت مهنة الكثيرين من أبناء بلده الذين ألفوها وتعودوا عليها أزمانا طويلة، فعن أبىهريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : "ما بعث الله نبيا إلا رعى الغنم، فقال أصحابه وأنت؟ فقال: نعم، كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة"(١).

إن الحياة فى الصحراء والعمل بالرعى يولدان شعورا خاصا عند الإنسان الذى ليس به تميز وتفرد، فما الحال إذا كان هذا الإنسان محمدا الذى ولد يتيما، ومال إلى الهدوء والتأمل وعزف عن ميوعة الصبا ولهو الشباب.

إذا لقد استفاد من هذا النوع من العمل ومارس الصبر والأناة فى الرعى والتزم بالصدق فى القول والهدوء مع النفس والأمانة مع الخلق ونقرأ ما كتبه الدكتور/ محمد حسين هيكل قائلا : "وإذا كان نظام هذا القطيع من الغنم أمام محمد يقتضى انتباهه ويقظته؛ حتى لا يعدو الذئب على شاة منها، وحتى لا تضل إحداها فى مهامه البادية، فأى انتباه وأية قوة تحفظ على نظام العالم كل أحكامه! وهذا التفكير والتأمل من شأنهما صرف صاحبهما عن التفكير فى شهوات الإنسان الدنيا، والسمو به عنها بما يبديان له من كاذب زخرفها، لذلك ارتفع محمد فى

---

(١) رواه البخارى، والمقصود من قوله على قراريط أى العطاء القليل.

أعماله وتصرفاته عن كل ما يمس هذا الاسم الذى أطلق عليه بمكــة، وبقى له [الأمين]" (١).

وصدق رب العزة والجلال فى قوله تعــالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ (٢).

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (٣).

واشتهر الرسول بين قومه بالأمين، ولم يتخل عن الأمانة حتـــى مع خصومه الألداء، ففى ليلة الهجرة النبوية المباركة أبقى عليــا فــى مكة؛ ليرد الأمانات إلى أهلها، ولنتأمل كيف استأمنة الخصوم والأعداء على أموالهم، ولم يكن ذلك ليحدث لولا أنهم واثقون فى صدقه وأمانته وإخلاصه.

وربما كانت هذه الثقة فى أمانته هى التى رشحته، ليكون علـــى رأس قافلة تجارية لخديجة بنت خويلد قبل زواجه منهــا بقليــل مـــن الوقت، وقد اتجهت القافلة إلى الشام، وظهر فيها لميسرة غلام خديجــة كثير من إرهاصات النبوة التى صاحبت محمدا فى هذه الرحلة وشـــهد الملكين اللذين كانا يظللانه وقت الهاجرة واشتداد الحر، كمــا اســتمع

---

(١) حياة محمد صـــ١٣٥ .
(٢) الأحزاب ٢١ .
(٣) القلم ٤ .

ميسرة إلى كلام الراهب [نسطور] عن محمد بعد أن نزل تحت شجرة معينة، قيل إنه لم ينزل تحتها إلا الأنبياء.

وحقق محمد لخديجة ضعف ما كانت تربح فى كل قافلة وأعطته أكثر مما رغبه وسعى إليه، ثم إن هذه الأمانة التى وصف بهـا عـن جدارة واستحقاق دفعت خديجة إلى الإعجاب به والثقة فيه، ولذلك لـم تتردد فى قبوله زوجا لها، وكانت كريمة معه وفية له مخلصة لعقيدتـه كأعظم ما يكون الكريم والوفاء فى عالم النساء.

وهكذا تبدو ملامح الرسول فى هذه الحقبة من حياته بما فيها من جد وعزم، وهمة ونشاط، إذ شارك فى الأحداث المهمـة بـين قومـه وسافر إلى الشام مرتين، ولابد هنا من ملاحظة فى قافلـة أبىطالـب وقافلة محمد فى مال خديجة، فقد رجع أبوطالب بعد لقـاء بحيـرا لأن الأمر أمره وهو صاحب الرؤية والقرار، وقدم سلامة ابن أخيه علـى مكسبه من القافلة بينما استمر محمد فى رحلته للتجارة فى مال خديجة بعد لقاء نسطور؛ لأن المال ليس له ولا يملك إلا الاستمرار فى الرحلة وفاء وإخلاصا، خاصة أنه كما ذكرنا لم يكن يملك المال وإنما يملـك القيادة والإرادة واتخاذ القرار، واشتغل بالرعى والتجارة وكانتا مهنتين تشكلان عصب المال والأعمال فى مجتمع مكة وأن الرسول قد مارس من العمل ما يتفق مع قدراته فى كل مرحلة سنية عـاش بهـا، ولـم يتخاذل أو يأبى فى أن يمارس عملا دون آخر؛ لأن حاجتـه الماليـة وظروفه الاقتصادية كانت جديرة بالأخذ والاعتبار ، وعرف بالصـدق

والأمانة وقد استفاد وأفاد منهما فانفتحت أمامه كل السبل، وبدا متميزا على أقرانه عازفا عن كل ما يشينه أو يلوث سمعته، وعكــف علــى التفكير والتأمل وذلك ما رشحه بعد تقدير الله تعالى ليستقبل آخر هدى السماء إلى الأرض.

وقد دعا إلى العمل وحث عليه طوال عمره خاصة بعــد بعثتــه فقال: "ما أكل أحد طعاما خير من أن يأكل من عمل يده، وإن نبــى الله داود كان يأكل من عمل يده"(١).

وعن أبى هريرة ﷺ عن الرسول ﷺ أنه قــال : "لأن يحتطــب أحدكم حزمة على ظهره خير من أن يسأل أحدا فيعطيه أو يمنعه"(٢).

وقد دعا إلى إتقان العمل والإخلاص فيه؛ لتتحقق الفائدة، ويعــم الخير، وينتشر الرخاء وتهدأ النفوس وتؤوب القلوب إلى الله بالرضــا والقناعة والإيمان.

---

(١) رواه البخارى.
(٢) رواه البخارى.

من الزواج إلى البعثة

برزت فى السنوات التى عاشها الرسول من زواجه إلـــى بعثتـــه مجموعة من الأحداث الهامة التى ظهر فيها نضـــوج عقلـــه، وكمـــال رجولته، وسمو أخلاقه، وصفاء عقيدته، وتمثل ذلك فى زواجـــه مـــن خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبدالعزى وما أعقب الزواج من إنجاب للبنين والبنات ودوره فى إعادة بناء الكعبة ووضع الحجر الأسود فـــى مكانه، وعكوفه على التحنف والزهد فى الحيـــاة والرؤيـــا الصـــادقة والقدوة الحسنة التى تمثلت ووضحت فيه، والبعد عن الخنا والرذائـــل ونبذ عبادة الأوثان.

١- زواجه مـن خديجـة: كانت خديجة واحدة من أشهر النساء فـــى مكة، وهى تملك المال الكثير والفعل الكبير والمكانة المرموقة، ولهـــا علاقات حميمة بكثير من النساء، وتعرف نفوس الرجال وطمع بعضهم فى المال، ولهذا عندما أخذ الناس يتحدثون عن أمانة محمد بن عبـــدالله واستقامته رغبت فى اشتغاله بتجارتها، وسافر مع غلامها ميسرة إلـــى الشام .

أما الطامعون الراغبون فى الزواج منها فقد رفضتهم، ولم يـــرق لها واحد منهم؛ لأنها استشعرت فيهم الطمع فى الثراء وليس الرغبـــة فى النفس، وهذه امرأة لها تجربتان سابقتان فى الزواج، وإن كان أملها فى الحياة لم يفتر، ولم تصب مشاعرها بالبرود والجمود، ولعل نفســـها

كانت تواقة لزواج هادئ مريح، ولذلك اتجه قلبها وتفكيرها إلى محمد الشاب القرشى الأمين.

وكانت صديقتها [نفيسة بنت مُنْية] محببة إليها وفية لها، ولم تجد أفضل منها؛ لتكون رسولا لها عند محمد بن عودته من الرحلة التجارية الناجحة إلى الشام، وجاءت إليه نفيسة مستطلعة رأيه فى الزواج، ومعرضة فى الوقت نفسه بخديجة، كما تفعل كثير من النساء فى أمثال هذه المواقف المتكررة فى صحائف التاريخ، وقد ذكر ابن سعد فى الطبقات ما يأتى: "عن نفيسة بنت منية، قالت كانت خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبدالعزى بن قصى امرأة حازمة جلدة شريفة، مع ما أراد الله بها من الكرامة والخير، وهى يومئذ أوسط قريش نسبا وأعظمهم شرفا وأكثرهم مالا، وكل قومها كان حريصا على نكاحها لو قدر على ذلك، قد طلبوها وبذلوا لها الأموال فأبت، فأرسلتنى دسيسا إلى محمد بعد أن رجع فى عيرها من الشام، فقلت : يا محمد ما يمنعك أن تتزوج؟ فقال: ما بيدى أن أتزوج به فقلت: فإن كُفيت ذلك، ودعيت إلى الجمال والمال والشرف والكفاءة ألا تجيب؟

قال فمن هى؟ قلت: خديجة، قال: وكيف لى بذلك؟ قالت : قلت علىّ. قال : فأنا أفعل.

"فذهبت فأخبرتها،فأرسلت إليه أن إت لساعة كذا وكذا،وأرسلت إلى عمها ليزوجها فحضر،ودخل رسول الله ﷺ فى عمومته فزوجه أحدهم"(١)

(١) الطبقات جـ١ صـ١٨٥ ـ ١٨٦.

وكان والدها قد مات قبل حرب الفجار وعمرها آنذاك أربعون سنة (تقريبا) ، ومعها ابنة من زوجها الأول ، وابن من زوجها الثانى، أما رسول الله ﷺ فكان فى الخامسة والعشرين من عمره، ومن أسرة كريمة شريفة، واشتهر بين الناس بالصدق والأمانة وجاء معه عند طلب الزواج عماه أبوطالب وحمزة، وألقى عمه وكفيله أبوطالب خطبة النكاح فقال فيها:

"أما بعد فإن محمدا ممن لا يوازن به فتى من قريش إلا رجح به شرفا ونبلا وفضلا وعقلا، وإن كان فى المال قل فإن المال ظل زائل وعارية مسترجعة، وله فى خديجة بنت خويلد رغبة، ولها فيه مثل ذلك.." وأثنى عمها "عمرو بن أسد" على محمد ﷺ ، وأنكحها منه على صداق قدره عشرون بكرة، ونحرت الذبائح وفتحت دار خديجة للأهل والأصدقاء، ونعم محمد بالهدوء والحنان والعطف والأمان التى افتقدها بعد أن ماتت أمه فى طفولته ٠

ولقد نهضت هذه الزوجة بدور كبير فى حياة الرسول، فساعدته بالمال والرأى الصائب، والقول الهادف، وعاش فى منزلها عزيزا مكرما دون أن يناله منن أو أذى، ورزقه الله منها البنين والبنات، وآمنت بدعوته وأسلمت لله رب العالمين إلى أن توفيت بمكة قبل حادثة الإسراء والمعراج فى العام الذى عرف بعام الحزن٠ كان الرسول وفيا لزوجته الأولى خديجة البارة المخلصة فى حياتها وبعد مماتها، فلم يتزوج عليها طوال المدة التى عاشتها معه، وظل يذكرها بالخير وهو يعيش مع زوجاته الأخريات٠

قالت عائشة حين خفق قلب الرسول لخديجة: ما تذكر من عجوز من عجائز قريش حمراء الشدقين هلكت فى الدهر أبـدلك الله خيـرا منها٠

قال: "... والله ما أبدلنى الله خيرا منها، آمنت بـى حـين كفـر الناس، وصدقتنى إذ كذبنى الناس، وواستنى بمالها إذ حرمنى النـاس، ورزقنى الله منها الولد دون غيرها من النساء(١)٠

فأمسكت عائشة فى نفسها وهى تقول : "والله لا أذكرهـا بعـدها أبدا"٠

٢ـ أبناء الرسول من خديجة :

لقد رزق محمد ﷺ من خديجة بولدين وأربع بنات ماتوا جميعـا فى حياة والدهم ما عدا فاطمة التى ماتت بعد موت الرسول بستة أشهر فى ضوء ما ذكرته الروايات التاريخية ٠

والولدان هما القاسم وعبدالله٠

أما القاسم فكان أول الذرية، وسعد به أبواه سعادة كبيرة وكنى به الرسول، وكان أول الأموات من أبناء محمد وخديجة ٠

أما عبدالله فقد ولد فى مكة وكان آخر من ولدته خديجة، ولقـب بالطاهر والطيب، ثم مات هو الآخر فى المرحلة الأولـى مـن عمـر الدعوة الإسلامية، وبعد موته قال العاص بن وائل السهمى : قد انقطع

---

(١) رواه أحمد والطبرانى وذكره ابن حجر فى فتح البارى٠

ولده فهو أبتر (ويقصد محمدا) فـأنزل الله سـبحانه وتعـالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ [1] وشانئك أى عدوك ومبغضك٠

وذكر الدكتور/ محمد حسين هيكل أن عبدالله قد مات فى الجاهلية (مثل أخيه)، وأن هذين الطفلين لم يتركا على الحيـاة أثـرا يبقـى أو يذكر[2] .. لكن موتهما أثر على والديهما تأثيرا كبيرا خاصة أن الولـد عند العرب له شأن لم تصل إليه الأنثى٠

وقد تحدث القرآن الكريم عن طباعهم فى ذلك، وأبان الفواصـل فى عواطفهم نحو كل من الذكر والأنثى ٠

والبنات هن زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة، وإن كان (ابن سعد) قد ذكر فى كتابه الطبقات فاطمة فى ترتيب الولادة قبل أم كلثوم وقـد أسلمن جميعا وتزوجن حسب ما سوف نذكره٠

أما زينب فقد تزوجت أبى العاص بن الربيع، وكانت أمـه أختـا لخديجة، ولما هاجر المسلمون إلى المدينة هاجرت معهم زينب، وبقـى أبوالعاص فى مكة، وقاتل مع المشركين فى غزوة بـدر وكـان مـن الأسرى ، ولم تزل زينب فى عصمته، ثم فك أسره وأعلـن إسـلامه، وبقى وفيا مخلصا لزوجته إلى أن توفيت رضى الله عنها٠

---

(١) الكوثر / ٣ ٠
(٢) حياة محمد صـ١٤٣ ٠

رقية وأم كلثوم:

جمعت الأقدار بين رقية وأم كلثوم فى أكثر من تجمع، فتزوجتا من عتبه وعتيبة ابنى أبى لهب، وأساءت زوجته أم جميل إليهما إلى أن تم تطليقهما.

فتزوج عثمان بن عفان رقية بنت محمد، وبعد أن ماتت تزوج أختها أم كلثوم، فقيل له ذو النورين وقد ماتت أم كلثوم فى حياة أبيها كما سبق القول.

أما فاطمة فقد تزوجت على بن أبى طالب الذى كان أول من دخل الإسلام قلبه من الصبيان، وتعد فاطمة هى الوحيدة من بنات الرسول التى تركت ذرية حملت دعوة الإسلام .

وتحدث إليها أبوها كثيرا خاصة بعد البعثة، فمرة يدعوها إلى العمل ومرة يقول عنها: "إنما فاطمة بضعة منى يؤذينى ما آذاها ، ويريبنى ما رابها"[١] أو يقول لها: "إن الله ليرضى لرضاك ويغضب لغضبك" .

وألفت الدكتورة عائشة عبدالرحمن (بنت الشاطئ) كتابها (بنات النبى) فكشفت عن جوانب عديدة من حياتهن، وتحدثت عن فاطمة وعن أخواتها، وعن منزلة على من الأسرة، فقالت:

"لم تكن حياة (الزهراء) فى بيت زوجها مترفة وناعمة، بل كانت أقرب أن توصف بالخشونة والفقر، وهى فى ذلك تختلف عن حياة

---

(١) البخارى ومسلم .

أخواتها اللواتى أتيح لهن حظ غير قليل من الثراء المادى، فقد تزوجت زينب من أبىالعاص وهو معدود من أثرياء مكة ، وتزوجت رقية وأم كلثوم من ابنى أبىلهب ذى المال الوافر، ثم تزوجتا واحدة بعد أخـرى من (عثمان بن عفان) الواسع الثراء، وأما (على بن أبىطالب) فلم يك ذا حظ من مال مكتسب أو موروث، إذا كان أبوه على عظـم مكانتـه وعلو شرفه قليل المال كثير العيال مما دفع ابن أخيه محمـد إلـى أن يقترح على عمه (العباس) التخفيف من أعباء أبىطالب بأن يأخذ كـل منهما أحد بنيه فكفله عنه، وكان من نصيب (على) أن يختاره (محمد) دون بقية أبناء العم"[١].

إن حياة فاطمة مع على كانت مختلفة عن حياة أخواتهـا، لكنهـا عاشت فى معية الزوج بالصورة التى تناسب إمكاناته وقدراتـه ممـا جعل حياة على وأبنائه مليئة بالسعادة والقبول فى ظل التوافق الإيمانى الذى جمع بين قلوبهم جميعا٠

أما إبراهيم ابن الرسول فكان من مارية المصرية التـى كانـت سرية النبى ﷺ الذى أهداها له المقوقس حاكم مصر فى عهد الرسـول ونعود إلى حياة الرسول من زواجه إلى بعثته فنلتمس أحداثها ووقـائع الأيام فيها قد عمرت بالهدوء والطمأنينة والبهجة والذرية المتعاقبة فى ظلال حياته مع خديجة التى تجلى عطفها وكرمها على الزوج والأبناء والدين الجديد أثناء تلك المرحلة الانتقالية من عمر الرسول ﷺ ٠

---

(١) بنات النبى صـــ١٨٣ ٠

ومن مقدمات البعثة أن خديجة رضى الله عنها كانت تحدث ابـن عمها ورقة بن نوفل عن زوجها محمد، وكذلك ما كان من أمر ميسرة مع الراهب وكل ذلك وغيره قد استقبلته خديجة استقبالا حسنا وتجاوب معه ورقة وأخبرها بأن محمدا سيكون نبيا لهذه الأمة ولكن فيما أعتقـد أن كلام ورقة وأحاديث الرهبان وظهور الإرهاصـات التـى تسـبق المبعث النبوى كل ذلك لم يكن ذا تأثير كبير عندما صدع الرسول بمـا أمر به وبلغ القريبين حوله والمعاندين الرافضين للدين الجديد حيث لم تردهم كل هذه السوابق المرشحة لنبوة محمد ﷺ ومما قاله ورقـة بـن نوفل عندما استبطأ أمر الرسول بالتكليف والتبليغ ما يأتى:

لججت وكنت فى الذكرى لجوجا ∴ لهَـمٍّ طالمـا بعـث النشـيجا
ووصف من خديجة بعد وصف ∴ فقد طال انتظـارى يـا خـديجا
ببطن المكتين علـى رجـائى ∴ حـديثك أن أرى منـه خروجـا
بما خبرتنا مـن قـول قَـسٍّ ∴ من الرهبـان أكـرُه أن يعوجـا
بـأن محمـدا سيسـود فينـا ∴ ويخصمُ من يكون لـه حجيجـا
ويظهر فى البلاد ضياءَ نـورٍ ∴ يقـيم بـه البريـة أن تموجـا
فيلقى مـن يحاربـه خَسـارا ∴ ويلقـى مـن يسـالمه فلوجـا
فياليتى إذا مـا كـان ذاكـم ∴ شهدت فكنت أولهـم ولوجـا[1]

(١) السيرة النبوية لابن هشام جـ١ صـ١١٦ ـ وقد جاء فيما يتصل ببشـارة ورقة أنها جاءت اعتمادا على نبوءة الإصحاح التاسع من سفر دانيـال فـى تحقيق الدكتور/ أحمد حجازى السقا ٠

لا يعنينا مقدار الصنعة اللفظية فى هذا الشعر، ولا بيان صحته من نحله ولكن المعول عليه هو ما جاء فيه عن بشارة ورقة لخديجة بقرب بعث محمد وأنه النبى المنتظر لهذه الأمة.

٣ـ إعادة بناء الكعبة ورفع الحجر الأسود :

لقد تجلت مكانة محمد فى قومه قبل البعثة بخمس سنين فى مجموعة من المواقف من أهمها دوره فى إعادة بناء الكعبة، وجمع كلمة العرب والتوفيق بينهم عند الاختلاف على حمل الحجر الأسود ووضعه فى مكانه.

وتذكر الروايات أن الكعبة تعرضت لحريق عندما جاءت إليها امرأة تعطرها، فانطلقت منها شرارة إلى الكسوة، وإلى الأخشاب، ثم جرف السيل البناء، فتصدعت الجدران، ورأوا ضرورة هدمها وإعادة بنائها، ولكنهم اختلفوا فى ذلك، إلى أن جاء سيل آخر، فجعل إعادة البناء أمرا محتوما، وشرعوا فى هدمها، ووصلوا إلى حجارة خضر، فأبقوا عليها أساسا لها.

وتنافس الناس من كل القبائل على حمل أحجار الجرانيت الأزرق من الجبال، (وكان محمد) من بين الذين أسهموا فى نقل الأحجار ، لاستكمال البناء وكان عمره آنئذ خمسة وثلاثين عاما، ولكن الخلاف بينهم أطل عليهم مرة أخرى عندما شرعوا فى رفع الحجر الأسود لوضعه فى مكانه، ورغبت كل قبيلة أن تستأثر بهذا الشرف، واقترح أحدهم رأيا أخذوا به وهو أن يحتكموا إلى أول داخل عليهم من باب

بنى شيبة (وقيل من باب الصفا) وأنهم حينذاك دخل عليهم محمد بـن عبدالله الهاشمى فقالوا: هذا الأمين قد رضينا بحكمه وشرحوا له سبب النزاع بينهم، فطلب ثوبا يصلح لأن يوضع الحجر فوقه، وأن يتحمـل الحجر عند الرفع ثم قال: "ليأت من كل ربع من أرباع قريش رجل" ثم قال: "ليأخذ كل رجل منكم بزاوية من زوايا الثوب ثم ارفعوا جميعـا، ورفعه الناس إلى أن بلغ موضعه فوضعه الرسول فى مكانه"[١].

وكان ذلك توفيقا من الله ساقه على يد محمد؛ ليجعل الناس تلهـج بذكره وتثنى عليه فى هذا الموقف العصيب الذى حمى به قريشا مـن حرب كان يمكن أن تسيل فيها الدماء، وتهدر الأرواح لأمر يسـير لا يعد ذا بال لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

٤ـ الفكر والتأمل:

لم تكن حياة (محمد) فى هذه المدة التى تسبق البعثة قاصرة على تربية الأبناء ورعاية الأهل، والإصلاح بين الناس ، وقبول الأمانات ، بل تجاوزت هذه الظواهر العملية إلى جوانب أخرى مهمة مثل التفكير فى الكون، والتأمل فى الطبيعة ، والتحنث فى غار حراء الـذى يقـع على مسافة قريبة من شمال مكة، وكان يحمل طعامه وشرابه فى شهر رمضان من كل عام فيلجأ إلى هذا الغار لشفاء نفسه مما يضطرب فيها من تفكير عميق، واهتدى فى رؤيته الثاقبة إلى أن الأصنام التى يتقرب إليها قومه لا تضر ولا تنفع، وأن هبل واللاة والعزى ومنـاة الثالثـة

---

(١) الكعبة المشرفة أمينة الصاوى صـ١٣٥ .

عديمة القيمة لا جدوى منها، ولا أثر يرتجى من ورائها ... وأخذ يفكر فيما وراء هذا الكون الواسع الفسيح بأرضه وسمائه، وبـره وبحـره، وإنسه وجنه، وشغل ذهنه بالحياة الحاضرة وما بعدها مـن الغيبيـات المجهولة إلى غير ذلك من الأمور التى استحوذت على فكره ومـلأت قلبه ومشاعره ووجدانه.

وأيقن أن الكون ملئ بالضلال والوثنية، وأن له خالقا واحدا هـو الله سبحانه وتعالى، لكنه لم ينصرف تماما عن شواغل حياته بمن فيها من زوجة وأبناء وسعى إلى الرزق ، وتعامل مع الآخرين.

وقد اتسمت سلوكياته بنمط متميز من الهدوء والبحث عن الحقيقة والسعى إلى المعرفة، واستمر على ذلك دون حدوث متغيرات مفاجئة، إلى أن كان فى غار حراء وفى شهر رمضان هـبط عليـه الـوحى بواسطة جبريل حاملا ومبلغا لمحمد قول الله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلۡإِنسَـٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَـٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ﴾ (١) وكانت هذه الآيات بداية لبعثة محمد ﷺ وللصراع الذى دار مع قومه حول تبليغه لهـم هـدى القرآن وبداية التشريع الإسلامى.

---

(١) العلق ١ ــ ٥ .

الخلوة والرؤيا

لقد انتقلت حياة الرسول من طور إلى آخر دون أن تثبت على حالة واحدة لكنها كانت مشمولة بعمق الرؤية ورجاحة الفكر وقد تميزت سنوات حياته بعد الزواج إلى بدء البعثة بالهدوء والاستقرار الذين يتفقان مع طبيعة تكوينه وإعداده لنزول القرآن، وحمل الأمانة، وتبليغ الرسالة، وقيادة الأمة بالحكمة والموعظة الحسنة، وصار توجهه إلى التأمل والتفكير فى أمر الحياة، والنظر الطويل إلى ما فى الأرض والسماء أكثر من ذى قبل، وأمست نظرته إلى قومه — كما قال الشيخ محمد الغزالى طيب الله ثراه — "نظرة عالم الفلك — فى عصرنا — إلى جماعة يؤمنون بأن الأرض محمولة على قرن ثور، أو نظرة عالم الذرة إلى جماعة يتراشقون بالحجارة إذا تحاربوا، ويتنقلون بالمطايا إذا سافروا"(١).

لكن الرسول لم يكن فى توجهه بعيد الاختلاف فى الفهم والتناول عن جماعة من الحنفاء الراشدين الذين كانوا يعيشون فى مكة وما حولها ويعبدون الله على ما تبقى محفورا فى وجدانهم من ديانة خليل الرحمن، لكننا نؤكد تميزه وشمولية نظرته إلى الحياة، واتصاله بصورة عميقة لصاحب الملكوت الأعلى فى الأرض والسماء.

لكن علاقاته مع أهل مكة كانت فى تغير مستمر لبعد المسافة العقلية بينه وبينهم، فكان يراهم سادرين فى غيهم، عاكفين على عبادة

---

(١) فقه السيرة صـ٨٤ .

أصنامهم، وكان يتساءل فى حيرة مع نفسه: "كيف يمكن أن يوجد هـذا العالم بما يحويه من عجائب وما يحيط به من أسرار دون الحاجة إلـى موجد عظيم بصير، بعيد قوى ، قادر حكيم"(١).

وقد تحببت إلى سيد المرسلين الخلوة الفكرية الروحية، فكان يخلو إلى نفسه فى شهر رمضان من كل عام بغار حراء، حاملا معـه مـن الزاد والماء ما شاء الله له أن يحمل، وذلك بعلم زوجته خديجة ويتعبد فى الغار الليالى ذوات العدد .

وأعتقد أن ذلك كان إلهاما من الله ورغبة مـن الرسـول ولـيس جزاء أو تكليفا إلهيا مباشرا .

وأسهم فى عمق الرؤية لدى الرسول ما كان لديه مـن اسـتعداد روحى وحب فطرى ورغبة شديدة فى المعرفة والوصول إلى الحقائق الثابتة التى كانت تزداد عنده مع الأيام، وفى تلك المرحلة من سـنوات عمره كان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، أى تحـدث كمـا رآها فى المنام خالية من الأوهام وأضغاث الأحلام، وقد أقر ــ فيمـا بعد ــ مقدار الرؤيا فقال: "الرؤيا الصالحة جزء من سـتة وأربعـين جزءا من النبوة"(٢) وكانت خلوته التعبدية تتكرر فى شهر رمضان من كل عام حيث يتجه إلى الله بقلبه وعقله، وبكل جوارحه، ويسلم نفسـه إليه، ويقطع صلته بالدنيا، ويعبد الله على ما تبقى من دعـوة نـوح أو إبراهيم أو موسى أو عيسى عليهم الصلاة والسلام، أو كل ما ثبت أنه

---

(١) القول المبين فى سيرة سيد المرسلين للدكتور/ محمد الطيب النجار .
(٢) البخارى ومسلم .

شرع عنده فكان يتبعه، ويعمل به ، ويحرص عليه من خلال خلوته بما فيها من زهد وتأمل وتفكير ٠

نزول القرآن الكريم:

كان الرسول كعادته يتعبد فى الغار إذ فاجأه الوحى فقال له جبريل اقرأ، فقال له الرسول ـ ﷺ ـ ما أنا بقارئ، وتكرر ذلك ثلاث مرات وقال جبريل فى الثالثة: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [١]٠

ونسأل: هل كان الرسول أميا؟، وكيف يطالب بالقراءة وهى أمى لا يعرف القراءة ولا الكتابة؟ ونجيب بأنه قد يكون المراد من القراءة هو التلاوة الذهنية وليس القراءة البصرية٠

وقيل: إن الرسول كان نائما عندما جاءه "جبريل" وفى يده صحيفة وقال للرسول: اقرأ، فأجاب الرسول مأخوذا : ما أنا بقارئ، وتكرر ذلك ثلاث مرات وكان الرسول يحس كأن الملك يخنقه ثم يرسله، وبعد أن استمع إليه تلفت يمنة ويسرة فلم ير شيئا، وكان الرسول آنذاك فى الأربعين من عمره ، قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَـٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [٢]٠

---

(١) العلق ١ ـ ٥ ٠
(٢) البقرة / ١٨٥ ٠

وقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ (١).

وقال: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ (٢) وحول المسألة كلام كثير وروايات غير موثقة توثيقا قويا(٣) .

إلى خديجة بعد نزول الوحي:

رجع الرسول ـ ﷺ ـ بالآيات الخمس الأولى من سورة العلق إلى زوجته "خديجة" وهو في حالة صعبة شاقة ترجف فيها بوادره وقال: "زملوني زملوني فزملوه، حتى ذهب عنه الروع وقص لزوجته الخبر وقال لها لقد خشيت على نفسي" فقالت : "أبشر فوالله لا يخزيك الله أبدا إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث وتحمل الكل وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق ..." (٤) وإذا نظرنا إلى مقولة خديجة التي خفّفت بها من روع الرسول، وشدت من أزره نراها أوصافا وأخلاقا عربية حميدة أقرها الإسلام، وحث عليها ديننا الحنيف وما أحرانا أن نحرص عليها في الزمن الحاضر. فصلة الرحم خلق

---

(١) القدر / ١، ٢، ٣ .
(٢) النحل / ٢ .
(٣) وقيل: إن سورة المدثر هي أول ما نزل من القرآن ، وقيل فاتحة الكتاب، وقيل قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ الأنعام / ١٥١ .
(٤) جزء من حديث مخرج في الصحيحين ورواه أحمد.

إسلامى حميد ورد بشأنه كثير من الآيات القرآنية والأحاديث القدسية والنبوية.

عن عبدالرحمن بن عوف أنه سمع رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: قال الله تعالى: "أنا الله وأنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسما من اسمى فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته .." [١].

وأما صدق الحديث فهو خلق من أخلاق الإسلام، فعن عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : "إن الصدق يهدى إلى البر ، وإن البر يهدى إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقا، وإن الكذب يهدى إلى الفجور، وإن الفجور يهدى إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا"[٢].

وتحمل الكل : وهو اليتم أو العاجز.

وتقرى الضيف : أى تكرم الضيف.

وتعين على نوائب الحق المقصود: مد يد العون والمساعدة فى وقت الشدة، وهكذا تحولت الزوجة إلى بلسم يداوى آلام الزوج، ونسيم يرطب جو حياته فى تلك الظروف الطارئة المفاجئة التى انهارت معها قوى الرسول، وعجز عن التصدى لها فى هذه البيئة التى لم تتجاوز معارف الأفراد فيها حدود بعض المرويات عن عقائد الأنبياء السابقين والحكماء المجربين.

---

(١) خرجه الترمذى وصححه وقال: "حسن صحيح".
(٢) رواه البخارى .

واصطحبته إلى ورقة بن نوفل بن أسد بن عبدالعزى بن قصـــي وهو من أقربائها، وكان أمرءا قد تنصر فى الجاهلية، وعرف الإنجيل، ونقل بعضه إلى العربية، وكان شيخا كبيرا قد ذهب بصره ، واســتمع إلى الرسول وقال له : "هذا الناموس[١] الذى أنزل على موسى، ليتنـــي فيها جزعا[٢]، ليتنى أكون حيا حين يخرجك قومك".

فقال رسول الله ـــ ﷺ ـــ : "أو مخرجى هم" فقال ورقة: "نعم، لم يأت رجل قط بما جئت به إلا عودى، وإن أدركنى يومــك أنصـــرك نصرا مؤذرا" [٣]، وبعد مدة مات ورقة وصدق القــول الــذى توقعــه وأشار إليه .

بيان الآيات الأولى من سورة العلق:

لقد كان من نعمة الله على خلقه أن ميزهم بالعقل والإدراك علـــى سائر الكائنات الأخرى، ودعا القرآن فى أوائل مــا نــزل منــه إلـــى القراءة، وهى وسيلة من وسائل العلــم والمعرفــة، وأداة مــن أدوات التفكير والفهم، وكانت كلمة اقرأ توجيها شاملا إلى أهمية أن تـــتمخض القراءة بما فيها من إحاطة وعلم ومعرفة إلى ذكر اســم الله والإقبـــال عليه، وهذا هو الهدف الأسمى، منها والغاية المرجــوة مــن تعلمهـــا والإحاطة بأسرارها ذلك أن العرب مع أميتهم فى الجاهلية كان لـــديهم كثير من المعارف والثقافات المختلفة، كما أن الكتابة كانــت موجـــودة

---

(١) أى الوحى .
(٢) أى قويا .
(٣) جزء من الحديث المروى (انظر تفسير ابن كثير جـ٤ ص٥٢٧) .

بينهم، وإن لم تنتشر على نطاق واسع وكان ميلهم إلـــى الأدب شـــعره ونثره بلا حدود، وتميزوا بالفصاحة والبلاغة، ولـــذلك كـــان التحـــدى الأعظم من القرآن الكريم حيث أخفقوا فى معارضته والإتيان بمثله او ببعض سوره أو حتى بسورة واحدة، وهنا تكمن بعض وجوه الإعجاز فيه؛ لأن التحدى كان من جنس ما برعوا فيه.

وتفهم القراءة على أنها"التلاوة" والإحاطة بما فـــى القـــرآن مـــن حقائق وأسرار، وهى تفتتح بالبسملة بدءا من سورة الفاتحة وفى كـــل سورة على رأى بعض العلماء، وقد حض القرآن على القراءة والكتابـــة فى العديد من الآيات التى نزلت بعد آيات سورة العلق مما يؤكد ســـمو النص القرآنى الذى أحيا أدوات التفكير ووسائل العلـــم فـــى الجـــنس الإنسانى؛ لتأكيد انتقال البشر إلى مرحلة جديدة من النضج الفكرى لـــم تكن معروفة لدى السابقين قال تعالى:﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾[1].

فالقراءة التى طولب بها الرسول ليست بالأسباب المتقدمة علـــى القراءة، وإنما سيقرأ بلا أسباب أى بإرادة مسبب الأســـباب الـــذى لا يحتاج فى إيجاد الأسباب إلى سبب[2] ــ هذا إذا أريد من القراءة تلـــك الطريقة المحسة التى تعرف البشر عليها، أما إذا أريد منهـــا القـــراءة الذهنية أو اللفظية التى تكون بالأذهان أو باللسان فـــلا تحتـــاج إلـــى خوارق للأسباب.

---

(١) العلق ١ .
(٢) من تفسير سورة العلق للشيخ محمد متولى الشعراوى رحمه الله .

ومن أسرار التنزيل أن يكون أول أمر من الله لرسوله دعوة صريحة إلى العلم من خلال القراءة؛ ولأنها السبيل إلى قراءة القرآن ومقاطعة خصومه غير المؤمنين قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ (٢) .

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٣) .

ثم إن الحساب يوم القيامة يكون مشفوعا بقراءة كل شخص لكتاب أعماله ﴿إذ لا يظلم ربك أحدا﴾ قال تعالى: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ (٤) .

والإنسان هو آدم، فقد ابتدأ الله خلقه، وعلمه الأسماء كلها، وابتدأه من غير اسباب أى من غير أب أو أم.

---

(١) الإسراء ٤٥ .
(٢) الإسراء ١٠٦ .
(٣) الأعراف ٢٠٤ .
(٤) الإسراء ١٤ .

وقد شهد العالم كثيرا من الآراء التى قال الناس عنها إنها نظرية أرجعت أصل الإنسان إلى (قرد) أو غيره، ثم انكشف خطؤها، وبان فسادها، لتبقى مرجعية أصل الإنسان إلى علم الله، وأنه هو الذى خلقه واحتفظ بأدق أسراره.

من علق: أى من دم، والعلق يمثل ك "المرحلة الأولى فى التناسل الإنسانى المعلوم لنا، أما البداية الأولى فكانت من تراب أو من طين أو من صلصال. أما كون الإنسان مخلوقا من علق فهذا من الممكن أن يخضع لتجربة علمية بحيث نستطيع أن نبحث وراء النطفة حتى تصير علقة، حتى تصير مضغة حتى تصير كذا وكذا ... إذن فذلك واقع فى نطاق علمنا التجريبى، أما كونه خلقنا من تراب، فهذا خاضع لإعلامنا بذلك ولم نشهده"[١].

إن الجنين بعد نفخ الروح فيه[٢] ينشئه الله خلقا آخر يغاير الأطوار الستة الأولى التى مر بها .

والأنبياء بعد اتصال الوحى بهم، وسريان روحه الجديدة فى أرواحهم يتحولون إلى بشر آخرين، ولا يدانيهم غيرهم أبدا فى مجد وإشراق ، قال الشيخ محمد الغزالى رحمه الله :

وهذا التغير الملحوظ سر تذكير الله لمحمد عليه الصلاة والسلام بالقدرة التى خلقت الإنسان من علق، إن القدرة هى التى خلقت هذا

---

(١) من تفسير الشيخ محمد متولى الشعراوى (بتصرف) .
(٢) أفهم عملية نفخ الروح على أنها تعبر عن وصول الجنين إلى مرحلة معينة من النمو والحركة، وإلا فالنطفة لا تخلو من الحياة.

الإنسان العجيب من علقة طفيلية ، هى التى ستنساق بنعمة الله إلى جعل محمد بشرا رسولا يقرأ بعد ما كان أميا"(١).

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (٢).

﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴾ (٣).

الأكرم : الأكثر دلالة على الكرم، أو الأكرم بمعنى الكريم الحليم عن جهل العباد ... وإيثار المال إكرام، وسلب المال إهانة، وما دام الناس حين يعطيهم الله المال لا يؤدون حقه يبقى إيتاء المال ليس من الإكرام ، ويبقى ابتلاء ..

﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (٤) .

العلم نتيجة حتمية للقراءة بالأسماع والأبصار والأفئدة، أو بواحدة منها أو أكثر، قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٥).

---

(١) فقه السيرة لمحمد الغزالى صـ٨٧ .
(٢) الشورى ٥٢ .
(٣) العلق ٣ .
(٤) العلق ٤، ٥ .
(٥) النحل ٧٨ .

وجاء فى تفسير ابن كثير : "فأول شيء نزل من القرآن الكـريم هذه الآيات الكريمات المباركات، وهى أول رحمة رحم الله بها العباد، وأول نعمة أنعم الله بها عليهم، وفيها التنبيه على ابتداء خلق الإنسـان من علق،وأن من كرمه تعالى أن علم الإنسان ما لم يعلم،فشرفه وكرمه بالعلم، وهو القدر الذى امتاز به أبوالبرية آدم على الملائكة"٠

وقال الأثر: "من عمل بما علم، ورثه الله علم ما لم يكن يعلم"٠

البسملة:

لم يرد أن جبريل عليه السلام أورد البسملة عند بدء نزول القرآن الكريم وقد يكون ذلك أحد الأدلة التى يستند إليها من قال بأن البسـملة ليست آية من القرآن الكريم، وفى المسألة كلام كثيـر، مـع أنهـا أى البسملة جزء من آية ــ بلا خلاف ــ فى سورة النمل ، وهى آية مـن أول سورة الفاتحة ، ولهذا تحسب آياتها سبعا عند الكثيـرين، وليسـت البسملة آية فى أوائل السور، وإنما هى بدايات أو افتتاح لها ــ ما عدا سورة التوبة ــ ، ومن رأى أنها ليست آية فى الفاتحة لا يجهر بها فى القراءة[١]٠

"بسم الله" أى البدء باسم الله، فباسمه يكون كل ابتداء، وباسمه إذن تكون كل حركة وكل اتجاه. أو ابدأ باسم الله٠

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ١ صـ١٦ ٠

ولفظ الجلالة (الله) علم على الرب تبارك وتعالى، ويقال إنه الاسم الأعظم؛ لأنه يوصف بجميع الصفات، وهو اسم لم يسم به غيره تبارك وتعالى.

الرحمن: اسم عام في جميع أنواع الرحمة يختص به الله تعالى.

والرحيم: إنما هو من جهة المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ (١).

فالرحمن خاص بالله تعالى، والرحيم يطلق عليه وعلى غيره، قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (٢).

ومن الآيات التي جاء فيها لفظ الرحمن اسما لله تعالى قوله : ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ (٣) وقوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ (٤).

ولما سمى مسيلمة الكذاب نفسه (رحمان اليمامة) كساه الله ثوب الخزى والعار، وفضحه على رءوس الأشهاد، وشهر به فلا يقال إلا مسيلمة الكذاب بين الناس في عصره وبعد عصره(٥).

---

(١) الأحزاب ٤٣ .
(٢) التوبة ١٢٨ .
(٣) الرحمن ١، ٢ .
(٤) طه ٥ .
(٥) السابق جـ١ صـ١٩ .

والرحمن الرحيم: مشتقان من الرحمـة علـى وجـه المبالغـة، و(الرحمن) أشد مبالغة من (الرحيم) ، ولكن لما تسمى غيره برحمان، جئ باللفظين معا، لأنه لا يوصف بهما معا إلا الله اى أنـه المخـتص وحده باجتماع الصفتين مما فيهما من كل معانى الرحمـة، وحالاتهـا ومجالاتها٠

وفضل البسملة كبير وعظيم حدا؛ فقد جاء عن الرسول ﷺ : "كل أمر لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أجذم"(١) وتستحب البسملة فى أمور كثيرة أفاضت فيها كتب الفقه والسنة ٠

وتشتمل على ثلاثة من أسماء الله الحسنى، قـال تعـالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ (٢) وقـــال: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ (٣) ٠

وقال الرسول عليه الصلاة والسلام : "إن لله تسعة وتسعين اسما، مائة إلا واحدا من أحصاها دخل الجنة"(٤)٠

(١) تفسير ابن كثير جـ١ صـ١٨ ٠
(٢) الأعراف / ١٨٠ ٠
(٣) الإسراء / ١١٠ ٠
(٤) البخارى ومسلم ٠

معجزة القرآن الكريم :

لقد جاءت معجزة كل رسول ونبى من جنس ما نبغ فيه قومــه، فسيدنا نوح يصنع الفلك، ويحمل قومه فى البحر، وينقذهم من الغرق.

وتتحول النار التى أدخل فيها سيدنا إبراهيم إلــى بــرد وســلام. وسيدنا موسى تبتلع عصاه كل ما صنعه شجرة فرعون، ثــم يضــرب البحر، فينقسم إلى قسمين كل قسم كالطود العظيم.

ويأتى نبى الله عيسى من غير أب، فتتهم العذراء به، وينطق فى طفولته المبكرة قائلا بنص القرآن الكــريم: ﴿**قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۝٣٠ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۝٣١ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ۝٣٢ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا**﴾[١].

ويكبر بين قومه، ويعظم عند ربه، ويبــرئ الأكمــة (الأعمــى) والأبرص، ويحيى الموتى ــ بإذن الله تعالى ــ .

ولما تقدم البشر، وارتقى الفكر الإنسانى، بعث الله رسولا خاتمــا للأنبياء والرسل، وجاءت معجزته كتابا يثير يقظة العقل، ويحركه إلى التفكير والتأمل، فكانت المعجزة هى القرآن الذى يمثل إعجازا للعرب؛ لأنهم اربابُ الفصاحة وأهل البلاغة والبيان، ونــزل القــرآن، وبقــى

---

(١) مريم ٣٠ ــ ٣٣ .

معجزة خالدة على مر العصور، تحدى الرسول به العرب فعجزوا عن الإتيان بمثله، أو بعشر سور ، أو بسورة من مثله، قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ۝ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾ (١).

وقال تعالى:﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ (٢).

والمعجزة: خرق لنواميس الكون، ويظهرها الله على يد نبي، أو مدع للنبوة، بعكس الكرامة التي يظهرها الله على يد ولي.

والقرآن: هو كلام الله المعجز المنزل على رسولنا محمد ﷺ بواسطة جبريل، والمتعبد بتلاوته، والمتحدى به الإنس والجن، وسائر العالمين.

والقرآن ذو خصائص كثيرة تفصل بينه وبين المعجزات الأخرى وتفصل بينه وبين الحديث القدسي، فهو معجز ببلاغته وفصاحته ونظمه، ولا تكون الصلاة إلا به، وجاحده كافر، ولفظه من الله تعالى، ولا يمس إلا بالطهارة، ويسمى قرآنا، وكل حرف منه بعشر حسنات، وتسمى الجملة منه آية وسورة، ويختلف ـ لكل ذلك ـ عن الحديث القدسي.

وقد تميز بخصائص كثيرة أفاضت فيها كتب التفسير والإعجاز.

---

(١) الطور ٣٣، ٣٤ .
(٢) هود ١٣ .

وذكر بعض العلماء[١] أن المنع من معارضته كان بالصـــرفة أى بصرف العرب (أى منعهم) عن معارضــته، وهــذا رأى لــم يــرق للكثيرين.

فالقرآن الكريم متفرد فى بيانه ولغته ونظمه، وفى إخبـــاره عــن أنباء الأمم السابقة، وفى إخباره عن المغيبات المستقبلية التى لا يطلـــع عليها إلا بالوحى، فضلا عما به من علوم وأخبار وأحكـــام وقـــوانين وغيرها مما يستحيل الإتيان بها من سائر البشر.

وقد نزل منجما فى ثلاث وعشرين سنة بمكة والمدينــة، وخـــتم بقول الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [٢].

وقد دعا الرسول إلى تدوينه وحفظه والعمل به والحرص عليـــه، قال : "تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما إن تمســكتم بهمـــا: كتـــاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم" [٣].

وقال: وما اجتمع قوم فى بيت من بيـــوت الله يتلـــون كتـــاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفـــتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده[٤].

---

(١) مثل النظام وغيره.
(٢) البقرة / ٢٨١ .
(٣) رواه مالك .
(٤) جزء من حديث رواه مسلم وأبو داود والترمذى.

وقال تعالى فى فضله وبيان قيمتـه : ﴿ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين﴾ [١] .

وقال الرسول ﷺ : "إن القلوب تصدا كما يصدأ الحديد، قالوا: وما جلاؤها يا رسول الله ؟ قال: القرآن" [٢].

وأثنى رب العزة سبحانه وتعالى عليه ووصفه بصفات عديدة، قـال تعـالى:﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾[٣] وقال: ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴾[٤] وقال:﴿ يسٓ ۝ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ [٥] وقال: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴾[٦] وقال:﴿ قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴾ [٧] وتدعو به بما قـال الله فيـه: ﴿ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ [٨].

---

(١) النحل من الآية ٨٩ .
(٢) رواه البيهقى فى الشعب .
(٣) الحجر ٨٧ .
(٤) الواقعة ٧٧ .
(٥) يس ١، ٢ .
(٦) فصلت ٤١ .
(٧) ق ١ .
(٨) آل عمران ٥٣ .

بعض المواقف من حياة الرسول قبل الإسراء والمعراج

لقد كانت حياة الرسول بعد البعثة عامرة بالجهاد فى سبيل نشـر الدعوة الإسلامية وتحمل الكثير من الأذى، وقد تعذب أصحابه عـذابا شديدا، وهاجرت جماعة مـنهم إلـى الحبشـة، وأسـلم حمـزة بـن عبدالمطلب، وعمر بن الخطـاب، لكـن الصـراع بـين المسـلمين والمشركين لم ينته، ولم يتوقف أبوجهل وأبولهب وغيرهما عن الإساءة إلى الرسول ﷺ وأصحابه المؤمنين.

وكانت المرحلة التى سبقت الإسراء والمعراج مليئـة بالأحـداث الجسام، ومن أهمها مقاطعة المشركين لبنى هاشم وبنى المطلب، ووفاة أبى طالب والسيدة خديجة فى عام الحزن، ورحلة الرسول إلى الطائف وما واكبها من لقاءات وتطورات.

لقد كان الحقد الدفين والظلم الشديد والجهـل المسـتحكم دافعـا للمشركين فى عقدهم لمعاهدة قاسية جائرة، اتفقوا فيها علـى مقاطعـة بنى هاشم وبنى المطلب، فلا يبيعون لهم، ولا يشترون، ولا يتزوجـون منهم، ولا يزوجونهم، إلى أن يتخلوا عن محمد ويسلموه للقتل، وسجلوا ذلك وغيره فى صحيفة، وعلقوها فى جـوف الكعبـة توكيـدا علـى أنفسهم.

وانتقل الرسول ومن آمن معه إلى شعب لبنى هاشم فـى إحـدى الجبال المحيطة بمكة، ثم انضم إليهم بنوهاشـم وبنوالمطلـب جميعـا مؤمنهم وكافرهم ما خلا أبا لهب .

واستمر الحصار ثلاث سنوات انقطع العون فيها على المسلمين، وقل الطعام ، وبلغ الجهد بهم أقصاه، وكان أبولهب يغرى التجار على المغالاة فى الأسعار؛ حتى لا يحصلون على شىء من الطعام، وكـان يعوضهم عن خسارتهم لقلة البيع، ولم ييأس المسلمون من وعد الله لهم بالنصر، قال تعـالى: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [1].

وتنبهت مجموعة من رجال مكة لقسوة هذه المقاطعـة المؤلمـة، ونهضوا لفض الحصار عن المسلمين، وقام (هشام بن عمرو) بـدعوة (زهير بن أبىأمية) [2] و(المطعم بن عدى) و(أبوالبخترى بن هشـام)، و(زمعة بن الأسود) لتمزيق الصحيفة، فوجدوا أن الأرضة (حشرة) قد أتت عليها، ولم تبق فيها إلا كلمة (باسمك اللهم) التى كانوا يبدءون بها كتابة معاهداتهم، وعاد المسلمون من الشعب إلى منازلهم فـى مكـة، ورسول الله بين ظهرانيهم لم يمسه سوء، ولم تنل قريش منه ما كانـت تسعى إليه وتفكر فيه .

لم يكد الرسول يهنأ بانقشاع ظلام المقاطعة، وانحسـار الضـرر بقومه حتى خيمت على سمائه بعض الغيوم الداكنة فى عام حزين فقـد فيه عمه أبا طالب وزوجته السيدة خديجة.

---

(١) يونس ٤٨، ٤٩ .
(٢) أمه: عاتكة بنت عبدالمطلب .

أما أبو طالب فهو عمه الذى كفله بعد وفاة جـده عبـدالمطلب، ودافع عنه فى مواقف متعددة من حياته، وكان معه فى رحلـة الشـام التجارية، والتى تقابل فيها الرسول مع (بحيرا) الراهب، ولازمه عنـد الزواج من خديجة، وقدمه إلى أهلها، وأشاد به فى حضـرتهم، ولـم يتخل عنه أثناء المقاطعة، وكم تمنى الرسول أن يعمـر قلـب عمـه بالإسلام، لكنه تمسك بديانته الوثنية القديمة، ولكل ذلك ولغيره حـزن الرسول على وفاته حزنا شديدا .

أما السيدة خديجة، فكانت نعم الزوجة المخلصة الوفية لزوجها، إذ عاشت معه ما يقرب من خمس وعشرين سنة، فكانت تحنـو عليـه، وتقف إلى جواره، وتعاونه بالمال الكثير والرأى السديد ، وتركته وهو فى الخمسين من عمره تقريبا، وحزن الرسول عليهـا حزنـا شـديدا، وعاش بقية حياته وفيا لها يذكرها بالخير، ويشيد بفضـائلها وكرمهـا، ولما قيل له: "هل كانت إلا عجوزا هلكت مع الهـالكين، وأبـدلك الله خيرا منها قال:

"والله ما أبدلنى الله خيرا منها ... لقد آمنت بى إذ كفـر النـاس، وصدقتنى إذ كذبنى الناس، وواستنى بمالها إذ حرمنى الناس، ورزقنى الله ولدها إذ حرمنى أولاد النساء .." (١).

ولا عجب إذن فى أن سمى العام الذى توفيت فيه مع أبى طلـب بعام الحزن، ناهيك عن حزن الرسـول لتعـذيب أصـحابه، وتوقـف

---

(١) رواه أحمد .

الدعوة، ومحاولة قتله وإلقاء الأذى فى طريقه ، وهجرة بعض أصحابه فرارا بدينهم إلى الحبشة، وهكذا توالت عليه المحن والأحزان.

ولم ييأس محمد ﷺ ، وأخذ يبحث عن مخرج جديد لحالته، ورأى أن يتجه بالدعوة إلى الطائف حيث تعيش قبيلة ثقيف العربية لعله يجد أرضا جديدة تنمو فيها رسالته، وذهب إلى الطائف ومعه زيد بن حارثة، وبقى فيها عشرة أيام يتردد على أهلها دون جدوى، بل إن أهل ثقيف أغروا به صبيانهم وغلمانهم ليرموه بالحجارة، حتى سال الدم من قدميه، وكان أن لجأ إلى بستان لعتبة وشيبة ابنى ربيعة، واتجه إلى ربه بهذا الدعاء المأثور "اللهم إليك أشكو ضعف قوتى، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربى، إلى من تكلنى؟ إلى بعيد يتجهمنى؟ أم إلى عدو ملكته أمرى؟ إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى، ولكن عافيتك هى أوسع لى، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك، أو يحل على سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك"(١).

ونزلت الرحمة على عتبة وشيبة ابنى ربيعة صاحبى البستان ... فدعوا غلاما لهما نصرانيا، يقال له عداس، فقالا له : خذ قطفا من العنب، فضعه فى هذا الطبق، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل، فقل له: يأكل منه ، ففعل عداس ثم أقبل به حتى وضعه بين يدى رسول الله

---

(١) رواه الطبرانى فى الكبير.

ﷺ، ثم قال له : كل، فلما وضع رسول الله ﷺ فيه يده قال: باســم الله ، ثم أكل ، فنظر عداس فى وجهه، ثم قال: والله إن هذا الكلام ما يقولــه أهل هذه البلاد، فقال له رسول الله ﷺ : ومن أهل أى البلاد أنــت يــا عداس؟ وما دينك؟ قال، نصرانى وأنا رجل من أهل نينوى (بالموصل فى العراق) فقال رسول الله ﷺ : من قرية الرجل الصالح يونس بــن متى، فقال له عداس: وما يدريك ما يونس بن متى؟ فقال رسول الله ﷺ ذاك أخى، كان نبيا وأنا نبى، فأكب عداس على رســول الله ﷺ يقبــل رأسه ويديه وقدميه.. وبعد أن رجع عداس إلى ابنى ربيعة قــالا لــه: ويلك يا عداس: مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه؟ فقــال: يــا سيدى ما فى الأرض شيء خير من هذا، لقد أخبرنى بأمر لا يعلمه إلا نبى، قالا له: ويحك يا عداس ، لا يصرفنك عن دينك، فإن دينك خيــر من دينه"(١) وعاد الرسول إلى مكة، واستأنف دعوته وجهــاده، وقلبــه متجه إلى ربه، طالبا العون والرحمة والتوفيق، واستجاب الله له فــأنعم عليه، وكرمه، ورفع من شأنه بالإسراء والمعراج.

لقد كانت حياة الرسول فى المدة الســابقة للإســراء والمعــراج نموذجا متكاملا من الإيمان بالله والصبر على الخطوب، والاجتهاد نحو درء العدوان، والخلاص من شروره وآثامه، فقد روى فى الســيرة أن الذين نقضوا الصحيفة ذهبوا أولا إلى الرسول ﷺ ؛ ليتنازل عن بعض ما يدعو إليه، فعصمه الله من أقوالهم، وأنزل عليه:

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام جــ٢ ص ٢٦٦ .

﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلاً ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلاً﴾[1] ، ولا شك فى أن الناس تجد فـى هـذه الأحداث زادا لها فى الحياة، فعند اشتداد الصعوبات، وتأزم المواقـف، ينبلج الصبح عن الضياء، ويأتى الفرج من الله، كما أن عناية الله تشمل من يصطفيه من الرسل، وأن عينه لا تغفل عنهم، وتأكيد مـا يحـدث للإنسان من آلام وصعوبات إنما هو بقدر الله الـذى لا يـرد، وعلـى المؤمنين أن يعتبروا ما يجرى لهم من آلام وصعوبات لـيس مقرونـا بنهاية العالم، فبعد عام الحزن نزل قول الله تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلاًّ فَهَدَىٰ ﴾[2].

وكان حزن الرسول على عمه وزوجته مضربا للأمثال فى وفائه وإخلاصه، وإيمانه بالله، وسعيه الدءوب لنشر الإسلام ورفـع رايتـه عالية خفاقة .

وعلى كل مسلم أن يتعظ بذلك ، ويستعين على مصائبه وأحزانـه بالصبر الجميل.

---

(١) الإسراء / ٧٣ ، ٧٤ .
(٢) الضحى ٦، ٧ .

قال تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ (١) وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (٢)، وفى الحديث الشريف عن رسول الله ﷺ قال : "ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة فى ولده وماله حتى يلقى الله وما عليه خطيئة"(٣) .

كما يستفاد من هذه الأحداث تأكيد أن دعوات الأنبياء متقاربة ، وأن أصولهم واحدة، وإن اختلفت مشاربهم ومنابتهم، فقد التقى الرسول بعداس، وبرز الحديث عن نبى الله يونس بن متى، ويؤكد هذا أن الرسول فى إسرائه ومعراجه قد مر على جبل سيناء حيث كلم الله موسى تكليما، ومر على بيت لحم حيث ولد نبى الله عيسى بن مريم، ثم صلى بالأنبياء فى بيت المقدس، وشاهد بعضا منهم فى كل سماء نفد منها، أما أبو لهب وأبوجهل وغيرهما ممن وقف فى طريق الدعوة فقد انهارت مواقفه وتهاوت آراؤهم، خاصة بعد أن أسرى برسول الله ﷺ وانتصر الإسلام فى المدينة، ووصلت أنواره إلى أماكن كثيرة فى الجزيرة العربية وخارجها.

---

(١) البقرة ١٥٣ .
(٢) الزمر ١٠ .
(٣) رواه الترمذى ، وقال : حسن صحيح.

من دروس الإسراء والمعراج(*)

لقد كان الإسراء والمعراج فاصلا بين مرحلتين فى حياة الرسول، حيث كانت المرحلة الأولى مليئة بالعنت والإرهاق والمشقة فى حدود (قومه) وكانت قاصرة على أهل مكة خاصة، وأن رحلة الطائف لم تتمخض إلا عن كثير من الضيق والألم فى طريق الدعوة ، فامتلأت تلك الفترة بألوان من التعذيب والاضطهاد والمقاطعة فى سبل التجارة والمصاهرة والعلاقات الإنسانية.

أما المرحلة الثانية التى واكبت حادث الإسراء والمعراج وما تلاه، فقد أسفرت عن دروس وتجارب كثيرة، وبدا للمقربين من ساحة الدعوة الإسلامية أن دين محمد ﷺ ليس قصيدة لشاعر، أو كلمة لكاهن أو رغبة ملحة فى سبيل المال، بل إنه يختلف عن كل ذلك . كما أن الإسراء والمعراج ليس رحلة أو نزهة تطيب فيها نفس الرسول دون أصحابه ، وإنما كانت الحادثة انتقالا بالدعوة إلى مرحلة جديدة مليئة بالسمو والارتقاء ودوام الاتصال بالله . وهذه بعض المعانى والدروس التى جاء بيانها فى قول الله تعالى: ﴿ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [1]وكلمة (سبحان) تؤكد تنزيه الله فى ذاته وصفاته وأفعاله، فلا تقاس أفعاله

(*) نشر بعضه فى جريدة اللواء الإسلامى العدد ١٦٩ فى ١٨/٤/١٩٨٥م.
(١) الإسراء / ١ .

بأفعال العباد، ومن هنا لا يستبعد على قدرته شيء فيما يتصـــل بهـــذه الرحلة المباركة.

و(أسرى بعبده) أى أسرى برسول الله من المسجد الحرام حيـــث يوجد بيت أم هانئ بنت أبىطالب (واسمها هند)، وكان ذلك بالليل قبل الهجرة بما يقرب من سنة، قاطعا تلك المسافة الطويلة التى كان الناس يقضون فيها أربعين ليلة إلى أن وصل وشاهد المسجد الأقصى فى بيت المقدس، ذلك المسجد البعيد عن مكة ، والذى بارك الله حولـــه بكثـــرة الثمار والأزهار والخير العميم، ذلك المسجد الذى جعلـــه الله واســـطة العقد فى حادث الإسراء والمعراج، وأنزل الله سورة فى القرآن الكريم باسم الإسراء تعظيما وتكريما لهذه المناسبة الجليلة .

وأبان الله عن سبب الإسراء أو عن بعض أسبابه، فقال : ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ (١) تلك الآيات المتمخضة عن قدرة الله تعالى العلى الكبير، ولعل أول آية، وأعظم آية من هذه الآيات تتمثل فى رؤية الرسول لربه بعيدا ومنزها عن أية صـــورة يمكـــن أن ترد لأذهان البشر وتصوراتهم المحدودة، ولكنها رؤية قد لا تصل إلى حالة الإدراك الكامل لكنه الذات العلية ســبحانه إنـــه : ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ (٢) .

---

(١) الإسراء / ١ .
(٢) الأنعام ١٠٣ .

ومن هذه الآيات البينات ملائكة الله فكان جبريل يقوم فى الرحلة مقام الرفيق وميكائيل يمسك بزمام البراق، ويقود الركب الميمون، والبراق من دلائل التذكير بالقوة، وفيها إشارة إلى البرق الخاطف، ثم إن الرسول ﷺ رأى جموعا من الملائكة وتحدث عن كثرتهم الهائلة، وقد نزل عليه : ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ (١).

لقد ربط الإسراء والمعراج بين كثير من الأمكنة التى رآها رسول الله ﷺ بدءا من مكة المكرمة، وانتهاء ببيت المقدس، ومرورا على جبل سيناء، حيث صلى الرسول به، ولما كان فيه من تكليم موسى لربه، ومرورا أيضا ببيت لحم حيث ولد المسيح عيسى عليه السلام ، ولعل فى ذلك ما يشير إلى أهمية التواصل فى الدعوة والهداية بين سائر الأنبياء ، فروى أنه شاهد بعضا منهم فى كل سماء نفد منها إلى سدرة المنتهى، حيث شاهد فى سبع سموات آدم و(يحيى وعيسى ويوسف وإدريس وهارون وموسى وإبراهيم) والرسول يلتقى مع هؤلاء وغيرهم ببعض الخصائص والأسباب، فهم جميعا من أب واحد وأمهات شتى ٠

قال تعالى : ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ (٢).

---

(١) المدثر ٣١ ٠
(٢) الشورى ١٣ ٠

ومن جملة الأحاديث التى وردت عن الإسـراء والمعـراج روى أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : "أتيت بالبراق، وهو دابة، فوق الحمار ودون البغل، يضع حافره عند منتهى طرفه، فركبته، فسار بى حتى أتيت بيت المقدس، فربطت الدابة بالحلقة التى يربط فيها الأنبياء، ثم دخلت فصليت فيه ركعتين، ثم خرجت فأتانى جبريل بإناء من خمر، وإناء من لبن فاخترت اللبن، فقال جبريل : أصبت القطرة، قال: ثم عرج بى إلى السماء الدنيا فاستفتح جبريل فقيل له من أنت؟ قال جبريل، قيل ومن معك؟ قال محمد، قيل، وقد أرسل إليه؟ قال: قد أرسل إليه، ففتح لنا فإذا أنا بآدم فرحب بى ودعا لى بخير، ثم عرج بنا إلى السماء الثانية، فاستفتح جبريل فقيل له من أنت؟ قال جبريل قيل من معك؟ قال محمد قيل: وقد أرسل إليه؟ قال قد أرسل إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بابنى الخالة يحيى وعيسى، فرحبا بى ودعوا لى بخير، ثم عرج بنا إلى السماء الثالثة، فاستفتح جبريل فقيل له من أنت؟ قال: جبريل، قيل ومن معك؟ قال: محمد قيل وقد أرسل إليه؟ قال قد أرسل إليه ففتح لنا فإذا أنا بيوسف عليه السلام، وإذا هو قد أعطى شطر الحسن فرحب بى ودعا لى بخير ، ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة، فاستفتح جبريل فقيل من أنت ؟ قال جبريل، فقيل ومن معك؟ قال محمد، فقيل: وقد أرسل إليه؟ قال قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بإدريس فرحب بى ودعا لى بخير، ثم يقول الله تعالى : **﴿ورفعناه مكانا عليا﴾** ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة، فاستفتح جبريل، فقيل من

أنت ؟ قال جبريل، فقيل ومن معك؟ قال محمد، فقيل قد أرسـل إليـه؟ قال قد بعث إليه، ففتح لنا فإذا أنا بهارون فرحب بى، ودعا لى بخيـر، ثم عرج بنا إلى السماء السادسة فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قـال جبريل، قيل: ومن معك ؟ قال محمد فقيل وقد بعث إليه؟ قال قد بعـث إليه، ففتح لنا فإذا أنا بموسى عليه السلام، فرحب بى ودعا لى بخيـر، ثم عرج بنا إلى السماء السابعة، فاستفتح جبريل فقيل من أنـت؟ قـال جبريل، قيل: ومن معك ؟ قال محمد، فقيل وقد بعث إليه، قـال ، قـد بعث إليه ففتح لنا، فإذا أنا بإبراهيم عليه السلام وإذا هو مسـتند إلـى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألـف ملـك ، ثـم لا يعودون إليه، ثم ذهب بى إلى سدرة المنتهى، فإذا ورقها كآذان الفيلـة، وإذا تمرها كالقلال، فلما غشيها من أمر الله ما غشيها تغيرت، فما أحد من خلق الله تعالى يستطيع أن يصفها من حسنها قال ، فأوحى الله إلى ما أوحى، وقد فرض على فى كل يوم وليلة خمسين صـلاة، فنزلـت حتى انتهيت إلى موسى قال: ما فرض ربك على أمتك؟ قلت خمسـين صلاة فى كل يوم وليلة، قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتـك، فإن أمتك لا تطيق ذلك، وإنى قد بلوت بنى إسرائيل وخبـرتهم قـال: فرجعت إلى ربى فقلت: أى ورب : خفف عن أمتى فحط عنى خمسا، فنزلت حتى انتهيت إلى موسى فقال:ما فعلت،فقلت:قد حط عنى خمسا، فقال: إن أمتك لا تطيق ذلك، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتـك، قال ، فلم أزل أرجع بين ربى وبين موسى ويحط عنى خمسـا خمسـا حتى قال : يا محمد هن خمس صلوات فى كل يوم وليلة لكل صـلاة

عشر، فتلك خمسون صلاة ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسـنة، فإن عملها كتبت عشرا، ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب، فإن عملها كتبت سيئة واحدة . فنزلت حتى انتهيت إلى موسى فأخبرتـه، فقـال: ارجع إلى ربك، فاسأله التخفيف لأمتك، فإن أمتك لا تطيق ذلك ، فقال رسول الله ﷺ لقد رجعت إلى ربى حتى استحييت" (١).

والتقى الرسول بالأنبياء فى المسجد الأقصى، وصلى معهم؛ إماما لهم إبرارا لعهد الله وميثاقه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ (٢).

وللتأكيد على أن دعوة الرسول عامة لكل البشر، ودعوة الأنبيـاء السابقين خاصة لقومهم .

ولقد تعدد ذكر الرؤية أو الرؤيا فى القرآن الكريم، وبخاصة فيما يتصل بهذه الرحلة الميمونة فى سورتى الإسراء والنجم، ممـا يشـعر المتلقى لكتاب الله أن ذلك تعبير عن كثير مـن المعـانى والأهـداف السامية من رحلتى الإسراء والمعراج.

---

(١) رواه مسلم وأحمد .
(٢) آل عمران ٨١ .

قال تعالى : ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [١]

وقال تعالى : ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا﴾ [٢] وقال : ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [٣].

مرائى الأجزية :

لقد شاهد الرسول عليه الصلاة والسلام فى تلك الليلة صورا متعددة من النعيم الذى يلقاه الصالحون، ومن التعذيب الذى يلقاه الآثمون، وقيل إن هذه المرائى كانت فى إسرائه قبل وصوله إلى بيت المقدس، وقيل إنها كانت فى السماء الدنيا أى فى معراجه، وقيل إنها كانت فى ليلة أخرى، والمرجح أنها كانت فى ليلة الإسراء دون تحديد جازم للوقت او المكان ٠

لقد كانت المشاهدات عظيمة ورائعة ومتميزة، وتتناسب مع منزلة رسولنا الكريم، فلقد التقى بالأنبياء فى السموات المتعددة، وصلى بهم إماما لهم بعد فرض الصلاة عليه، وأن آنية من الماء والخمر واللبن قد عرضت عليه فى بيت المقدس، وفى السماء أيضا٠

---

(١) الإسراء / ١ ٠
(٢) الإسراء / ٦٠ ٠
(٣) النجم / ١٨ ٠

وتواترت الأحاديث عن هذه المرائى، وهى كثيرة، فقد روى أنــه أتى على قوم يزرعون فى يوم ويحصدون فى يوم كلما حصدوا عــاد كما كان، فقال النبى ﷺ يا جبريل ما هذا؟ قال: هؤلاء المجاهدون فــى سبيل الله تضاعف لهم الحسنة بسـبعمائة ضـعف : ﴿وما أنفقتم من شىء فهو يخلفه وهو خير الرازقين﴾[١] .

وروى أنس قال : قال رسول الله ﷺ : لما عرج بى إلــى ربــى عزوجل مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشــون بهــا وجــوههم وصدورهم، فقلت من هؤلاء يا جبريل؟ قال هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس، ويقطعون فى أعراضهم"[٢].

وفى رواية لأبى سعيد الخدرى عن حديث الإسراء والمعراج ـ وذكره ابن جرير الطبرى بطوله فى تفسيره، ووردت به مجموعة من المشاهد وليرجع إليه من شاء[٣] وبهذه الرواية تفصيل لمرائى الخاطئين الذين شاهدهم رسول الله ، وكان يسأل عنهم جبريل.

فقد رأى أخونة عليها لحم طيب ناضج ، وأخرى عليها لحم قــد أروح وأنتن، وعندها ناس يأكلون منها، وهؤلاء الذين يــأتون الحــرام ويتركون الحلال.

---

(١) سبأ ٣٩ .
(٢) أخرجه أبوداود .
(٣) تفسير ابن كثير ٣/ ١١ وما بعدها .

كما شاهد الخاطئين من أكلة أموال اليتامى ظلما، ولهم مشافر كمشافر الإبل، يأكلون لحما نتنا حيث يقذف فى أفواههم ويخرج من أدبارهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ (١) .

ورأى أكلة الربا ولهم بطون ضخمة لم ير مثلها قط، يعرضون على النار، لا يستطيعون أن يتحولوا من مكانهم ... أو أنه كان يشاهد الواحد منهم يسبح فى الدم، فإذا وصل إلى شاطئ النهر قذف بالحجارة، فيرجع، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ (٢).

ورأى نساء معلقات من أثدائهن وهن يضججن إلى الله عزوجل، وسأل عنهن جبريل فقال : هؤلاء الزناة من أمتك ، وهن اللائى يدخلن على الرجال ما ليس من أولادهم .

كما شاهد الدنيا فى صورة امرأة حاسرة عن ذراعيها، وعليها من كل زينة خلقها الله، فأعرض عنها ولم يستجب إليها، ورأى أقواما يقطع من جنوبهم اللحم فيلقمونه فيقال له: كل كما كنت تأكل من لحم أخيك، وهؤلاء هم الهمازون اللمازون.

---

(١) النساء / ١٠ .
(٢) البقرة / ٢٧٥ .

ورأى صورا من التعذيب للذين لا يـؤدون صـدقات أمـوالهم والمتثاقلين عن الصلاة، والذى لا يعطى الأمانة لأصحابها، وخطبـاء الفتنة الذين تقرض ألسنتهم وشفاهم بمقاريض من حديد، وكلما قرضت عادت كما كانت ، إلى غير ذلك من المشاهد العجيبة التى أفاضت كتب الحديث والسيرة النبوية الشريفة فى بيانها، وبيان الكيفية التـى كانـت تصاحب الصالحين والطالحين من الناس.

كما أن سورة الإسراء نفسها قد حذرت من معظم الكبـائر التـى شاهد الرسول ﷺ أصحابها وهم يتعذبون ويتألمون كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ (١) وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ (٢) وقولـه تعـالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴾ (٣) وكذلك قال تعـالى: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ﴾ (٤).

---

(١) الإسراء / ٣٢ .
(٢) الإسراء / ٣٣ .
(٣) الإسراء / ٣٤ .
(٤) الإسراء / ٣٩ .

موقف قريش من الإسراء والمعراج :

لقد عاد الرسول من إسرائه ومعراجه عودا حميدا، وأخذ يحـدث الناس عما شاهده من آيات ربه الكبرى فى تلك الليلة المباركة ، وكانوا يسألونه عن بيت المقدس، لعلمهم بأنه لم يسبق له أن شاهده من قبـل، فأظهره الله له، وأخذ يصفه لهم وصفا دقيقا، فعن جابر ﷺ قال: قـال رسول الله ﷺ : "لما كذبتنى قريش قمت فى الحجر، فجلى الله لى بيت المقدس، فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه"[١].

وأخذوا يسألونه عن أشياء أخرى كإبل لبنى فلان وأخرى لبنـى فلان، والرسول يجيبهم ويصف أحوالها لهـم ، وهـم منكـرون لـه وساخرون منه، إلا أن أبا بكر صدقه ، وجاهر بتصديقه، فعن عائشـة قالتك لما أسرى برسول الله ﷺ إلى المسجد الأقصى أصـبح يحـدث الناس بذلك، فارتد ناس ممن كانوا آمنوا به وصدقوه، وسعوا بذلك إلى أبى بكر، فقالوا: هل لك فى صاحبك؟ يزعم أنه أسرى بهِ الليلـة إلـى بيت المقدس، فقال: أو قال ذلك؟ قالوا: نعم ، قال: لئن كان قال ذلك لقد صدق، قالوا: فتصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس، وجاء قبـل أن يصبح؟ قال: نعم، إنى لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك، أصدقه فى خبر السماء فى غدوة أو روحة، فلذلك سمى أبوبكر الصديق"[٢].

---

(١) رواه البخارى ومسلم وابن حبان وغيرهم ·
(٢) رواه البيهقى ·

ولقد عرض ابن كثير فى أول تفسيره لسورة الإسراء للأحاديث النبوية التى رويت عن هذه الحادثة وعن المعراج أيضا، وجمع ما يمكن أن يعبر عن رؤيته حول هذه الأحداث،وليرجع إليها من شاء(١).

ونخلص إلى أن الإسراء والمعراج كان قبل الهجرة بعام تقريبا، وأنه كان يقظة لا مناما، وبالروح والجسد معا، وأنه لم يحدث لنبى قبل رسول الله ﷺ ، وفرضت الصلاة فى تلك الليلة المباركة، ويؤكد الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى كثيرا من الأمور التى يمكن للمسلمين أن يعتبروا بها، وتتمثل فى ضرورة حرصهم على استعادة المسجد الأقصى، وأن الأرض كلها مجال لدعوة الإسلام، وأن دعوات الأنبياء ترجع إلى أصل واحد إلا أن الكثير من هذه الدعوات دخلها التحريف لأهواء ضالة من أناس مغرضين على اختلاف أوطانهم وأزمانهم .

ويؤكد الإسراء والمعراج قدرة الله فى الانتقال بموكب رسول الله فى جزء من الليل لا يعلم مقداره إلا الله، لأن الزمن الكونى يختلف عن الزمن الذى نعيشه ونحياه على الأرض، أو أن ذلك قد تم فى (اللازمن) بلغة العلميين المعاصرين، ولنأخذ من المتغيرات التى انعكست على دعوة الإسلام بالإسراء والمعراج سبيلا إلى تغيير حياتنا بما يتوافق مع هذه الدعوة فى ماضيها العظيم وحاضرها المضطرب، الذى لا يخفى على أحد بسبب تهاون المسلمين وتفرقهم فى كثير من البلدان،﴿ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ ﴾ (٢).

---

(١) راجع ذلك فى ص ٢٢ حـ ٣ .
(٢) الروم ٤ .

فلا ينبغى ونحن نتحدث عن الإسراء والمعراج — أن نقيس آيات الله ومعجزاته بمقاييس البشر وإدراكاتهم ، وإذا كانت هذه الأحداث قد جرت ليلا فلكى تكون إختبارا لمنازل الإيمان فى قلوب الذين أسلموا ، ولم تطمئن قلوب بعضهم بذكر الله ، فإذا شاهدنا الوقائع بالرؤية البصرية لما كان هناك إختيار لهم ، وامتحان لمقدار قربهم من الله ، وقد وقعت معجزات الأنبياء بالليل فلما جن عليه الليل — فأسر بأهلك بقطع من الليل — فأسر بعبادى ليلا — يأيها المزمل قم الليل ثم كانت الإشارة فى حادثة الإسراء والمعراج إلى منزلة المسجد الأقصى الذى ذكر المولى تعالى أنه بارك حوله بكل ما يحقق التأكيد بمنزلته عند المسلمين ٠

وأما دابة البراق فإنها تأكيد لمنهج الإسلام فى الأخذ بالوسائل والتذرع بالأسباب ،وحسن الفهم للآيات الكونية التى وردت فى القرآن، وتحض على العلم والمعرفة قال تعالى :﴿ يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَـٰنٍ ﴾ (١) ٠

وقال تعالى﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴾ (٢)

وقال تعالى:﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَـٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ......﴾ (٣)

---

(١) الرحمن ٣٣ ٠
(٢) الرحمن ٣٧ ٠
(٣) البقرة١٩ ٠

وقال تعـالى : ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ﴾ (١) وقـال تعـالى: ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴾ (٢) وكل ذلك من بديع صنع الله قـال تعالى : ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾ (٣) .

أما فرض الصلاة فى هذه الليلة فقد كان عطاء عظيمـا مـن الله لرسوله وأمته .

وإذا كان الرسول قد رحل فى جزء من الليل إلى بيـت المقـدس فلنسأل أنفسنا فى حيرة وأسى كيف أضعناه وتخاذلنا فـى اسـترداده ، وتهاونا فى الدفاع عنه ؟ .

فما أعظم أن يجتمع المسلمون كل عام ليراجعوا حيـاة الرسـول ويستفيدوا بما جرى فيها ويتعلموا أعظم الدروس منها ، فقد صبر على إيذاء قومه له ولأصحابه ، ثم كانت توابع مسيرته مع الدعوة إشـعارا لمرجعية الأديان الصحيحة إلى أصول واحدة ، وأبانت الأحداث عـن اتجاه الرسول إلى ربه فى ساعات العسرة بالدعاء الذى رفع فيه شكواه إلى رب العالمين الذى استجاب له وشرح صدره بالإسـلام ، كمـا أن الإسراء من المسجد الحرام والمرور بسيناء وبيـت لحـم وبالصـلاة بالأنبياء فى المسجد الأقصى تتواكب كلها مع قول الله تعالى :﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ

---

(١) يس ٣٨ .
(٢) القمر ١ .
(٣) النجم ١ .

إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ...... ﴾[١] وكان فرض الصلاة إيذانا ببدء مرحلة جديدة يقترب فيهـا المسـلمون مـن الخالق جل وعلا ، وكانت مشاهد الجزاء والعقاب فى ليلـة الإسـراء والمعراج عونا للرسول فى بسط دعوته وتقريبها من الأفهام بصـورة عملية محسوسة فى مرحلة أصم مشركو مكة آذانهم عـن الاسـتماع للقرآن وهدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ٠

---

(١) الشورى ١٣ ٠

الصلاة نور

١ - الخشوع فى الصلاة :

فرضت الصلاة على المسلمين ليلة الإسراء والمعـراج، وهـى خمس صلوات فى اليوم والليلة؛ليبقى المؤمن متصلا بالله فـى نهـاره وليله على حالة من الطهر والنقاء، المعنوى والحسى، وفـى خضـوع وخشوع تام لله تعالى، فالصلاة عبادة لرب السموات والأرض، بل هى جوهر الدين وركن من أركان الإسلام وحماية للـنفس مـن غوائـل الشيطان ، قال تعالى:﴿ **قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ** ﴾ [١] فالخشوع هدوء وسكينة، وطمأنينة وتقديس لـذات الله، وأداء للصلاة بالهيئة التى سنها رسول الله قال : "صلوا كما رأيتمـونى أصلى"[٢]، وقد صدق الرحمن حيـث قـال: ﴿ **فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ** ﴾[٣] فالصلاة فى خشوع تؤدى إلى آثار ونتائج مفيدة، حيث تريح البدن وتفرج الهم، وتزيل التوتر العصبى، وتحقق الراحة لسـائر الجسم، وكان الرسول إذا حزبه أمر أو أصابه غم يقول : "ارحنا بها يا بلال" لكن بعض الناس لا يعودون عودا حميـدا إلـى الصـلاة إلا إذا

---

(١) المؤمنون ١، ٢ .
(٢) رواه البخارى وأحمد.
(٣) الماعون ٤ ــ ٧ .

وقعت عليهم مصيبة، أو لحق بهم أذى، أو رغبوا فى تحقيــق نصــر مادى أو معنوى، ولم يجدوا إلا الصلاة موئلا يدعون بها الله، ويعودون من خلالها للسعى إلى أهدافهم، وهذه شهادة بفاعليــة الصــلاة ممــن ينقطعون عنها، ولا يداومون عليها إذ من الأفضل أن تكــون مواظبــة المسلم عليها، غير مشروطة أو مرهونة بحادث عارض من حــوادث الحياة.

لقد توثقت علاقة الرسول بالصلاة فى سائر لقاءاته وعلاقاته وكل حياته، كانت معه فى اجتماعه بالأنبياء ليلة أن صلى بهم فى المســجد الأقصى ووجبت عليه وعلى أمته فى لقائه بربه فى الليلة نفسها، كانت معه فرضا ونافلة، فى الصحة والمرض، والإقامة والارتحال ، والسلم والحرب ، والانفراد والجماعة ، فى الحياة وبعد الموت، فى الاستخارة والاستسقاء، فى التراويح والتسابيح، فى أول النهار وآخر الليل، فــى الجمعة والعيدين أى أنها اشتملت الحياة كلها، وهى وصايا الأنبياء كما تحدث القرآن المجيد.

وهى نهر يغتسل منه المسلمون من الذنوب التى اقترفوهــا قــال الرسول ﷺ : "أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شىء؟ قالوا: لا يبقى من درنه شىء، قــال: "فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا"[١].

---

(١) متفق عليه .

٢- **الصلاة أفضل الأعمال.** سئل رسول الله ﷺ : أى الأعمال أفضل؟ قال : "الصلاة لوقتها"[١]، وتركها كبيرة من الكبائر قال تعالى عن اهل الجحيم : ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ۝٤٢ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ۝٤٣ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ۝٤٤ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ۝٤٥ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤٦ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ۝٤٧ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَـٰعَةُ ٱلشَّـٰفِعِينَ ﴾[٢].

ولكن قصر الصلاة على مجموعة من الحركات والآيات دون خشوع يجردها من قيمتها وتأثيرها فى وجدان المسلمين، كما أن الذين يختلسونها اختلاسا ولا يخشعون فيها لا يقدرون بأفعالهم التقدير الإيجابى الناجم عن الخشوع فى الصلاة، إذ لم تتحول لديهم إلى طاقة مؤثرة، تدفعهم إلى إزالة العوائق والهموم من طرق دنياهم المملوءة بالقلق والتوتر والهموم والآلام.

لقد فصل كثير من الناس الصلاة عن الحياة وجعلوها فى البيت أو فى المسجد أو فى اى مكان أو فى أزمنة محددة ينصرفون بعدها إلى الدنيا الحاضرة بما ابتدأت به من اثم ومنكر وتجاوز وعدوان.

وقد كتب الأستاذ أحمد بهجت [٣] قال : "فإذا رأيت الناس يزحمون المساجد للصلاة،ورأيت مجتمعاتهم غارقة فى الشرور، فاعلم

---

(١) متفق عليه .
(٢) المدثر ٤٢ ــ ٤٨ .
(٣) جريدة الأهرام يوم ١٠/ ١/ ١٩٩٤م .

أن هناك خللا فى صلاتهم، وإذا رأيت المساجد لا تكفى عدد المصلين الذى يتزايد، ورأيت المسلمين يذبحون فى البلقان، ويضطهدون فى غيرها، دون أن ينهض لنصرتهم بقية المسلمين، فاعلم أن هناك خللا قد أصاب فهمنا للعبادة.

إن الجديد الذى جاء به الإسلام لا يقصر العبادة على أوقات الصلاة أو الصوم أو الحج، إنما يجعل الحياة كلها مجالا للتعبد: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [١].

فالصلاة فى خشوع فلاح للمؤمنين وتقديس للذات الإلهية، وقوة روحانية عظيمة، فما أحرانا أن نلتزم بالحفاظ عليها والخشوع فيها وحسن التطهر لها، والانتفاع بها فى الدنيا والآخر والله خير حافظا وهو أرحم الراحمين.

٣ ـ ارتباط الصلاة بالزمن

لقد فرضت الصلاة ليلة الإسراء والمعراج، وأمر بها الرسول ﷺ من فوق سبع سماوات؛ إيذانا بعلو قدرها، ورفعة شأنها، وتنبيها على حتميتها للمسلم؛ ليبقى على صلة دائمة بالله سبحانه وتعالى.

فإذا كانت الصلوات المفروضة خمسا، فقد جاءت موزعة على مدار اليوم والليلة لتبقى الصلة بالله مستمرة دائما، مع ما يتخلل هذه

---

(١) الأنعام ١٦٢، ١٦٣.

المفروضات من نوافل تتأكد وتقوى بها هذه الصلة قال تعـالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ (١).

وجاء الأمر بها للأبناء مرتبطا بالزمن أيضا فقال الرسـول ﷺ : مروا الصبي بالصلاة إذا بلغ سبع سـنين ، وإذا بلـغ عشـر سـنين فاضربوه عليها وزاد في رواية وفرقوا بينهم في المضاجع"(٢).

والصلاة تحميد وتسبيح، وذكر ودعاء، وشكر وثنـاء لله تعـالى الذى قـال: ﴿فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۝ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ (٣) .

ونرطب ألسنتنا بآيات من الذكر الحكيم التى تتحدث عن الصـلاة مرتبطة بالزمن الذى لا يمكن إغفاله فى معيار الشرع الإسلامى:﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ (٤) وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ (٥) وقـال تعـالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ

(١) النساء ١٠٣ .
(٢) رواه أبو داود وأحمد والترمذى.
(٣) الروم ١٧، ١٨ .
(٤) هود / ١١٤ .
(٥) الإسراء / ٧٩ .

ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [١] وقـــال تعالى:﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾[٢]٠

٤ـ خطورة الإهمال والتقصير فى الصلاة :

الصلاة صلة بين العبد وربه، وصيانة للمسلم من غوائل الشيطان ومقاومة للفحشاء والمنكر وتطهير للـذات مـن شـرور الانحـراف والضلال، وقد حذر القرآن من أضاعها وأهملها بسوء المنقلب ، فقال تعالى : ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ۝ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴾[٣] ومن الإضاعة لها والتقصـير فيها السهو عنها؛ لأن المسلم الذى لا تدفعه صلاته إلى مجانبة المنكـر وترك الظلم لا يعد مسلما فى الميزان العملى الذى يقدر به الإنسان فى الحياة٠

قال تعـالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴾ [٤] أو تكون الغفلة عنها بسبب الانشغال بالأموال والأولاد والجاه والسلطان فى ضوء قول الله تعـالى :

(١) الجمعة ٩ ٠
(٢) الإسراء / ١١٠ ٠
(٣) مريم ٥٩، ٦٠ ٠
(٤) الماعون ٤ ــ ٧ ٠

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾[١].

ويكون التقصير فيها عند الأداء بكثرة الالتفات وعدم الخشوع والتفكير فى غيرها وعدم المبالاة بها فعن عائشة رضى الله عنها قالت: "سألت النبى ﷺ عن الالتفات فى الصلاة فقال هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد"[٢].

ذلك لأن هذه الفريضة السامية واجبة الأداء على هيئة ووقار وتضرع وخضوع؛ تقديسا لمقام الله العظيم، فالمصلى يحدث ربه ويناجيه، ولذلك وجب أن تكون هيئته مناسبة لهذا الموقف الجليل قال تعالى: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ [٣].

فالذى لا يخشع فى صلاته، ولا يتم ركوعها ولا سجودها مثل السارق أو المختلس الذى ينتهب الحق ويسلب الواجب، وينتهك الحرمات. قال عليه الصلاة والسلام: "أشد الناس سرقة الذى يسرق من صلاته".

قيل وكيف يسرق من صلاته؟

قال: لا يتم ركوعها ولا سجودها ولا القراءة فيها"[٤].

---

(١) المنافقون ٩ .
(٢) رواه البخارى.
(٣) الاعراف ٥٥ .
(٤) رواه أحمد والطبرانى وابن خزيمة.

ولأهمية الصلاة أمر الرسول ﷺ بقتال منكرها وجاحدها لأنها أول عمل ينبغى للمسلم فعله بعد إقراره بالله ودخوله فى الإسلام.

قال الرسول ﷺ : "أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله"(١).

ومن الإهمال فيها أيضا القيام إليها باسترخاء وعلى كسل وبلا قوة دفع إيمانى كأنها عبئ وعمل شاق بدون مقابل فى حق هذا الفريق من الناس قال تعالى: ﴿وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا﴾ (٢) لكن كيف يكون الأمر كذلك وهى اقتراب من الله وسجود وركوع وإذعان وتسليم، وبها تتحقق الطمأنينة والسكينة والرضا والقبول.

لقد تكرر ذكر كلمة الصلاة ومشتقاتها فى القرآن الكريم عشرات المرات تأكيدا على وجوب أدائها وأحوالها المتعددة، وتنبيها على ضرورة التمسك والالتزام بها، وإقرارا برسالتها ودورها فى صيانة المسلم وحفظه من ضلالات الشيطان ورفقاء السوء .

٥ ـ التيسير فى الصلاة :

يتجلى التيسير فى الصلاة على صور متعددة، فهى فريضة تصلى أداء وقضاء وإقامة وسفرا، وإتماما وقصرا، وفرضا ونفلا،

---
(١) متفق عليه .
(٢) النساء ١٤٣ .

ومرتبطة بالزمن فى السلم والحرب وخارجة عن وقتها بالجمع بين صلاتين، وتكون من الأحياء وعلى الأموات، وفى بعض الأوقات كصلاة الجمعة والضحى والعيد والاستسقاء والاستخارة، وعلى الميت الحاضر أو الغائب، وتصلى تحية للمسجد وسنة للوضوء، ويصليها الرجل منفردا وفى جماعة، وتصلى بالوضوء أو بالتيمم، وتصلى وقوفا وقعودا واضجاعا فى المسجد وخارجه إلى غير ذلك من الأحوال الأخرى الخاصة بالصلاة التى توسعت كتب الفقه فى بيانها وشرح وجوه التيسير فيها.

مقدمات الهجرة النبوية

لقد تلاحقت الأحداث بالرسول ﷺ والمسلمين رضوان الله علـيهم فى السنوات الثلاث التى سبقت الهجرة إلى مدينة [يثرب] وما كان فى هذه المدة من حتمية الجهر بالدعوة، وتبليغ الرسالة إلى عدد أكبر مـن الناس.

وكان اجتماع الرسول وأصحابه فى دار الأرقم بن أبـى الأرقـم إيذانا بالدخول فى مرحلة جديدة شديدة الصراع والنـزاع، فقـد كـان الرسول محميا من قبيلته، ومستمدا قدرا كبيرا من الجهد والمـال مـن زوجته وأصحابه، إلا أن المد الإسلامى قد تأثر إلى حد كبير من جراء ما حدث فى مجتمع مكة المكرمة، حيث قوطـع بنوهاشـم اقتصـاديا واجتماعيا، وحوربوا فكريا وعقائديا وعاشوا بين شعاب الجبال يأكلون الأوراق ويهيمون فى الصحراء ما يقرب من ثلاث سـنوات إلـى ان تراجع القرشيون فى مواقفهم؛ استجابة للعلاقات القديمة التـى تـربط بينهم جميعا ومنهم بنوهاشم إذ كانت الأخلاق العربية الضـاربة فـى أعماق التاريخ تأبى هذا السلوك الذى يتعارض مع الشهامة والمـروءة والنجدة، حتى روى أن بعض القرشيين كانوا يحملون كثيرا من المؤن والزاد ويدفعون بها إلى أهل الرسول سواء أكانوا فى شِعب أبىطالـب أو حيث يوجد بعض النساء والأطفال فى الدور والأبنية؛ حتى انفـض الحصار، وأزيلت الغمة وانفرج الكرب وأثناء ذلـك وجـه الرسـول جماعة من أصحابه إلى الحبشة؛ ليلحقوا بإخوانهم، فقد هاجر إليها أولا

أحد عشر رجلا وأربع نساء، ثم تبعهم أثناء الحصار ما يقــرب مــن ثمانين رجلا سوى بعض النساء والأطفال حيــث أقــاموا فــى أرض النجاشى [الحبشة] إلى ما بعد هجرة الرسول وأصحابه إلى يثرب، وقد روى أن الرسول ﷺ قد قال لأصحابه: "لو خرجتم إلى أرض الحبشــة فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد، وهى أرض صدق؛ حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه"(١).

وقد تعقبت قريش هؤلاء المهاجرين فأرسلت إليهم اثنــين همــا: [عمرو بن العاص] و[عبدالله بن أبىربيعة] وأفرغــا مــا كــان فــى حوزتهما من هدايا إلى النجاشى وبطارقته، وطالبــا بإعــادة هــؤلاء الهاربين المفارقين لدين قومهم، ثم استمع النجاشى إلى قصة المهاجرين وإلى بيان من جعفر بن أبىطالب حول الدين الإسلامى الجديد، وقــرأ لــه آيات من سورة الأنعام، وبعض الآيات من سورة مريم.

أيقن النجاشى بعدها بتطابق ما جاء به الإسلام مــع الــذى قالــه عيسى بن مريم، وأمن اللاجئين المستغيثين به إلى جواره وأتاح لهــم عبادة الله فى حرية تامة، ورجع القرشيان إلى مكة فــى خــزى وذل وعار.

أما ما لحق بالرسول فى مكة فكان مؤلما وقاسيا، فقد اشتد مرض السيدة خديجة بنت خويلد أثناء الحصار، ثم توفيت بعد ذلــك، فشــيعها الرسول والمسلمون إلى قبرها فى خشوع وتقوى وإيمان.

---

(١) رواه أحمد فى مسنده.

أما عمه أبوطالب بن عبدالمطلب فقد لحق المرض به فى نهاية الحصار ثم توفى بعد موت السيدة خديجة بوقت قصير مما أسهم فى زيادة الضيق والكرب والمعاناة برسول الله ﷺ ٠

كانت الرحلة الأولى لرسول الله ﷺ بعد أن ضاق بخصومه وأعدائه فى مكة، وشهد ما كان يلحق بأصحابه من ظلم وطغيان، فرغب فى توجيه الدعوة إلى القبائل التى تقيم بعيدا عن مكة فاتجه بتفكيره إلى [ثقيف] بالطائف لعله يجد فيها عونا وتعويضا عما لحق بالدعوة ، لكن هذه القبيلة لم تكن أفضل من قريش فردته ردا سيئا وقاومته مقاومة عنيفة، وأغروا به سفهاءهم وصبيانهم وغلمانهم وطاردوه بالحجارة وأدموا قدمه، فعاد إلى مكة دون أن يحقق من رحلته شيئا مما كان يرجوه منها، وكانت حادثة الإسراء والمعراج تخفيفا عن الرسول واستكمالا لمنهج الدعوة من السماء بفرض الصلاة واللقاء بالأنبياء والاستفادة منهم، والتأسى بهم، واختبارا لإيمان أصحابه وإعلاء لشأنه بين قومه٠

فهذه الحياة القلقة التى لم يهنأ الرسول فيها ولم يعرف الهدوء بها لم تثنه عن رغبته العارمة فى إعلاء شأن رسالته التى كلف بتبليغها إلى الناس أينما كانوا، فعرض نفسه على بعض القبائل فى الأسواق العربية [عكاظ ومجنة وذى المجاز] وكان القرآن الكريم دستورا لدعوته من خلال الآيات والسور المكية التى تحض على مكارم الأخلاق، وتدعو إلى المساواة وتوحيد الله، ونبذ عبادة الأصنام، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ورد المظالم إلى أصحابها٠

أما فى يثرب فكان بها فريقان يعملان فى اتجـاهين متضــادين، اليهود من جانب، والأوس والخزرج من جانب آخر، وأخذت الصورة أمام رسول الله تزداد وضوحا وهو يبحث عن أرض جديدة لرســالته بعيدا عن مكة فكانت فكرة الهجرة إلى يثرب فى حاجــة إلـــى إعــداد وترتيب، وانتظر الأمر الإلهى الذى يستعين به على المضى فى التنفيذ والانتقال إلى الوطن الجديد وبدأ على مستوى رؤيتـــه الفرديـــة فـــى التعرف على أحوال المكان الذى سيشرع فى الهجرة إليه فشـــرع فـــى عرض دعوته على القادمين إلى مكة من أهل يثرب في موسم الحـــج، حيث يشرح لهم معالم الدين الجديد ويقرأ أمامهم شيئا من القرآن وبـــدأ فى الالتقاء بمجموعة من قبيلة الأوس، ثم اتسعت الدعوة بعرض نفسه ودينه على مجموعة من حجاج قبيلتى (الأوس والخزرج) ، لعل قلوبهم تلين للحق وتتفتح لنور الإسلام إلى أن التقى قبل الهجرة بعـــامين فـــى بيعة العقبة الأولى مع اثنى عشر رجلا من أهـــل الأوس والخـــزرج، والذين كانوا فى احتياج شديد للرسول ولدعوته الجديدة؛ حتى يصـــبح لهم شأن على اليهود أصحاب النفوذ والسطوة والمال فى يثرب؛ وبعث الرسول مع الذين التقى بهم وبايعوه [مصعب بن عمير]؛ ليقـــرأ لهـــم القرآن، ويعلمهم قواعد الدين الجديد فقام بمهمته خير قيام.

وفى العام التالى أى قبل الهجرة ــ بعام ــ كانت بيعـــة العقبـــة الكبرى ، حيث جاء مصعب إلى مكة فى موسم الحج مع حجاج يثرب؛ ليحدد لهم موعدا مع رسول الله؛ ليلتقوا به ويبايعوه، ويعرضوا عليـــه الهجرة إليهم فاجتمع به سبعون رجلا وامرأتـــان مـــن قبيلتـــى الأوس

والخزرج، ونهض أبوبكر وعلى بتأمين المكان وحراسة الشعب الــذى يتم فيه اللقاء لعقد البيعة؛ حتى يتم الاتفاق على الهجرة والإعداد لها فى سرية وكتمان، وحضر النبى ﷺ ومعه عمه [العباس بن عبــدالمطلب] الذى كان أول المتحدثين حيث ابتدأ كلامه بقوله: "يا معشر الخــزرج، إن محمدا منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قريش فهو فى عز مــن قومه ومنعة فى بلده ، وأنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم.

فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومــانعوه ممــن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك.

وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج إليكم فمن الآن فدعوه.

وتحدث البراء بن معرور ــ وهو من زعمائهم ــ بمــا ينكشــف فحواه فيما يأتى، ثم اشترط الرسول ﷺ فى البيعة قائلا : تبايعونى على السمع والطاعة فى النشاط والكسل[1] والنفقة فى العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وأن تقولوا فى الله لا تخافون فيه لومة لائم ، وعلى أن تنصرونى فتمنعونى ــ إذا قدمت عليكم ــ ممــا تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم، ولكم الجنة إن وفيتم ــ فأخــذ البراء بيده ، ثم قال:

---

(١) أى فى الحرب والسلم .

"نعم. والذى بعثك بالحق لنمنعنك مما نمنع منه أعراضنا وأحسابنا، فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أبناء الحرب، ورفقاء السلاح، ورثناها كابر عن كابر".

واختاروا له اثنى عشر نقيبا: تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس؛ ليكونوا كفلاء على قومهم ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم وتمت البيعة، وانصرف الأنصار إلى قومهم .

وقد شاع خبر البيعة، وطرقت أذن قريش، ونزلت عليهم كالصاعقة فطارت عقولهم، وفقدوا صوابهم ثم ضاعفوا الأذى بالمسلمين، ولما رأى الرسول ﷺ ما حل به وبأصحابه واثتوثق من أهل يثرب، وعرف أن الطريق مفتوحة إليها، أذن لأصحابه بالهجرة حيث المنطلق الجديد لدعوة التوحيد.

وأحسن المشركون أن الخطر يحوطهم من كل جانب، فأخذوا يفكرون فى أمر الرسول الذى بات يسفه عقيدتهم، ويسىء إلى أصنامهم فاجتمعوا فى دار الندوة وتدارسوا أمر هجرته المنتظرة، واقترح أبوجهل قتل الرسول والانتهاء من همومه ومشكلاته، ووافقوا على خطته التى تقتضى جمع عدد يصل إلى الأربعين من شباب قريش يمثل كل واحد قبيلة من قبائلها ليضربوا محمدا بسيوفهم ضربة رجل واحد؛ ليتوزع دمه بين القبائل.

لقد حاصر هذا العدد منزل الرسول ﷺ ليلة الهجرة، ونزل على الرسول ما يخبره بمكر هؤلاء القوم وخبثهم وقصدهم قتله أو حبسه

للإجهاز على دعوته وهى فى المهد لم تثمر بعد، وجاء خبر القرآن الكريم بذلك فى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾[(١)].

وعرض الرسول ﷺ الصحبة فى الهجرة على أبىبكر الصديق فسعد بها وأعد نفسها لها وصار فى حالة الانتظار بالإذن من الرسول وأفاضت فى ذلك كتب السيرة مشيدة بكل هذا الإعداد والتجهيز مما يجعل اختيار الصديق موفقا، وأن رفقته كانت محل قبول ورضا من الرسول بكل المقاييس التى يوزن بها الرجال آنذاك.

أما تصرف الرسول فى بيته فقد أمر ﷺ عليا بالنوم فى فراشه وقال له: "نم على فراشى، وتسج ببردى هذا الحضرمى الأخضر ، فنم فيه ، فإنه لن يخلص إليك شىء تكرهه منهم"[(٢)].

وخرج ﷺ من بين الصفوف الواقفة أمام منزله وألقى التراب عليهم وقال: "شاهت الوجوه" وخرج من بين هؤلاء الشباب، وهو يقرأ قول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾[(٣)].

وكان الواقفون ــ بعد خروج الرسول ﷺ ــ ينظرون من ثقب الباب، وكلما رأوا عليا نائما فى فراش الرسول ظنوه محمدا ﷺ

---

(١) الأنفال ٣٠ .
(٢) الحديث فى سيرة ابن هشام جـ٢ ص ٣٠٤ .
(٣) يس ٩ .

فيعودون إلى اطمئنانهم وغفلتهم وأن مهمتهم لم يكتب لها الفشل بعـد، واستمروا على ذلك حتى علموا أن النبى قد ترك منزله وغـادر مكـة فغضب أبو جهل، وهجم على منزل أبى بكر فى الصباح، ولـم يجـد الرسول ولا أبا بكر فيه، فطار صوابه واشتد غيظه وغاب عقله وعـم الخبر الناس، واشتملت الحيرة أهل قريش جميعا ٠

طريق الهجرة
بين السرية والجهرية

كانت الهجرة النبوية فى بداية التفكير فيها محاولة للخلاص من نطاقات الحصار المفروض من أعداء الدعوة الإسلامية على الرسول وأصحابه فى مكة المكرمة، والتى نبتت فيها بذور الإيمان، وأزهرت، وأثمرت قوادا وروادا لم تلن لهم قناة، ولم يستسلموا لمحاولات أبىجهل ورفاقه من كفار مكة فى القضاء على الدين الإسلامى فى بواكيره الأولى٠

وكان تأثير الإسراء والمعراج إيجابيا على رسول الله وأصحابه، لكن ذلك الحادث ــ مع أهمية دوره فى الدعوة ــ لم يحقق ردود أفعال إيجابية عند الطرف الآخرة فكان الخروج من دائرة الحصار متعددا، وفى مسالك واتجاهات متنوعة، وتمثل فى الهجرة على الحبشة والتى انتقل إليها جزء من الصراع بين المسلمين والكفار، ولكن نصر الله قد تحقق للمسلمين فى هذه البقاع ، فنعموا بالاستقرار والهدوء وعبادة الله وفشلت محاولات قريش لإرجاعهم إلى مكة مرغومين مقهورين٠

أما رحلة الرسول إلى الطائف فلم تحقق ما كان مأمولا منها وعاد الرسول إلى مكة بعد أن ظهر بأنوار النبوة بين قبيلة ثقيف فيها، وعاد منها مكتسبا خبرة وتجربة كانت زادا وعونا له عند استجابته لدعوة الأوس والخزرج للانتقال إلى يثرب، كما كان إلغاء المقاطعة لبنى هاشم، وعودتهم إلى ممارسة الحياة بشكل طبيعى انتصارا محدودا

للأخلاق العربية الضاربة بجذورها فى أعماق التاريخ، وليس اقتناعـا عاما بالرسالة المحمدية، وأنها السبيل الوحيد لتحقيق المبادئ والأخلاق التى قامت عليها ومن أجلها دعوة محمد ﷺ ، لكن هذه الأمـور فـى مجموعها لم تحقق النتائج المرجوة منها، وإن كانت أنباء الـدعوة قـد تجاوزت حدود مكة إلى مواقع جديدة أصبحت محل تفكير وعناية مـن الرسول وأصحابه؛ لتكون أرضا لتكون أرضا بكرا يمكن أن تنمو فيها رسالة الإسلام بشكل جيد ، ومن هنا كان التفكير فى يثـرب، لتكـون مكانا مناسبا، وملائما للرسالة خاصة أن التركيبات العرقية فيها تشجع على استقبال عناصر جديدة توحد بين فئات وطوائف هذه المدينة التى كان الصراع فيها محتدما بين اليهود، والأوس والخزرج.

لقد جاء حجاج يثرب إلى مكـة والتقـوا بالرسـول ﷺ وبعـض أصحابه، وهاجر معهم لأول مرة مصعب بن عمير الذى أدى دوره فى نشر الدعوة على نطاق واسع، ولم ينتظر المسـلمون الراغبـون فـى الحرية، وعبادة الله فى أمن وأمان حتى يهاجر الرسول، فينتقل بعـده إلى دار هجرته، ولكنهم شرعوا فى الهجرة إلى يثـرب قبـل هجـرة الرسول إليها، فكانوا اللبنات الأولى لتأسيس المجتمع الإسلامى الجديد، الذى شاءت إرادة الله سبحانه وتعالى ان تثبت أركانه فى يثرب، وكانوا دعاة صادقين لنشر الدين الجديد فى هذا البلد الذى تغير شكله بصورة كبيرة بعد تواجد المسلمين فيه.

هاجر أصحاب رسول الله خفية إلى يثرب، وخوفا من بطش قريش وجبروتهم ، وفرارا بدينهم وعقيدتهم، مضحين بما تركوا وراءهم فى منابت بطولتهم من أهل ومال حبا فى الله ورسوله ودينه. قال تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ...﴾ (١) وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ (٢).

وأصبحت هجرة الرسول بعد الأخذ بجميع الاسباب بما يخص هجرته وشيكت الحدوث بين عشية وضحاها لكنه كان يهئ نفسه للأمر بأخذ العدة واختيار الصديق، وانتظار أمر الله سبحانه وتعالى.

قال ابن هشام فى السيرة النبوية: "وأقام رسول الله ﷺ بمكة بعد أصحابه من المهاجرين ينتظر أن يؤذن له فى الهجرة، ولم يتخلف معه بمكة أحد من المهاجرين إلا من حبس او فتن، إلا على بن أبىطالب، وأبوبكر بن أبى قحافة الصديق رضى الله عنهما، وكان أبوبكر كثيرا ما يستأذن رسول الله ﷺ فى الهجرة فيقول له رسول الله ﷺ : "لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحبا، فيطمع أبوبكر أن يكونه"(٣).

وقد خرج الرسول ﷺ من منزله، وسار إلى بيت أبىبكر واختلى به ثم خرجا من باب ضيق فى جانبه تحوطهما وتظللهما عناية الله

---

(١) النساء ١٠٠ والمراغمة المشقة والمعاناة .
(٢) سورة الحج ٤٠ .
(٣) السيرة النبوية لابن هشام المجلد الأول صـ٣٠٢ .

سبحانه وتعالى، ووصلا إلى غار ثور بأسفل مكة، ودخلاه ليلا، وأقاما فيه ثلاثة ايام، هذا وقد خمدت جذوة المشركين الحماسية فى البحث عن الرسول وصاحبه بعد أن أعيتهم الحيل فباتوا وكأنهم استسلموا للأمــر، وأيقنوا أن القضاء على الرسول لم يعد فى مقدورهم.

ونؤكد فى هذا السياق أن خروج الرسول من مكة لم يكن أمــرا هينا بالنسبة له إذ كان حزينا على هذا الإجبار الذى فرض عليه مــن أجل الدعوة واستكمال مسيرة الرسالة، وهذه مناجاة منه وهو ينظر إلى مكة: "والله إنك لأحب أرض الله إلى الله ولولا أن أهلك أخرجونى منك ما خرجت"(١)؟

وهذه المناجاة التى تحتشد فيها قوة عاطفته وأنوار قلبــه تعطينــا ملمحا ودرسا من دروس الهجرة فى حب الوطن والإخلاص له.

كانت هجرة الصحابة رضوان الله عليهم سرية وجهرية، كما كان مشروع هجرة الرسول ﷺ معلوما لأهل مكة وغير خاف عليهم، لكــن التوقيت الذى اختاره الله له لم يكن معروفا، وأن اســتعداده واختيــاره لأبىبكر كان فى غاية السرية؛ خوفا على صاحب الدعوة مــن بطــش رجالات قريش، فالهجرة كانت معلومة كمشروع قادم ولم تكن معلومة إعدادا وتنفيذا.

كان الرسول ﷺ فى قومه قبل الهجرة معروفا بالصدق والأمانــة، وكان محلا لثقة الكثيرين الذين وجدوا فيه نموذجا للشخص الذى يثقون

---

(١) رواه مسلم والترمذى.

فيه ويسلمونه الأمانات ويحفظون عنده الودائع، فكان اختيـــار علـــى؛ ليبقى فى منزله ليلة الهجرة ليوهم الكفار بأن الرسول ما زال فى بيتـــه وليرد الودائع إلى أصحابها .

إن الرسول ﷺ بعد أن استقبل وحى السماء عرض دعوته علـــى المقربين منه فكان أبوبكر أول من عمر قلبه بالإسلام مـــن الرجـــال ، وبقى حبه للرسول والإسلام قويا ومستمرا، وتجسد ذلـــك فـــى ليلـــة الإسراء والمعراج واكتملت إضاءات هذه الصداقة فى رحلة الهجـــرة المباركة، حيث كان أبوبكر على علم بها هو وابنتاه أسماء وعائشـــة، واستجاب لرغبة الرسول فى تكليفه بإعداد الراحلتين، كما أمر عـــامر ابن فهيرة راعى إنه بأن يأتى إليه فى الغار؛ ليمسح بأقدام الأغنام آثار القادمين لمحل تواجد الرسول.

وهكذا تكون الصداقة الحقة التى تعد نموذجا فريدا فى دنيا الناس ومثالا متميزا يندر وجوده فى صحائف التاريخ، ولعل اختيار أبىبكـــر لم يكن بقرار من الرسول أو استجابة لرغبة متوحدة فى أعماقه قدر ما كانت استعدادا واقتناعا من أبىبكر لشخص الرسول ودعوته، فكانـــت الصداقة تعبيرا عن حب كل واحد للآخر، ومراعاة لحقـــوق الصـــداقة ومتطلباتها التى تغيب عن الكثيرين من الناس.

كان الرسول ﷺ فى هجرته حذرا وفطنا لكل ما يحيط بـــه، ولـــم يكن الأمر عشوائيا يخضع للحظة الآنية، وإنما كان بسيطا فى المعالجة وأخذا بالأسباب التى ينبغى أن تكون منوطة بكل تصرف، ثـــم توكـــل

على الله سبحانه وتعالى فقد كان أبوبكر كما ذكرنا الشخص الذى يثــق فيه ويطمئن إليه، ولم يتوقف الأمر عند ذلك، وإنما استأجر عبدالله بــن أريقط ليكون دليلا ومرشدا فى طريق الهجرة مع أنه كان علـــى ديــن قومه، لكن الإخلاص فى العمل ينبغى أن يكون متأصلا فى الشــخص حتى لو اختلفت الديانة بين الطالب والمطلوب، وقــد ســلم الرســول وأبوبكر الراحلتين ووعداه عند غار ثور بعد ثلاثة أيام.

كان عبدالله بن أبىبكر يأتى للرفيقين فى الغار بالأخبار، بل كان يقضى معظم الليل معهما، ثم ينطلق مع الفجر إلى قريش؛ ليسمع مــا يدور ويجرى على ألسنتها، ويعود إلى الغار؛ ليحكى مجموع ما استمع إليه، بينما كانت أسماء بنت أبىبكر التى عرفت بذات النطاقين تقــوم بتجهيز الطعام وإعداده، والذهاب به إلى الرسول وأبيها فى الغار وكل ذلك يجرى فى سرية وكتمان، كما كان عامر بن فهيرة يــأتى إليهمــا بالأخبار، وكان يرعى غنما لأبىبكر، فكان يذهب بها إلـــى الرســول وصاحبه؛ حتى يشربا ويأكلا من ألبانها ولحومها، كما كـــان يتحــرك بالأغنام لتمسح بأرجلها آثار أقدام عبدالله وأسماء، مما يعنى أن مهمته كانت مزدوجة بل إنها تجاوزت ذلك بتكليفه ليكــون خادمــا للرســول وصاحبه فى رحلة الهجرة.

لقد وصل الكفار إلى الغار فى محـــاولاتهم الكثيــرة والمتعــددة للإمساك بالرسول والإطاحة بدعوته، وسبق أبوبكر الرسول إلى دخول الغار لتطهيره وتنظيفه، وبقى على جوار الرسول، وكان وجوده فـــى

ذاك الموقع يمثل رعبا بالنسبة له لاعتبارات كثيرة، وازدادت حدة ذلك لما صار المشركون على باب الغار، ولـم يفصلهم عـن الإمسـاك بالرسول وصاحبه إلا خطوات وينتهي بعدها كل شيء ، فما كان مـن أبى بكر إلا أن توجه إلى الرسول وقال له: "لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا، فطمأنه الرسول، ورد عليه بقوله : "يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما .. لا تحزن يا أبابكر إن الله معنا"٠

وقد نسج العنكبوت خيوطه حول باب الغار، ونشر على المكـان جو من الأزلية والقدم يشعر باستحالة أن يدخل هذا المكان إنـس منـذ عشرات السنين، ورجع القوم القهقرى، والتقط أبوبكر أنفاسه ، وعـاد إليه هدوؤه، وقد نزل فى هذا الموقف قـول الله تعـالى: ﴿ **إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾ (١)٠

وقد ضرب الله على أعين المشركين، فلم يـدخلوا الغـار مثلمـا أعمى أبصارهم وهو خارج من بيته، وهذه من تجليـات الله سـبحانه وتعالى ومعجزاته الكونية التى كانت عناية حافظة، وجنودا معاونة فى هذه الرحلة المباركة٠

---

(١) التوبة ٤٠ ٠

وقد روى أبونعيم أن رسول الله ﷺ حين خرج من مكة دعـــى الله بقوله : "الحمد لله الذى خلقنى ولم أك شيئا، اللهم أعنى على هول الدنيا ومصائب الدهر، اللهم اصحبنى فى سفرى وأخلفنى فى أهلى، وبـــارك لى فيما رزقتنى"٠

سار الرسول ﷺ وصاحبه إلى المدينة من طريق غير مطـــروق فلم يتجها بدخول المدينة من الشمال وإنما انحرفا إلى طريق اليمن ثم مضيا على الساحل، وتنقلا من طريق إلى آخـــر ، حتـــى اســـتقامت مسيرتهما بدلالة ابن أريقظ الذى كان على علم بكل ذلك، ومـــر علـــى امرأة من قبيلة خزاعة تسمى أم معبد، وكانت علامات القحط ظـــاهرة بادية حول خيمتيها، ومع أنها كانت معروفة بكرمها إذ كانـــت تطعـــم وتسقى من يمر بها كطبائع الكثيرين من أهل الصحراء، فطلب الرسول ﷺ منها طعاما أو شرابا إذ كانت الرحلة شاقة وعسيرة فاعتذرت بلطف وأدب جم، وكان زوجها يرعى غنيمات لهما، وتلك كانت مهمته التـــى عاش بها ويحيى عليها، فلما نظر الرسول حول الخيمتين شاهد شاة فى ركن من الخيمة هزيلة مجهدة، لا يبدو أنها تحمل فى ضرعها نقطـــة لبن واحدة، فمسح الرسول ﷺ بيده الشريفة ضرعها، وسم الله، وحلـــب منها لبنا كثيرا شرب منه هو ومن كان حاضرا، وحلبها مـــرة ثانيـــة وترك اللبن لأم معبد وزوجها، فلما جاء الرجل سأل عن اللبن الموجود لديها فقالت: إنه مر بنا رجل مبارك كان منه كذا وكذا فقال: إنـــه والله ما تطلبه قريش وإنى فى صحبته إن وجدت إلى ذلك سبيلا٠

وقد ساء قريش أن يفلت منها رسول الله، وأن تفشل فى العثــور عليه فلم يبق فى محصلة محاولاتها إلا أن ترصد مائة ناقة لمن يــرده عليهم، وتعقب سراقة[١] ركب الرسول محاولا الإمساك به؛ للفوز بمــا جعل له من قريش، فعثر فرسه وذهبت يداه فى الأرض وسقط عنــه، فعرف أن الرسول ممنوع منه، وقيل إن الرجل حاول انتــزاع يــدى الفرس من الأرض فتبعهما دخان كالإعصار، فنادى الركب ، وقال لهم إنه سراقة "انتظرونى أكلمكم فوالله لا أريبكم ولا يــأتيكم منــى شــىء تكرهونه قال فقال رسول الله ﷺ لأبىبكر : قل له وما تبتغى منا؟ قال: فقال ذلك أبوبكر، قال: تكتب لى كتابا يكون أية بينى وبينــك ، قــال: أكتب له يا أبىبكر"[٢].

وعاد سراقة إلى أهل مكة، ولم يذكر شيئا مما حــدث، فــأيقنوا بفشل مهمته، وبقى سراقة يحتفظ بكتاب العهد والأمان له، حتى قدمــه للرسول بعد فراغه من غزوتى حنين والطائف، مذكرا إياه بهذا اليــوم الذى قال عنه الرسول : "يوم وفاء وبر" وأعلن سراقة إسلامه.

ووصل الرسول وصاحبه إلى قباء تحوطهما عنايــة الله، فنــزل الرسول عند كلثوم بن هدم أخى بنى عمرو بن عــوف، بينمــا نــزل أبوبكر عند خبيب بن أساف ، أحد بنىالحارث بن الخزرج ، وأســس الرسول فى قباء أول مسجد فى الإسلام ، وقد بقى بها أيــام الاثنــين

---

(١) أى سراقة بن مالك .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام صـ٣٠٩، ٣١٠ .

والثلاثاء والأربعاء والخميس[١] وخرج يوم الجمعة فأدركته صلاتها فى بنى (سالم بن عوف) فصلاها فى المسجد الذى فى بطن الوادى، وسار ركبه الميمون حتى نزل أمام دار مالك بن النجار بالمدينـــة، وبركـــت ناقته فى موضع لتجفيف التمر أمام المنزل ثم استقر المقام فى دار بنى أيوب الأنصارى، وكلم من يقوم على أمر تعويض الغلامين صـــاحبى الفناء الذى كان أمام دار مالك بن النجار، وأقام الرسول فيـــه مســـجده ومساكنه، وسارع المهاجرون والأنصار بالعمل فى بنـــاء المســـجد ، واكتمل البناء، وســـار المركـــز الأول لأداء الصـــلاة وادارة شـــؤون المسلمين وجاء إلى قباء ، والتقى بالرسول بعد أن رد الودائـــع إلـــى أصحابها، واستقر به المقام فى المدينة.

وهكذا نجحت الهجرة بتوفيق من الله وعونه، بعد الأخذ بالأسباب والتوكل على الله، وتدفقت هجرات المسلمين بعد الرســـول وأبىبكـــر وعلى، وهدأت النفوس ، وسعد أهل يثرب بالرسول، وأحسنوا استقباله، وقابلوه بالأناشيد، وبدأت يثرب عهدا جديدا عرفت فيه باســـم "المدينـــة المنورة.

---

(١) انظر السابق صــ٣١٣ .

تأسيس الدولة الإسلامية فى المدينة المنورة(*)

عندما هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة وأقام فيها انصرف عند وصوله ومن معه إلى بناء المسجد فضلا عمن شارك فيه وأسهم فى تأسيسه من الأوس والخزرج، وقبل أن يقيم مسجده وأن يصل إلى محل وصوله بالمدينة أقام مسجد قباء، وكان أول مسجد أسس فى الإسلام. قال تعالى: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ (١).

وبنى الرسول ﷺ المسجد النبوى فى المدينة، وتجمع المسلمون من كل الطوائف حول رسول الله يتعلمون منه القرآن، ويتفهمون تعاليم الدين، فاتحدت قلوبهم، وتوحدت صفوفهم ودعاء محمد ﷺ أصحابه إلى الإيمان بالله والتمسك بكتابه الكريم كما قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ (٢).

ولما استقر المقام للرسول وأصحابه المهاجرين حرص ﷺ أن يقيم فى المدينة مجتمعا مبنيا على الرفق والرحمة والمودة واللين، ووجد آنذاك شوقا داخليا فى أعماق المهاجرين وحبا إلى وطنهم الأول الذى تركوا فيه ذكرياتهم وكثيرا من أقاربهم ، وبعض نسائهم وأطفالهم، فكان عليه أن ينهض برسالته فى تقوية أواصر الحب بين

(*) نشر بعضه فى جريدة اللواء الاسلامى العدد ٩٠ فى ١٣/١٠/١٩٨٣م.
(١) التوبة ١٠٨ .
(٢) آل عمران ١٠٣ .

كافة المسلمين فى يثرب وتدعيم صلتهم بالله وتقوية صلاتهم ببعضهم، وأن ينهض بالقضاء على بعض موروثات الماضى من عصبية جاهلية، وتقديس لعلاقات النسب، وأن ينمى علاقات جديدة كحب الوطن، حتى لا يتقدم أحد أو يتأخر فى القيمة الاجتماعية إلا بالمروءة والتقوى، حتى إنه انتابته نوبة من الأسى عندما أصابت حمى يثرب المهاجرين الذين لم يألفوا اختلاف المناخ بين مكة والمدينة فكان على الرسول أن يوجه أصحابه إلى حب المدينة والتغلب على متغيرات الإقامة بـين موقـع وآخر، فقال ﷺ "اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد"(١).

وكان فى غاية الحرص على توجيه سائر المسلمين إلى التمسـك بالتربية الإسلامية وإقامة مجتمع السلوكيات الفاضلة الذى ينبذ الكراهية والبغضاء وينشد المحبة والرحمة والألفة .

ولما كان المهاجرون قد صودرت أموالهم فى مكة، وما حملـوه معهم لا يكفى لاستمرار الحياة ودوام المعيشـة رأى الرسـول ﷺ أن يؤاخى بين المسلمين أى يجعل المسلمين أخوة فى الله تعـالى ، قـال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (٢).

وقال ﷺ للمهاجرين والأنصار "تآخوا فى الله أخوين أخوين".

وجاء فى البداية والنهاية لابن كثير ما يأتى: "وقال محمـد بـن إسحاق : وآخى رسول الله ﷺ بين أصحابه من المهاجرين والأنصـار

---

(١) رواه البخارى وأحمد .
(٢) الحجرات ١٠ .

فقال ــ فيما بلغنا ونعوذ بالله أن نقول عليه ما لم يقل ــ "تآخوا فى الله أخوين أخوين" ثم أخذ بيد على بن أبىطالب فقال "هــذا أخــى" فكــان رسول الله ﷺ سيد المرسلين، وإمام المتقين ، ورسول رب العــالمين، الذى ليس له خطير ولا نظير من العباد، وعلى بن أبىطالب أخــوين، وكان حمزة بن عبدالمطلب أسد الله وأسد رسوله وعم رسول الله ﷺ ، وزيد ابن حارثة مولى رسول الله ﷺ أخوين، وإليه أوصى حمزة يــوم أحد، وجعفر بن أبى طالب ذو الجناحين ومعاذ بن جبل أخوين ، قــال ابن هشام كان جعفر يومئذ غائبا بأرض الحبشة، قال ابــن إســحاق: وكان أبوبكر وخارجة بن زيد الخزرجى أخوين، وعمر بن الخطــاب وعتبان بن مالك أخــوين، وأبوعبيــدة وســعد بــن معــاذ أخــوين، وعبدالرحمن بن عوف وسعد بن الربيع أخوين ، والزبير بــن العــوام وسلمة بن سلامة بن وقش أخوين، ويقال بل كان الزبير وعبدالله بــن مسعود أخوين، وعثمان بن عفان وأوس بن ثابت بن المنذر النجــارى أخوين، وطلحة بن عبيدالله وكعب بن مالك أخوين، وسعيد بــن زيــد وأبى بن كعب أخوين، ومصــعب بــن عميــر وأبوأيــوب أخــوين ، وأبوحذيفة بن عتبة وعباد بن بشر أخوين ، وعمار وحذيفة بن اليمــان العبسى حليف عبد الأشهل أخوين: ويقال بل كان عمار وثابت بن قيس بن شماس أخوين"[١].

وقد جاء فى بعض الكتب الأخرى مزيدا من أسماء الصحابة من المهاجرين والأنصار الذين تآخوا فى الله على المحبة والمــودة، ممــا

(١) البداية والنهاية جــ٣ صــ٢٢٦ ، ٢٢٧ وانظر الروض الأنف ٢/٢٤٢ .

يؤكد تحول هذه الفكرة من حيز الدعوة النبويــة إلــى نطــاق الفعـل الإيجابى المثمر فى بناء المجتمع وتقوية أواصره.

والمؤاخاة كانت منصرفة وموجهة إلى جعل المسلم المهاجر أخــا للمسلم الأنصارى، وهذا فى الأعم ، وإلا فكان الرســول أخــا لعلــى، وكان حمزة أخا لزيد بن حارثة كما سبق بيان ذلك .

لقد كانت هذه المؤاخاة ضرورية فى تلك المرحلــة مــن عمــر الدعوة الإسلامية، وتحت ظلال البناء الجديد لتأسيس الدولة الإسلامية، ولتقوية صفوف المسلمين من المهاجرين والأنصار، وزيادة تعــاونهم فى المجالات المتعددة كالدعوة والعقيدة والحياة، ولتثبيت قلوبهم جميعا بأرض يثرب، أو بأرض مدينة رسول الله كما سميت بــذلك، وكــان المهاجرون فى البداية غرباء أو كالغرباء بلا مــال أو متــاع أو دور، وكانوا بحالة تلزمها الرعاية والتعهد كزرع غرس فى غير بيئته، لكن الرسول ﷺ لم يأل جهدا فى التأليف بين القلوب حتى تحققــت المحبــة وانتشر الرخاء وأقبل الناس على الدين الإسلامى إقبــالا شــديدا قــال تعــــالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [١] وقــال تعــالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ

---

(١) الحشر ٩ .

يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١).

وقيل إن المؤاخاة كانت بين تسعين أو مائة رجل نصفهم من الأنصار والباقى من المهاجرين، واستمرت إلى غزوة بدر من ناحية الالتزامات الناشئة عن الدم مع التزامية العواطف والمشاعر، وزادت قوة المسلمين، وزادت ثرواتهم فأصبحت المؤاخاة من ناحية تكوينها وبناء فكرتها فى غير حاجة لذلك خاصة أن المجتمع المدنى قد صار قوة من النواحى المالية، وذلك بعد نزول قول الله تعالى: ﴿ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴾ (٢).

ونعرض لمثال واحد لتلك المؤاخاة التى تحدث عنها القرآن الكريم، وذكرها رسول الله ﷺ ، فقد كانت بين عبدالرحمن بن عوف وسعد بن الربيع فعرض سعد (وهو من الأنصار) على عبدالرحمن بن عوف (وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة) عرض عليه إحدى زوجتيه حتى يتزوجها ابن عوف ، فرفض وأبى، فاصطحبه إلى حديقة له، وعرض عليه أن يعطيه نصفها، حتى يكتسب منها، فرفض وقال بارك

---

(١) الحشر ١٠ .
(٢) الأحزاب ٦ .

الله لك ، وكل ما أطلبه منك أن تدلنى على السوق" واشتغل ابن عوف بالتجارة فنمت وزادت، واتسعت أمواله فعاش منها ثم سخر ما تبقـــى لديه فى سبيل الله تعالى ٠

ولم تكن حياة الرسول ﷺ فى بعث الحياة بين المسلمين قاصـــرة على هذه المؤاخاة وإنما زادت نظرته للعالم المحيط به فأخــذ يوجـــه الناس لزراعة الأرض غير مكتف بالتجارة، وكان العمل فى الزراعـــة يعد مصدرا من مصادر الثروة بالمدينة على عهد رسول الله ، ثم أخــذ ينظر بآفاقه الرحبة إلى المجتمع بكل مكوناته لزيادة اقتصــــاد المدينـــة فكانت الوجهة إلى الصناعة المتمثلة فى صناعة السلاح وتعليم الحرف والصناعات المختلفة؛ حتى ينشد الزيـــادة المضـــطردة فـــى الـــدخل والإنتاج٠

وهكذا تناول الرسول ﷺ جانبا مهما من جوانب تأسيس الدولة فى المدينة وهو الجانب الاقتصادى الذى اشتمل كل جوانب الثروة وزيادة الدخل على مستوى الأفراد والجماعات ٠

وأراد الرسول أن يدعم الوحدة بين عناصر المســلمين وفئـــات اليهود، فعقد معاهدة لا زالت تمثل قيمة إسلامية عظيمة فى الإســـلام ، ولم تمح من سجل النظرية السياسية فى الإسلام التى لا تغفـــل حقـــوق الأقليات فى الحرية الدينية ٠

وقد اشترط الرسول على اليهود كما اشترط على المسلمين بهدف زرع وتثبيت حقوق الإقامة بين المسلمين وطوائف اليهود ممن كانوا يقيمون فى المدينة أو على مقربة منها.

ونؤكد أن طموحات اليهود فى الرسول كانت كبيرة، وأنهم عقدوا عليه من الآمال ما يجعلهم تواقين إلى نمط جديد من الحياة ينسون فيه بعض سلبيات الماضى التى لم تكن فى صالحهم سواء أكان ذلك بين طوائف مختلفة أو بين طوائف الأوس والخزرج خاصة أن الأوس والخزرج كان فيهما بعض اليهود الذين اعتبروا حلقات للوصال بين اليهود والمسلمين.

كانت المعاهدة محددة، وواضحة ثم كتبت وحفظت فى القلوب وعلى الأوراق ، وكانت ذات أثر كبير فى تقوية الهمم والعزائم وحفظ يثرب من الطامعين فيها، وقد كتبت بنت الشاطئ فى شأن هذه المعاهدة ما يأتى : "وكانت (يثرب) قبل وصوله (أى الرسول) إليها بأقل من ثلاث سنوات شبه مستعمرة لهؤلاء اليهود الناشئين فى يثرب وما حولها من الأرض الطيبة شمالى الحجاز، وصعب عليهم أن ألف الإسلام بين عرب يثرب، الأوس والخزرج، وأطفأ ما أوقد اليهود فيهم من نار العداوة والبغضاء، وقد كانوا على شفا حفرة منها" .

وكان يهود بنو قينقاع مقيمين فى يثرب بينما كانوا بنو النضير وبنو قريظة على مقربة منها فضلا عن بعض الفئات الأخرى التى كانت فى المدينة وفى خارجها، وهذا يعطى بعض التصور عن كثرة

اليهود وانتشارهم فى مجموعة من الأماكن المتفرقة هذا وقد أصـــبحت المدينة من خلال هذه المعاهدة أو الموادعة مفتوحة لكل من أسلم، وقد ترك الرسول من خلال نصوص المعاهدة الباب مفتوحا لكل راغب من اليهود فى الإسلام، وأصبح الرسول هو الحاكم العـــام علـــى يثـــرب يستأذنه من يريد الخروج والدخول من اليهود وأصبحت المدينة آمنـــة مطمئنة لأول مرة فى تاريخها، كما أوصف المعاهدة بأن يتحمل اليهود والمسلمون نفقات الحرب عند وقوع عدوان على المدينة، وقضت على الفوضى والإباحية وسيطرة القوة وبدأت المدينة ،عهـــدا مضـــيئا مـــن الهدوء والأمن، على ألا يخرج اليهود عن نصوص الاتفاق خاصة أنه قد كفل لهم حرية اختيار الدين الذى يعتقدونه تحت ظلال مضيئة مـــن كلام الله رب العالمين قال تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ (١) ، وقـــال عز من قائل : ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ ۚ ﴾ (٢) .

وقال تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ (٣).

ولا شك فى أن المعاهدة كانت حريصة على ترســـيخ التعـــاون وتثبيت دعائم الأخوة بين المسلمين واليهود خاصة إذا نزلت بأحـــدهما شدة، كما أن المعاهدة لم تكن قاصرة على العلاقـــة بـــين المســـلمين

---

(١) الكافرون ٦ .
(٢) البقرة ٢٥٦ .
(٣) آل عمران ٦٤ .

واليهود بل كانت أشمل من ذلك فجاء شق منها عـن تثبيـت دعـائم الأخوة بين المسلمين بينما جاء الشق الثانى عن تأكيد المسـاواة بـين فئات اليهود، أما ما تبقى وهو الشق الأكبر من هذه المعاهدة فكان عن اصول العلاقة بين المسلمين واليهود، وحقوق المدينة، وترسيخ دعـائم القوة فى شخص رسول الله ﷺ .

ونقدم نصوصا من هذه الوثيقة الخالدة التى تتجاوز فى مضمونها العام وتفصيلاتها المحددة ما سبق أن ذكرناه من إشارات خاطفة حسب متطلبات الموقف، ومما جاء فيها: "بسم الله الرحمن الـرحيم" ، هـذا كتاب من محمد النبى ﷺ ، بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم، فلحق بهم وجاهد معهم، إنهم أمة واحدة من دون النـاس، المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاهدون، بيـنهم، وهـم يفـدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو عـوف علـى ربعـتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، كل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولـى، وكـل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، كما جاء فى المعاهدة أيضا : "وأن لا يحالف مـؤمن مـولى مـؤمن دونـه، وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم، أو ابتغى دسيعة ظلم، أو إثـم، أو عدوان، او فساد بين المؤمنين، وأن أيديهم عليه جميعا، ولو كان ولـد أحدهم".

وجاء فيها أيضا : "وأن اليهود ينفقون مع المــؤمنين مــا دامــوا محاربين، وأن يهود بنى عوف أمة مــع المــؤمنين، لليهــود ديــنهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم، إلا من ظلم أو أثم، فإنه لا يوقع إلا نفسه ، وأهل بيته، وإن ليهود بنى النجار مثل ما ليهود بنــى عــوف ، وإن ليهود بنى الحارث مثل ما ليهود بنى عوف"٠

قال ابن إسحاق : وأن البر دون الإثم، لا يكسب كاسب إلا علــى نفسه، وأن الله على أصدق ما فى هذه الصحيفة وأبره، وأنه لا يحــول هذا الكتاب دون ظالم وآثم، وأنه من خرج آمــن، ومــن قعــد آمــن بالمدينة، إلا من ظلم أو أثم، وأن الله جار لمن بــر واتقــى، ومحمــد رسول الله ﷺ"(١)٠

وهكذا وضع الرسول ﷺ فى صورة جديــدة، وحققــت الهجــرة النبوية أهدافها، وارتفع لواء الإسلام عاليا خفاقا، وانتشر الأمن وعــم السلام وزاد الرخاء ودخل الناس فى دين الله أفواجا٠

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣١٨ ــ ٣٢٠ ٠

رسالة المسجد فى الإسلام

١ـ بناء المساجد :

لقد انعقدت صلة الوفاء والنقاء بين أول بيتـين لله تعـالى علـى الأرض فى ليلة الإسراء والمعراج، وهما المسجد الحـرام والمسـجد الأقصى، وذكرهما رب العزة سبحانه وتعالى فـى القـرآن الكـريم، وسجل لهما هذا التقديس والتكريم والإجلال، وتفردا بالتعظيم فلم يذكر سواهما فى أخلد كتبه، قال تعالى: ﴿ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ﴾ [١].

وكانت الكعبة هى البيت الأول لله على الأرض، قال تعـالى:﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ ۝٩٦ فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ ...﴾ [٢] ، ورفع إبراهيم وإسماعيل قواعد هذا البيت قـال تعـالى: ﴿ وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ [٣].

---

(١) الإسراء / ١ .
(٢) آل عمران / ٩٦ ، ٩٧ .
(٣) البقرة / ١٢٦ .

وكان البيت الحرام يطلق على الكعبة، ثم صار المسجد الحرام يقال على الكعبة وما يحيط بها من فراغ دون أن يكون له سور لتحديده؛ إلى أن تولى عمر بن الخطاب الخلافة فاشترى ما حول الكعبة من بيوت، وهدمها، وأضافها إلى المسجد الحرام وجعل له سورا، ولا زالت التجديدات والتوسعات تشمله حتى الآن.

والمسجد الأقصى ثانى مسجد بنى على الأرض بعد المسجد الحرام فى مكة، وقد تهيأت همة نبى الله يعقوب[١] لبنائه؛ تسهيلا لأسباب العبادة، وقربانا إلى الله سبحانه وتعالى، فعن أبى ذر ﷺ أنه سأل رسول الله ﷺ عن أول مسجد وضع فى الأرض، فقال: المسجد الحرام، فقلت: ثم أى؟ قال: المسجد الأقصى، قلت: وكم بينهما؟ قال: أربعون عاما، ثم الأرض لك مسجد فحيثما أدركتك الصلاة، فصل"[٢].

وسمى بالمسجد الأقصى؛ لأنه أبعد المساجد التى تشد إليها الرحال للزيارة، وقيل: لبعده عن الأقذار والخبائث، وهو أول القبلتين، وثالث الحرمين، وأحد المساجد الثلاثة المقدسة التى خصها الله بمزيد من التنويه والتكريم، وقد جعله الله واسطة العقد فى ليلة الإسراء والمعراج.

---

(١) جاء فى البداية والنهاية لابن كثير جـ٢ ص٢٩٨ ، أن الذى أسس المسجد الاقصى هو نبى الله يعقوب عليه السلام . وقيل: نبى الله سليمان، وقيل: داود عليهما السلام، انظر "آيات الأحكام" للصابونى جـ١ صـ٤٠٧ .

(٢) البخارى ومسلم .

وعندما هاجر رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة نزل قباء، وكانت على مسافة ميلين من المدينة، وبنى فيها أول مسجد فى الإسلام، وكان الرسول يعمل فيه بنفسه، وهو الذى عرف عند أكثر المحققين بمسجد التقوى ٠

وبعد أن استقر الرسول ﷺ فى المدينة، والتف حوله المهاجرون والأنصار شرع فى بناء مسجده النبوى الشريف فى قلب المدينة من ناحيتها الشرقية فى العام الأول من الهجرة، وهو أول عمل عظيم نهض به مع صحابته رضوان الله عليهم، وأحيطت حجرات زوجات الرسول ﷺ بالمسجد، ثم ضمت إلى ساحته بعد ذلك ، ودفن فيه الرسول ﷺ وأبوبكر وعمر، ولحقت به توسعات كثيرة فيما بعد٠

وعندما كان المسلمون يفتحون بلدا من البلدان كانوا يبدؤون العمل فيه ببناء المسجد؛ ليكون دارا للعبادة والذكر وتلاوة القرآن وعمل الخير، ولهذا أقام عمرو بن العاص ﷺ مسجده الجامع فى مصر، وبنى الفاطميون بها الجامع الأزهر، والذى أقيمت الصلاة فيه لأول مرة عام ٣٦١هـ، وصار فيما بعد مسجدا للعبادة، وجامعة يتلقى طلاب العلم فيه دروسهم فى مختلف العلوم، وذلك من عام ٣٧٨هـ٠

وقد أخبر الرسول ﷺ بشد الرحال إلى المساجد الثلاثة التى جاءت فى قوله : "لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدى هذا (بالمدينة) ، والمسجد الأقصى (بيت المقدس) [(١)]٠

---

(١) البخارى ومسلم ٠

أما ما عداها فلا ينبغى إفرادها عن المساجد الأخرى بشىء تتميز به، فكلها بيوت لله سبحانه وتعالى ٠

لقد دعا الإسلام إلى إقامة المساجد وتعميرها؛ لتنهض بدورها الذى بنيت من أجله، وهو العبادة والذكر، قال الرسول ﷺ : "من بنى مسجدا لله بنى له فى الجنة مثله"(١).

وقد سميت الأبنية التى تقام فيها الصلاة بالمسجد؛ لأن السجود أكبر مظهر للخشوع، وأعظم أركان الصلاة، تلك الفريضة التى تعد أهم ما يؤدى فى المساجد ، وقيل: إن التسمية بالمساجد نسبة إلى أعضاء السجود التى يسجد عليها الإنسان، فكل عضو منها يسمى (مسجدا) وهى الوجه واليدان والركبتان والقدمان، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ (٢) وقال: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ (٣).

٢ ـ احترام المساجد :

إن المسجد بيت الله فى الأرض، واحترامه واجب على كل مسلم، وقد استُغلت بعض المساجد فى عصرنا استغلالا دنيويا بغيضا، فصرَّفها الناس عن الواجب الدينى المنوط بها٠

---

(١) مسلم ٠
(٢) الجن ١٨ ٠
(٣) التوبة ١٨ ٠

ومن مظاهر احترام الإسلام للمسجد تقديسا لدوره ورســالته مــا نص عليه الرسول ﷺ من صلاة تحية المسجد ، وهى ركعتان قال: "إذا دخل أحدكم المسجد فلا يجلس حتى يصلى ركعتين"(١).

ويلاحظ أن الناس قد أسرفت وبالغت فى المناداة علــى الأشــياء التائهة الهينة فى المسجد، وقد نهى الرسول عن ذلك فقال : "من ســمع رجلا ينشد ضالة فى المسجد، فليقل: لا ردها الله عليك، فإن المســاجد لم تبن لهذا"(٢).

كما يجب على المسلم أن يأخذ زينته، ويرتــدى أفضــل ثيابــه، ويخرج على أفضل صورة، وأحسن حال عندما يذهب إلى بيــت الله، قال تعالى: ﴿يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ...﴾ (٣).

ولابد أن تكون المساجد خالصة لله ، بعيدة عن شبهات الشرك فلا يصح أن يستغل أى جزء منها ليكون قبرا ، كما لا يصــح أيضــا أن يتخذ القبر ليكون مسجدا أو مكانا للصلاة، فعن أبىهريرة رضي الله عنه قال:قــال رسول الله ﷺ "لعن الله اليهود والنصــارى اتخــذوا قبــور أنبيــائهم مساجد"(٤).

وعلى كل مسلم أن يعلم ويفهم أن للمساجد آدابا وأوضاعا خاصة، فهى ليست منازل كمنازلنا ، وليست أماكن للنوم والراحة، ولا مطاعم

---

(١) الفتاوى جــ٦ صــ٢١٥٩ .
(٢) رواه مسلم وابن ماجة .
(٣) الأعراف / ٣١ .
(٤) البخارى ومسلم .

للأكل والشرب، بل هى بيوت لله فى الأرض، أعدت للعبـــادة والـــذكر وتلاوة القرآن وعمل الخير، فعن أبى هريرة ﷺ أنه مر بسوق المدينة؛ فوقف عليها، فقال: يا أهل السوق، ما أعجزكم ؟ قالوا: وما ذاك يا أبا هريرة؟ قال: ذاك ميراث رسول الله ﷺ يقسم وأنتم هاهنا ! ألا تذهبون فتأخذون نصيبكم منه؟ فقالوا: وأين هو؟ قال: فى المســـجد. فخرجـــوا سراعا ، ووقف أبو هريرة لهم حتى رجعوا، فقال لهم : ما لكم؟ فقالوا: يا أبا هريرة : قد أتينا المسجد فدخلنا فيه فلم نر فيه شيئا يقسم، فقـــال لهم أبو هريرة، وما رأيتم فى المسجد أحدا؟ قالوا: بلى، رأينـــا قومـــا يصلون، وقوما يقرؤون القرآن، وقوما يتذاكرون الحلال والحرام، فقال لهم أبوهريرة: ويحكم ! فذاك ميراث محمد ﷺ " [١] .

كما لا يليق ولا يصح لأحد أن يسئ الأدب مع الله فيـــأتى إلـــى مسجده وقد أكل أو شرب أشياء كريهة منفرة مثل البصل والثوم ، ومن رغب فى شئ منها فليكن تناوله لها قبل حضوره إلى المسجد بوقـــت طويل، وبعد أن تكون رائحتها قد تلاشت وذهبت عنه، أو أن يســـتعمل لفمه منظفا أو معجونا أو مطهرا مناسبا ، أو أن يتناولها على صـــورة لا تكون فيها روائحه النفاذة ، قال رسول الله ﷺ ـــ فيما رواه جـــابر : "من أكل بصلا أو ثوما ، فليعتزلنا ، أو فليعتزل مسجدنا، وليقعد فـــى بيته" [٢] .

(١) أخرجه الطبرانى فى الأوسط بإسناد حسن . حياة الصحابة جـــ٣ ص٧٨ ٠
(٢) البخارى ومسلم وآخرون ٠

وينبغى أن يحرص المسلمون ــ بأنفسهم أو من خـــلال الجهـــات المسئولة ـــ على إصلاح المساجد وتنظيفها، فعن عروة بـــن الزبيـــر عمن حدثه من أصحاب رسول الله ﷺ ، قال: "كان رســـول الله ﷺ ــ يأمرنا أن نصنع المساجد فى دورنا، وأن نصلح صنعتها ونطهرها"(١).

وكان بعض الأعراب فى المراحل الأولى مـــن عمـــر الـــدعوة الإسلامية يفهمون أن المسجد كأى مكان آخر ، ولكن الرسول ﷺ فرق لهم بين بيوت الله وبيوتهم، وأرشدهم إلى المنهاج الصحيح فى هـــدوء وحكمة ووقار، فقد روى أنس ؓ قال : بينما نحن فى المســـجد مـــع رسول الله ﷺ إذ جاء أعرابى، فقام يبول فى المسجد، فقـــال أصـــحاب رسول الله ﷺ : مه مه (انكفف) قال: قال رسول الله ﷺ : لا تزرمـــوه (لا تقطعوا عليه بوله) دعوه! فتركوه حتى بال،ثم إن رسول الله ﷺ ــ دعاه فقال له: إن هذه المساجد لا تصلح لشئ من هذا البول، ولا القذر إنما هى لذكر الله والصلاة وقراءة القرآن ــ أو كما قال رسول الله ﷺ فأمر رجلا من القوم فجاء بدلو من ماء فشنه عليه"(٢).

ومن الواجب على المسلمين أيضا أن يتجنبـــوا اللغـــو، والكـــلام الفارغ، والألفاظ الساقطة فى المسجد، فلا يكون الحديث إلا ذكرا حسنا من غير رفع صوت ؛ لئلا يتأثر المصلون أو القارئون لآيات الـــذكر الحكيم بشئ مما يتلفظ الجالسون به.

---

(١) رواه أحمد وإسناده صحيح .
(٢) رواه مسلم .

٣ـ رسالة المساجد :

تنهض المساجد بدور كبير فى حياة المسلمين وعباداتهم ، ففيها تؤدى الصلاة المفروضة والنافلة، وتقام فيها صلاة الجمعة، وصلاة الجماعة، والأعياد، ويتلى فيها كتاب الله ، وتلقى فيها دروس العلم من تفسير وحديث وعقيدة وتشريع .

كما أن المسلم الذى يعتاد الذهاب إلى المسجد تتوثق صلته بربه، ويقوى إيمانه بخالقه.

إننا نشهد بعض المظاهر السلبية فى زماننا فيما يتصل بعلاقة المسلمين بالمسجد ، حيث نرى بعض الشباب من طلاب العلم يكثرون من الذهاب إلى المسجد فى أيام المذاكرة ، والامتحان، وإذا انفض ذلك تركوا المسجد، وانصرفوا عنه، وعادوا إلى سابق لهوهم وعبثهم وإضاعتهم للوقت ، وكأنهم ينفذون قول الشاعر :

صلى وصام لأمر كان يطلبه ∴ لما انقضى الأمر لا صلى ولا صاما

لكن الشباب المؤمن الذى نشأ فى بيئة دينية ملتزمة، يحرص على الصلاة، ويداوم على الذهاب إلى المسجد : ﴿ **إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى** ﴾ [1] .

لقد اتسعت رسالة المسجد فى العصر الحديث، ولم يعد دوره قاصرا على العبادة فأصبح دارا لعمل الخير، ومنارة لنشر الدعوة،

---

(١) الكهف / ١٣ .

وتحفيظ القرآن، وتوحيد الصفوف ، وجمع الكلمة، وتوزيع الصـدقات، وعقد الألفة بين المسلمين ٠

كما يلتقى المسلمون فى المساجد لأداء الصلاة فى جماعة، فيشعر المسلم بنشوة الإيمان تسرى فى بدنه، وتغمر كيانه ، فيركن إلى الهدوء النفسى وطمأنينة القلب وراحة البال ٠

لقد انطلقت صيحات الإيمان والنصر إيذانا ببـدء الـدفاع عـن الأوطان من مساجد كثيرة فى عصرنا الحديث ، ونهضـت المسـاجد بدور بارز فى جمع التبرعـات مـن أجـل الإنفـاق علـى الفقـراء والمحتاجين وضحايا الحروب، وكانت النساء تشاركن فى تلك الحملات بجهد واضح ، ولذلك لا يصح أن تمنع النساء من حضور الجماعـات فى المساجد ما لم تترتب على ذلك مفسـدة وضـلال، أمـا أفضـلية صلاتهن فى البيوت فمحمولة على ما إذا كانت الصلاة فـى المسـجد غير مقترنة بسماع وعظ ونحوه مما لا يتيسر لهن فى البيوت [١] ٠

وقال تعـالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ [٢] ٠

---

(١) انظر الفتاوى الإسلامية جـ١ صـ٧٤ ٠
(٢) الجمعة ٩ ٠

لقد أسلم كعب بن زهير فى المسجد ، وأنشد الرسول ﷺ قصـــيدة (بانت سعاد) المشهورة، وكان الصحابة يقعدون مع الرسول بالغدوات فى المسجد ، وبويع بعض الصحابة بالخلافة فى المسجد ، وبعد فـتح مكة شرع الرسول فى أول وصوله بتحطيم الأصنام التى كانت علـــى مقربة من الكعبة؛ لتكون العبادة خالصة لله تعالى .

ولا شك فى أن المراحل التالية من تاريخ الإســـلام قـــد شـــهدت بعض التعدى على الرسالة السامية للمساجد ، فأقيمت بها الأضـــرحة، وأسرف الناس فى زخرفتها وتزيينها، وعقــدت بهـــا حلقـــات للـــذكر مصحوبة بأصوات عالية وضوضاء ، واستغل المســـجد فـــى النـــوم، والشحاذة، والدعوة إلى بعض المذاهب والاتجاهات الخاصـــة، علـــى طريقة مسجد الضرار الذى أنشئ فى عهد الرسول لأهداف ســـيئة، إذ بناه رجل من الخزرج يقال له:أبوعامر الراهب ــ بجوار مسجد قباء ، وشرع الرجل ــ ومن معه ــ فى بنائه قبل خروج الرسول إلى تبوك، وكان الهدف منه هو التفريق بين جماعة المسلمين وتجهيزه لكى يـــأتى إليهم فيه قيصر الروم، ودعوا الرسول للصلاة فيـــه ليحتجـــوا بهـــا ، واعتذر الرسول لهم لضيق الوقت بسبب الاستعداد للرحيل، وعصـــمه الله من تلك الصلاة التى كان يمكن أن تستغل أسوء استغلال ، وعنـــد عودته من تبوك وقبل أن يدخل المدينة نزل عليه جبريل بنبـــأ مســـجد الضرار،قال تعالى:﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا

بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ (١) .

وبعث رسول الله ﷺ جماعة من أصحابه وقال لهم : "انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله، فاهدموه واحرقوه فخرجوا مسرعين، وأخرج مالك بن الدخشم من منزله شعلة نار، ونهضوا فأحرقوا المسجد وهدموه" (٢) .

إن كل من يتجه إلى الله بصدق وإخلاص، ويبنى مسجدا للعبادة والذكر، وينفق عليه ما ينفق ، فإذا أتمه وأعده للصلاة لم يعد له أو لأى شخص آخر خصوصية فيه؛ لأنه قد خرج من ملكه إلى ملك الله، وهو حق مشترك بين سائر المسلمين .

يروى عن النبى ﷺ أنه كان إذا دخل المسجد قدم رجله اليمنى، وقال : "وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا ، اللهم أنا عبدك وزائرك وعلى كل مزور حق ، وأنت خير مزور، فأسألك برحمتك أن تفك رقبتى من النار ... وإذا خرج من المسجد قدم رجله اليسرى وقال: اللهم صب على الخير صبا ولا تنزع عنى صالح ما أعطيتنى أبدا ، ولا تجعل معيشى كدا، واجعل لى فى الأرض جدا أى يسارا وغنى ، والله تعالى أعلى وأعلم .

---

(١) التوبة / ١٠٧ .
(٢) الجامع لأحكام القرآن جـ٨ ص٢٥٣ .

من مظاهر الإيمان فى شهر شعبان(*)

مكانة شهر شعبان :

يقع (شعبان) بين شهرين متميزين فى سلسلة الشهور العربية، وأولها (رجب) وهو أحد الأشهر الحرم التى كانت العرب تتوقف فيها عن القتال، وثانيها (رمضان) وهو الشهر المعظم الذى يصومه المسلمون، ويحيطونه بالإجلال والتقدير؛ لتفرده بنزول القرآن الكريم فيه، ولذلك نبه الرسول إلى ما يمكن أن يلقاه شهر شعبان من التناسى والغفلة؛ لوقوعه بين هذين الشهرين الكريمين، فأحاطه ببعض الأمور التى ترفع عنه هذه الغفلة، ولاحظ الصحابة رضوان الله عليهم ذلك، فوصفوا حالته فى هذا الشهر، وسألوه عن سبب إكثاره من الصوم فيه.

فعن عائشة رضى الله عنها قالت: "كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول لا يفطر، ويفطر حتى نقول لا يصوم، وما رأيت رسول الله ﷺ استكمل صيام شهر إلا رمضان، وما رأيته أكثر صياما منه فى شعبان"(١).

وتذكر إحدى روايات الحديث أنه كان يصومه كله، وتذكر رواية أخرى أنه كان يصومه إلا قليلا، ويؤكد الحديث فى مجموع رواياته حرص الرسول ﷺ على صيام أكثر هذا الشهر، وينبه أيضا إلى

(*) نشر فى جريرة صوت الأزهر بالعددين ١٦٠ ، ١٦١ فى ٢٠٠٢/١٠/١٨ و٢٠٠٢/١٠/٢٥م.

(١) رواه البخارى ومسلم وأبوداود .

خطورة الغفلة عن العبادة، وإلى فضـيلة صـوم التطـوع، وأهميـة الاستعداد النفسى والبدنى لصيام شهر رمضان ، ولا تعارض فى ذلك مع ما ورد من الأحاديث فى النهى عن صيام يوم أو يومين من آخره، وكذا ما جاء من النهى عن صوم فى النصف الثانى من هذا الشهر .

وعن أسامة بن زيد قال : "قلت يا رسول الله لم أرك تصوم مـن شهر من الشهور ما تصوم من شعبان؟" قال : "ذلك شهر يغفل النـاس عنه بين رجب ورمضان، وهو شهر ترفع فيـه الأعمـال إلـى رب العالمين، فأحب أن يرفع عملى وأنا صائم"[١]، فمـا أحسـن الاقتـداء بالرسول وأصحابه، وما أفضل التعرض لنفحات الله تبارك وتعالى فى أيام شعبان بالصلاة والصوم وإخراج الزكاة وقراءة القرآن .

تحويل القبلة وأثره فى وحدة الأمة:

١ـ قبلة المسلمين قبل الهجرة:

كان الرسول ﷺ قبل البعثة يتقرب إلى الله سبحانه وتعالى ويعبده على ديانة سيدنا إبراهيم، ولما بعث إلى النـاس كـان يصـلى هـو والمسلمون فى مكة صلاة بالغداة، وصلاة بالعشى، قال تعالى: ﴿**وسبح بحمد ربك بالعشى والإبكار**﴾ [٢] ثم فرضت الصلاة عليه وعلى أمته ليلة الإسراء والمعراج خمسا فى الفعل، وخمسين فى الأجر والثواب، فكان الرسول يتجه فى صلاته إلى بيت المقدس جاعلا الكعبة فى مواجهتـه،

---

(١) أخرجه النسائى وأبوداود، وصححه ابن خزيمة.
(٢) غافر ٩٥ .

متحاشيا أن يدير ظهره لها، ولما هاجر إلى المدينة وقــدم إليهــا فــي الثانى عشر من ربيع الأول استحال عليه أن يتجه إلى بيــت المقــدس دون أن يدير ظهره إلى الكعبة، فاتجه إلى بيت المقدس بأمر قرانى ثم نسخ، أو باجتهاده ﷺ ٠

أى أن القبلة فى مكة كانت بيت المقدس، واستمرت بعد الهجــرة إلى أن صرف الله المسلمين إلى التوجه نحو الكعبة٠

وقيل إن قبلة الرسول والمسلمين فى مكة كانت الكعبة ـــ وهــذا هو الرأى الراجح ـــ فقد كان تعلق الرسول ﷺ ببيت الله الحــرام فــي مكة كبيرا وعظيما٠

٢ـ قبلة المسلمين بعد الهجرة:

بعد أن هاجر الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة وجد أمامه مجتمعا مختلفا بطباعه وتركيبته الاجتماعية، وكان قلبه متعلقا بمكة حيث ترك فيها أهله ومرابع طفولته وشبابه ، وبعض الضعاف من المسلمين، وقد خاطبها فقال : "والله إنك لأحب بلاد الله إلى الله، والله إنك لأحب بــلاد الله إلى، والله لولا أن أهلك أخرجونى منك ما خرجت"٠

ولم تفتر حدة شوقه إليها رغم إقامته بين الأنصار والمهــاجرين، وذيوع الإسلام ، وإعلان العبادة والجهر بها، وإقامة المساجد وتزايــد أعداد المسلمين، وكان يفزع إلى ربه بالدعاء قائلا : "اللهم حبب إلينــا المدينة كما حببت إلينا مكة" [(١)] .

---

(١) رواه أحمد ٠

وقد اجتهد فى صلاته، فتوجه إلى الصخرة من بيــت المقــدس، وربما كان هذا الاجتهاد نابعا من رغبته فى استمالة اليهود إلى الإسلام والتأليف بين العناصر المختلفة فى بيئة المدينة، وبيــان أن الرســالات الإلهية تلتقى فى أصولها العامة، قال تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ [١].

وفرح اليهود لذلك فرحا عظيما، وعدوا هذا التحول انتصارا لهم، ورفعا لشأنهم ، بينما كان الرسول ﷺ يطمح فى أن يكون ذلــك تأليفــا لقلوبهم، واستمالة لهم إلى الإسلام، وربما قصد الرسول ﷺ أن يهــدئ من حدة شوقه إلى مكة، وأن يخفف من الصراع النفسى لدى المسلمين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم بغير حق وبقى بيت المقدس قبلــة للمسلمين ستة عشر أو سبعة عشر شهرا إلى أن نزلت الآية الكريمــة التى استجاب الله فيها لرغبة الرسول ودعائه، وكان الأولى لليهود بعد أن اتخذ الرسول ذلك الموقف من جانبه أن يلينوا له، وأن يكفوا عــن معاداته ، ولكنهم نشطوا فى غيهم، وتحركت ألسنتهم بالســوء قــائلين: "يخالفنا محمد ويتبع قبلتنا" وجاءت إليه ذات يوم جماعة منهم قاصدين فتنته عن دينه، وقالوا له: يا محمد ما ولاك عن قبلتك التى كنت عليها،

---

(١) الشورى ١٣ .

وأنت تزعم انك على ملة إبراهيم ودينه؟ ارجع إلى قبلتك التـــى كنــت عليها نتبعك ونصدقك ، والله يعلم أنهم لكاذبون، فنزل قول الله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (١).

وعلى ذلك فقوله تعالى:﴿ قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ﴾ هى الكعبـــة، والسفهاء جمع سفيه، وهو الخفيــف العقــل، وقولـــه:﴿ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ تخصيص؛ لأن السفه يكون فى جمادات وحيوانات، وقيل إن السفيه هو البهات الكذاب المتعمد خلاف ما يعلم، والمراد بهم هنا أحبار اليهــود، أو مشركو العرب والمنافقون بالمدينة، وقيل: كل هؤلاء.

وقيل إن المراد مـــن قولـــه : ﴿ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ﴾ قبلة بيت المقدس ، وأن الله أخبر عن ذلك قبل وقوعه إظهارا للمعجزة، ولذلك قال تعالى : ﴿ **سيقول** ﴾ أو أن أية التحويل مقدمـــة فـــى النزول على الآية السابقة والتى تليها .

ولقد استجاب الله لتوجهات نبيه ورغباته التى دعا فيها أن يوجهه ربه إلى الكعبة، فنزل قـــول الله تعـــالى : ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ

---

(١) البقرة ١٤٢ .

وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ [1] ٠

لقد كان تحويل القبلة أولا من الكعبة إلى بيت المقدس لحكمة تربوية وهى تخليص نفوس المسلمين من شدة لهفتهم على الماضى، وارتباطهم بمكة، ولتأكيد مدى التقارب بين الرسالات السماوية فى القواعد الأساسية والمبادئ العامة٠

ثم كان التحول الثانى إلى البيت الحرام تأكيدا على ميراث الإسلام لديانة سيدنا إبراهيم إلى غير ذلك من الأسرار٠

وفرح الرسول والمؤمنون بهذا النصر الذى أعادهم إلى الكعبة، وكان أمرا إلهيا لم يهنأ به اليهود والمنافقون والمشركون، وهم السفهاء من الناس، وعلى ذلك فآية التحويل السابقة مقدمة ـ بهذا الرأى ـ على الآيتين التاليتين فى النزول ، قال تعالى: ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ

---

(١) البقرة ١٤٤ ٠

عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١).

وتلى هاتين الآيتين الآية الأولى فى التوجه إلى الكعبة، وبعد عدة آيات تأتى آيتان أخريان حول الموضوع نفسه، وهما قول الله تبــارك وتعــالى: ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (٢).

٣ ـ الصلاة الأولى :

لم يتفق رواة الأحاديث النبوية على الصلاة الأولى التى صــلاها الرسول وأصحابه متجهين فيها إلى الكعبة المشرفة ــ بعد التحول عن بيت المقدس وهم بالمدينة ــ فقيل إنها صلاة العصر حيــث صــلاها الرسول كاملة إلى البيت الحرام، وصلى معه قوم، وخرج رجل ممــن كانوا صلوا معه، فمر على أهل المسجد وهم راكعون، وأخبرهم بأنــه

(١) البقرة ١٤٢، ١٤٣ .
(٢) البقرة ١٤٩، ١٥٠ .

صلى مع النبى ﷺ قبل مكة، فاتجهوا إلى البيت الحرام، وهذا ما جـاء فى رواية البراء بن عازب ؓ ، قال : "كان رسول الله ﷺ صلى نحو بيت المقدس ستة عشر او سبعة عشر شهرا وكان رسول الله ﷺ يحب أن يوجه إلى الكعبة، فأنزل الله : ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ فتوجه نحو الكعبة، وقال السفهاء من الناس وهم اليهود: ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها، قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء على صراط مستقيم، فصلى مع النبى ﷺ رجل، ثم خرج بعدما صلى ، فمر على قوم من الأنصار فى صلاة العصر نحو بيت المقدس فقال: هـو يشهد أنه صلى مع رسول الله ﷺ ، وأنه توجه نحو الكعبـة، فتحـرف القوم حتى توجهوا نحو الكعبة"(١).

ووصل خبر تحويل القبلة إلى المسلمين بقباء فى اليوم التالى، كما جاء فى الصحيحين عن ابن عمر، قال : "بينا الناس بقباء فى صـلاة الصبح إذ جاءهم آت ، فقال : إن رسول الله ﷺ قد أنزل عليـه الليلـة قرآن، وقد أمر أن يستقبل الكعبة، فاستقبلوها، وكانت وجـوههم إلـى الشام، فاستداروا إلى الكعبة"(٢).

وفى رواية للنسائى عن سعيد بن المعلى أن أول صلاة صـليت إلى الكعبة كانت الظهر، وكان الرسول ﷺ قد صلى ركعتين منه فـى مسجد بنى سلمة، ولذلك سمى بمسجد القبلتين، وتحول فـى الصـلاة،

---

(١) رواه البخارى ومسلم واللفظ للبخارى ٠

(٢) متفق عليه ٠

واستقبل الميزاب، وحول الرجال مكان النساء، والنساء مكان الرجال، وذكر ذلك غير واحد من المفسرين.

وجاء فى الطبقات الكبرى لابن سعد أن صلاة الظهر التى حولت فيها الصلاة كانت يوم الثلاثاء فى النصف من شعبان من السنة الثانية من الهجرة وهذا هو الأرجح من حيث التاريخ، غير أن الأرجح بالنسبة للصلاة أنها كانت العصر، وقيل إن التحول كان فى رجب قبل قتال بدر بشهرين.

كما روى ما يؤكد أنها الصبح ، فعن أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ كان يصلى نحو بيت المقدس، فنزلت: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ﴾ فمر رجل من بنى سلمة، وهم ركوع فى صلاة الفجر، وقد صلوا ركعة، فنادى ألا أن القبلة قد حولت، فمالوا كما هم نحو القبلة"[١].

وصفوة القول: أن الرسول ﷺ قد اتجه فى صلاته والمسلمون معه إلى بيت المقدس ستة عشر شهرا أو سبعة عشر شهرا، إلى أن حولت القبلة فى منتصف شعبان من السنة الثانية من الهجرة إلى الكعبة المشرفة.

٤- وحدة الأمة :

لقد كان هذا التحول بمثابة تكليف للأمة المحمدية واستقلال وتمييز لها، وتسليم لله تعالى بحيث يفعل العباد ما يؤمرون به، وينتهون

---

(١) رواه أحمد ومسلم وأبو داود .

عما أمروا باجتنابه، وتنبيه للمسلمين إلى أهمية الارتباط بالأمر الإلهى، وليس بالمتعارف عليه، وتوحيد للمشاعر والقلوب.

إن التوجه إلى الكعبة يحقق للمسلمين التميـز والتوحـد بحيـث تتلاقى قلوبهم على رمز واحد ، وعلى نقطة واحدة، كما أن اخـتلاف المواقيت على سطح الأرض يجعل التوجه إلى الكعبة ذا طابع معـين، ويؤكد استمرار ذلك إذ أنه فى كل لحظة يوجد مؤمنون متوجهون إلـى بيت الله الحرام الذى جعله الله مثابة للناس وأمنا، فاتجاه المسلمين إلى قبلة واحدة تعبير عن وحدة الأمة، فى كل أحوال الصلاة، ومن أهمهـا التوجه إلى مكان واحد، ولذلك يحرص المسلم فى صلاته على تحـرى القبلة؛ ليستقبلها، ويتوجه إليها فى أى منزل يكون فيه، خاصة أنه قـد ثبت بطرق علمية مختلفة أن مكة هى وسط الأرض، وفيها الكعبة التى يتجه المسلمون إليها فى الصلاة من شتى بقاع الأرض، واتفاقـا مـع وسطية الإسلام فيما يختص بالتعاليم الإلهية.

فالتحول إلى الكعبة توحيد للمشاعر والقلوب، وصقل للشخصـية الإسلامية، وتقديس لجوهر العلاقة بين الأديان السماوية، وبرهان أكيد على التقارب بين بيوت الله فى الأرض، ولقد قال الله تعالى فى حـق من مات وهو يتجه فى صلاته إلى بيت المقدس، ومن لم يبلغه العلـم بالتحول إلى الكعبة حتى صلاة الفجـر، قـال فـيهم : ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [1].

---

(١) البقرة ١٤٣ .

لقد كان التحول نصرا للمؤمنين، واختبارا وامتحانا لقوة إيمـــانهم وشدة عزيمتهم فلم ييأسوا من نصر الله أثناء تلك المـــدة التـــى كـــانوا يصلون فيها إلى بيت المقدس، وكان اليهود قد استغلوا تلـــك المناســـبة استغلالا سيئا، وأخذوا يتحدثون إلى الرسول والمسلمين بما لا يليق ولا يحسن مع أن المدة المذكورة كانت كافية لكى تلين قلوبهم، ويســـلموا، ولكنهم ظنوا أن الرسول ضعيف فى موطنه الجديـــد ، غريـــب بـــين الانصار والمهاجرين ، وتجلى خزيهم وفجورهم ، وانكشـــف للنـــاس باطلهم وضلالهم.

والاتجاه إلى بيت المقدس أو إلى الكعبة ليس إلا وسيلة تتجمع من خلالها صفوف الملايين من المصلين على وجهة حسية واحدة فتلتقـــى عندها الأبصار لترتقى بعدها الأفئدة والبصائر.

وإذا كان الإسراء والمعراج قد وحد بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى، فإن اتجاه المسلمين إلى بيت المقدس، ثم إلى البيت الحـــرام بمكة يؤكد هذا التوحد، ويكشف أن التوجه إلى بيت المقدس أو الكعبـــة ما هو إلا وسيلة لتمجيد الكلمة الإلهية التى ترتفع مع كل صلاة، وتأكيد لمدى التقارب وعمق الترابط بين أقـــدم مســـجدين لله تعـــالى علـــى الأرض.

حكم الاحتفال بليلة النصف من شعبان:

وردت عدة أحاديث نبوية فى إحياء ليلة النصف من شعبان منها ما روته السيدة عائشة رضى الله عنها قالت: قال رســـول الله ﷺ : "إن

الله تبارك وتعالى ينزل إلى سماء الدنيا ليلة النصف من شعبان فيغفر لأكثر من شعر غنم بنى كلب"[١].

ومنها: "إن الله ليطلع ليلة النصف من شعبان، فيغفر لجميع خلقه إلا لمشرك أو مشاحن"[٢].

ومنها: "إذا كانت ليلة النصف من شعبان فقوموا ليلها، وصوموا نهارها، فإن الله عزوجل ينزل فيها لغروب الشمس إلى السماء الدنيا، فيقول: ألا من مستغفر فأغفر له، ألا من مسترزق فارزقه، ألا من تائب فأتوب عليه ألا من كذا، ألا من كذا حتى يطلع الفجر"[٣].

وروى عن عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ بعد أن فرغ من صلاته : "هذه ليلة النصف من شعبان، يغفر الله للمستغفرين، ويرحم المسترحمين، ويؤخر أهل الحقد على حقدهم".[٤]

وأمام هذه الأحاديث اختلف العلماء فى حكم إحياء هذه الليلة بالقيام والعبادة والذكر بصورة مميزة لها على رأيين:

الأول: إن إحياء هذه الليلة والاحتفال بها بصورة أو بأخرى يعد بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة فى النار، والأحاديث الواردة فى شأن الاحتفال بها ضعيفة كلها، كما أنه من المعلوم أن الأحاديث الضعيفة يعمل بها فى العبادات التى قد ثبت أصلها بأدلة صحيحة، أما الاحتفال بليلة النصف من شعبان فليس له أصل صحيح حتى يستأنس له بالأحاديث الضعيفة[٥].

---

(١) رواه أحمد والترمذى .
(٢) رواه أحمد فى مسنده مرسلا .
(٣) رواه ابن ماجة.
(٤) البيهقى.
(٥) يراجع كتاب التحذير من البدع للشيخ عبدالله بن بار صـ١٢ .

وأصحاب هذا الرأى يرفضون كل الصلوات المبتدعة التى يصليها جماعات من المسلمين فى ليلة النصف، ويرفضون كل الأدعية التى تخالف الشرع، والتى يرددها بعض الناس فى تلك الليلة، ولا يقرون الاجتماع لشيء من ذلك.

الثانى: إن إحياء هذه الليلة مطلوب استئناسا بهذه الأحاديث الضعيفة التى يؤخذ بها فى صالح الأعمال، خاصة إذا كان ما فيها لا يعارض أصلا من أصول الدين، ولا نصا ثابتا، فإذا أضيف إلى ذلك أن إحياء الليلة بهذه الصورة يدخل فى نطاق الحث العام على نوافل العبادات مثل صلاة النافلة، وفعل البر، والإكثار من أدعية الرسول وعليه صار العمل بالحديث الضعيف راجحا ومرغوبا فيه.

وأصحاب هذا الرأى من العلماء كثيرون – خاصة فى مصر – وهم يقتصرون فى حديثهم عن هذه الليلة بالقول على إحيائها بالذكر وقراءة القرآن، ولا يقرون ما يفعله بعض الناس من الاجتماع فى المساجد، وترديد الدعاء الذى ارتبط بهذه الليلة؛ لأنه لم يرد عن الرسول، ولا يخصونها بصلاة معينة.

ويؤكد بعض العلماء جواز الاحتفال بليلة النصف، وذلك بقراءة القرآن والذكر والدعاء؛ لأن فضل هذه الليلة ثابت فى السنة النبوية من خلال الأحاديث الصحيحة.

والرأى: أنه من الأفضل والأجدى هو التمسك بكتاب الله ، وبالصحيح من كلام رسول الله، ولا ينبغى أن تخصص ليلة النصف بفضل أو مزية عن غيرها من الليالى ، وللمؤمن أن يواظب على

الصلاة والعبادة والذكر وقراءة القرآن فى هذه الليلــة وغيرهــا مــن الليالى، ولا داعى إطلاقا لإحداث أشياء لم تكن على عهد رسول الله ، ولم يقم بها صحابته الأجلاء، وقد جاء فى الصــحيحين عــن عائشــة رضى الله عنها عن النبى ﷺ : "من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منــه فهو رد" ٠

وفى صحيح مسلم عن جابر ﷺ أن النبى ﷺ كان يقول فى خطبة الجمعة : "أما بعد فإن خير الحديث كتاب الله، وخيــر الهــدى هــدى رسول الله وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة"٠

ومن الواجب أن يتدارس المسلمون فى هــذا الشــهر الــدروس المستفادة من تحويل القبلة، وأن يكثروا من الصيام فيــه خاصــة فــى نصفه الأول ، وأن ينهضوا بصيام أيام القضاء الواجبة، وأن يــرددوا أدعية الرسول، وأن يقبلوا على الله تعالى بنية صادقة وقلوب صــافية.

ومما روى عن الرسول ﷺ دعاؤه:

"اللهم إنى أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى" ٠

"اللهم آت نفسى تقواها ... أنت خير مــن زكاهــا أنــت وليهــا ومولاها"٠

"اللهم إنى أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشــع، ومــن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها" والله يقول الحق وهو يهــدى إلى سواء السبيل ٠

استقبال شهر رمضان(*)

تهفو نفوس المؤمنين لاستقبال الهلال الذى يطل على الأمة، فيبدد ظلام اليأس، ويمحو أثر الغفلة، ويرقق القلوب لصيام هذا الشهر الكريم، وتعم الفرحة، وينتشر السرور ، فيهرع الناس إلى المساجد للصلاة والذكر، وقراءة القرآن، وسماع أحاديث الوعظ والإرشاد.

والصوم من أكثر العبادات التى تدعم الجانب الروحى فى الإنسان، فهو يكسر حدة الشهوة؛ للامتناع عن الطعام والشراب وسائر الملذات من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، كما ينمى فى الإنسان خلق الأمانة والكرم والجود والإحسان ، فأثر الصوم إما شخصى ويتمثل فى الصبر والتحمل والشجاعة، وإما اجتماعى، ويظهر فى الرحمة والعطف والمروءة والمواساة بكل أنواع البر والخير والإحسان.

وهو فى معناه العام فريضة دينية وعبادة إسلامية ينتصر فيها الإنسان على نفسه بكل ما ترغبه من ملذات وشهوات ، وهو فى معناه الحقيقى محاولة لقهر هذه الرغبة واتجاهاتها المختلفة كالأثرة والأنانية والاستنامة إلى الخمول ، والتواكل ، والنظر بعين الكراهية لما فى أيدى الناس .

والصوم نعمة عظيمة،وروحانية متميزة، وبركة شاملة للأجسام والأرواح والأفكار ، وإلجام للنفس عن التردى المستمر طوال السنة فى الدواهى السيئة، والتى يقع فيها كثير من الغافلين.

(*) نشر بعضه فى جريدة عقيدتى بتاريخ ٥/١٢/٢٠٠٠م.

وقد جاء حديث القرآن الكريم عن الصوم حديثا شاملا لكافة حالاته، كالصوم الواجب، وصوم الكفارة والنذر والنافلة، وصوم التطوع، واختص صوم رمضان ببعض الخصائص، فهو ركن من أركان الإسلام، فرض صيامه ، كما فرض الصوم على الأمم السابقة٠

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [١]، وقال الرسولﷺ : "بنى الإسلام على خمس ، شهادة أن لا إله إلا الله،وأن محمدا رسول الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا"[٢].

والصوم فى الشرع ــ كما ذكر القرطبى ــ : "الإمساك عن المفطرات مع اقتران النية به من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، وكماله وتمامه باجتناب المحظورات وعدم الوقوع فى المحرمات"٠

فعن أبىهريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : "من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه"[٣].

وقد فرض صيام شهر رمضان فى شعبان من السنة الثانية الهجرية، وأن الأمم السابقة قد فرض عليها صيام أيام معدودة،بكيفية لا

---

(١) البقرة ١٨٣ ٠
(٢) البخارى ومسلم ٠
(٣) البخارى ٠

يعلمها إلا الله، ولم يلتزموا بما أمروا به، ونزل القرآن، وبه آيات الصيام التى حددت معالمه وأحكامه.

وفضل الصوم عظيم، وثوابه كبير، وهو عبادة وأمانة وفريضة تكاد تخلو من الرياء والتظاهر، وهو سر بين العبد وربه، كما جاء فى الحديث القدسى الذى رواه أبوهريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : "قال الله عزوجل كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لى، وأنا أجزى به، والصيام جنة، فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب، فإن سابه أحد أو قاتله، فليقل: إنى صائم، والذى نفس محمد بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، للصائم فرحتان يفرحهما : إذا أفطر فرح، وإذا لقى ربه فرح بصومه"(١).

ومعنى لا يرفث: لا يتكلم بالكلام الفاحش، ومعنى لا يصخب: لا يكثر لغطه ، ومعنى سابه: نازعه، وخلوف الفم: تغير رائحته بسبب الصوم.

وللصوم فى شهر رمضان مذاق خاص ، حيث يعود بعد أحد عشر شهرا محملا بالخيرات والنفحات والذكريات الطيبة، ولذا ينبغى أن يستعد المسلمون له استعدادا يتفق مع منزلته، وأن يستقبلوه استقبالا يتناسب مع عظمته، ومع جلال هذه الفريضة التى تهل علينا مرة واحدة كل عام، ومن أهم ما يجب أن يحرص عليه المسلمون فى احتفالهم به واستقبالهم له ما يأتى :

---

(١) متفق عليه، واللفظ كما جاء فى البخارى.

١ـ **التوبـة**، وهى الإقرار بالذنب، والعزم على عدم العودة إليــه، ورد المظالم إلى أصحابها، وتتجلى روعة التوبة فى هذا الشهر؛ لما به من صفاء نفسى وإذعان لله تعالى ، وإخلاص فى النية ، قال تعــالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١) .

وفى وسط آيات الصوم بسورة البقرة قــال الله تعــالى : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ (٢) .

وروى أن أعرابيا جاء إلى النبى ﷺ ، فقال: أقريب ربنا فنناجيه، أم بعيد فنناديه؟ فسكت عنه، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

٢ـ **عمل الطاعـات**. وأفعال الطاعة كثيرة، وهــى تناســب شــهر الصوم، وكان الرسول ﷺ يستعد له بالإكثار من أعمال البر، وقد روى عن سلمان الفارسى ، قال: خطبنا رسول الله ﷺ فى آخــر يــوم مــن

---

(١) التحريم / ٨ .
(٢) البقرة ١٨٦ .

شعبان؛ فقال: يا أيها الناس قد أظلكم شهر عظيم مبارك، شهر فيه ليلة خير من ألف شهر ، جعل الله صيامه فريضة، وقيام ليله تطوعا، من تقرب فيه بخصلة من الخير كان كمن أدى فريضة فيما سواه، ومن أدى فريضة فيه كان كمن أدى سبعين فريضة فيما سواه، وهو شهر الصبر ، والصبر ثوابه الجنة، وشهر المواساة، وشهر يزداد فيه رزق المؤمن، من فطر فيه صائما كان له مغفرة لذنوبه، وعتق رقبته من النار، وكان له مثل أجره من غير أن ينتقص من أجره شيء.

قلنا: يا رسول الله لسنا كلنا نجد ما يفطر الصائم؟ فقال رسول الله ﷺ : يعطى الله هذا الثواب من فطر صائما على مزقة لبن، أو تمرة، أو شربة ماء، ومن أشبع صائما سقاه الله من حوضى شربة لا يظمأ حتى يدخل الجنة، وهو شهر أوله رحمه وأوسطه مغفرة، وآخره عتق من النار، من خفف عن مملوكه فيه غفر له، وأعتق من النار، فاستكثروا فيه من أربع خصال: خصلتان ترضون بهما ربكم، وخصلتان لا غنى بكم عنهما، فأما الخصلتان اللتان ترضون بهما ربكم فشهادة أن لا إله إلا الله وتستغفرونه، وأما اللتان لا غنى بكم عنهما، فتسألون الله الجنة، وتعوذون به من النار "[١].

ورمضان شهر العمل والكفاح، والسعى على المعيشة، وقراءة القرآن، ومدارسة حديث رسول الله ، وإحياء الليالى بالقيام والدعاء، والإحسان إلى الفقراء والمساكين، ورعاية المحتاجين الذين وقع عليهم

---

(١) رواه ابن خزيمة فى صحيحه .

ضرر فى أموالهم وأنفسهم، والصلح بين الناس ، وصلة الأرحام، وصلاة التراويح، وإخراج الزكاة ودفع الصدقات، والاعتكاف فى المسجد، والاستمتاع بالطيبات المباحة، والابتعاد عن الحسد والبغض والغيبة والنميمة، واجتناب الكسل والخمول، وغض البصر عن المحرمات، والاعتمار فى هذا الشهر الكريم فقد ورد : "أن عمرة فى رمضان تقضى (أى تعدل) حجة"[١] وهى تعدل الحجة فى الثواب ، لكنها لا تسقط فريضة الحج عن الإنسان، ولابد أن يكون السلوك عامرا بالتقوى والإيمان خالصا لوجه الله تعالى، مجردا من الزيف، خاليا من الرياء؛ إذ أن هذه الفريضة تطهر صاحبها بالنهار؛ كى تعده لاستقبال هدايات القرآن فى قيام الليل وصلاة التهجد.

٣ـ **الصوم مدرسة للصبر**، وسيطرة على الغرائز، وله تأثير كبير فى نفوس المؤمنين الصادقين؛ لأنهم يتعرفون فيه على مقدار ضعفهم ، ومدى تصديهم لشهوات النفس، وملذات الطعام، وهو آية على الزهد والقناعة والرضا بما يحفظ الجسم، ويروض الروح، ويسمو بالنفس إلى منزلة عالية رفيعة .

والصائم الحريص على صيامه يعيش ويحيا فى وصال دائم بالله تعالى؛ ولذلك لا تقوى عليه شياطين الإنس ولا شياطين الجن؛ لأنها قد صفدت فى هذا الشهر، ولم يكن لها سبيل على المؤمن الورع الذى يبتغى بصيامه القرب من الله عزوجل، فعن أبىهريرة ﷺ ، عن النبى

---

(١) رواه مسلم .

ﷺ قال: "من صام رمضان إيمانا واحتسابا ، غفر له مـا تقـدم مـن ذنبه"[١]، وعنه ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : "إذا جاء رمضـان فتحـت أبواب الجنة، وغلقت أبواب النار،وصفدت الشياطين"[٢].

٤ـ دعوة الأبناء للصيام وتعويدهم عليه:

إن شهر رمضان يبعث فى الأسرة كل معانى الالتزام والتـرابط، والمودة والتسامح، والحرص على العلاقات الحميدة، وزيارة الأقارب، وصلة الرحم،كما أن تعويد الأبناء على الصوم منذ الصغر يقوى فـيهم ملكة الثقة بالنفس، والابتعاد عن السوء، والسمو والتطلع إلى أفعال البر والخير ،ويحسن توجيههم إلى الصلاة منذ الصغر ومـن الأفضـل أن تستثمر فرحتهم بهذا الشهر فيصحبهم الكبار إلى المسـاجد للصـلاة، وقراءة القرآن، والاستماع إلى الأحاديث الدينية، ولابد أن يكون ولـى الأمر قدوة طيبة فى الأفعال والأقوال.

إن كثيرا من الناس يسيئون إلى عبادة الصوم بإسرافهم فى الطعام والشراب واللهو، ويقضون جزءا كبيرا من النهار فى النوم والانقطاع عن العمل، وهذا ليس من آداب الصوم ولا من أخلاق الإسـلام التـى يجب أن نلتزم بها، وأن نحرص عليها، والله ولى التوفيق.

---

(١) متفق عليه .
(٢) متفق عليه .

من آداب الصيام

يفهم بعض الناس أن المقصود من الصيام هو الامتناع عن تناول الطعام والشراب، لكنهم لا يتورعون عن السب والشتم والإساءة إلى الآخرين أو يجاهرون بالأكل نهارا، أو يدخنون السجائر علانية دون مراعاة لمشاعر الآخرين، أو يتطاولون بالكلام القبيح والنظر السيىء إلى النساء، وتكون هذه المناظر والسلوكيات موضع ضيق واشمئزاز من الصائمين الذين يحرصون ـ فى شهر رمضان ـ على التوبة الصادقة، والعمل الصالح ، وفعل الخير .

إن الصيام ليس تسلطا أو حرمانا من متع الحياة، وإنما هو أمر إلهى للانتصار على النفس، وتربية سلوكية سامية، ودعوة أخلاقية لقهر النزعات والغرائز والشهوات كالأثرة والأنانية، وحب الذات والميل إلى الكسل والخمول والاعتماد على الآخرين، وإذا جاءت المناسبة، وعجز الشخص عن الصمود فيها، واستسلم لهواه فإنه يستحق المقاطعة من المسلمين؛ لتكون لونا من ألوان تغيير المنكر، ورفضا جماعيا لكل من لا يرعى حرمةالصيام.

لقد تحدث القرآن الكريم عن الصيام حديثا مباشرا ، فقال تعالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ (١) .

---

(١) البقرة ١٨٣ .

وأفادت الآية أنه كان مفروضا على الأمم السابقة ، وأشارت إلى الحكمة من الصيام، وهى التقوى التــى ينبغــى أن يحــرص عليهــا المؤمنون الذين توجه النداء إليهم، كما يتحتم عليهم أيضا الحفاظ علــى آداب الصيام، والتمسك بها، والدعوة إليها بالحكمة والموعظة الحسنة؛ حتى تتحقق المغفرة، والرحمة والعتق من النار، ومن هذه الآداب:

١ـ ضبط اللسان، وصيانته عن الكذب والغيبة والنميمة:

فيجب على الصائم أن يتحلى بــالآداب الإســلامية ،وأن يتخلــق بأخلاق القرآن ، فيضبط لسانه عن الصخب والكذب، وأن يبتعد عــن الغيبة والنميمة، وأن يتجنب السخرية من الآخرين،قــال تعــالى: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [١].

وعن أبى هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : "من لم يدع قــول الزور والعمل به، فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه"[٢].

والمراد من قول الزور: الكذب والجهل والسفه ٠

ومعنى: فليس لله حاجة أى إرادة فى صيامه، وهو كناية عن عدم قبول الصيام؛ لأن المقصود منه هو الإمساك عن جميــع المخالفــات والمحرمات٠

---

(١) ق ١٨ ٠
(٢) البخارى ٠

ومن الواجب أن يتحاشى الصائم مبطلات الصوم؛ حتى يظفر برضا الله، وثوابه العظيم.

والصوم سر بين المؤمن وربه ، وعبادة يتضاءل الرياء فيها، ودعوة إلى وحدة الأمة وتماسكها والتزامها فى الإمساك عن الطعام والإقبال عليه .

٢ ـ غض البصر وكفه عن المحارم، والامتناع عن كل ما يشغل القلب ويلهى عن ذكر الله :

إن من تمام الصيام أن يعود المسلم إلى نفسه، ويراجعها، ولا يرضى لها إلا ما يرضى الله تبارك وتعالى عنه، فلا يتلصص النظر إلى الآخرين، ولا يقتحم خلوات الناس بالنظرات السامة، ولا يفعل أمرا مثيرا وملفتا للأنظار، وبخاصة فى هذا الشهر الذى ينبغى أن يكون الشخص فيه نموذجا ومثاليا فى عباداته وعلاقته بالناس ، قال تعالى : ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ...﴾[١].

ولابد أن تحرص المرأة المسلمة على تمام صيامها فلا تتبرج ولا تتحدث بما لا يليق، وعليها أن تتقى الله وتحافظ على وقارها وهيئتها، وأن تكون قدوة طيبة لأبنائها، وأن تؤدى عملها بأمانة وإتقان، وأن تعتدل فى الإنفاق والترويح، وأن تقبل على الصلاة بخشوع وإيمان.

---

(١) النور ٣٠، ٣١ .

ومن تمام الصيام أن يصوم المسلم بقلبه ومشاعره وحواسه فلا يحقد أو يحسد، أو يخاصم أحدا، ولا يتجسس أو يتعقب عورات الناس، وينبغى أن يعيش حياة عامرة بالصفاء والنقاء، وأن يتجرد من سطوة الشهوات والغرائز ٠

وأن يحرص على الاتصال الإيمانى الدائم بالله تعالى، وأن يتوقف عن الجدال والمخاصمة، والتسرع والعجلة فى كثير من الأمور التى تتطلب اعتدالا وتبصرا، وأن يتمسك بكتاب الله، وأن يطهر نفسه من نوازع الشر وضلالات الشيطان٠

وقد ذكر أبوحامد الغزالى أن للصوم ثلاث درجات ، أولها: صوم العوام، وهو كف البطن والفرج عن الشهوات، وثانيها: صوم الخواص وهم الصالحون حيث يلزم كف الجوارح عن الآثام، ولا يتم ذلك إلا بمداومة خمسة أشياء وهى :غض البصر، وحفظ اللسان، وكف الأذى، وكف جميع الأعضاء عن المكاره، وألا يستكثر من الحلال وقت الإفطار ٠

وثالثها: صوم خواص الخواص، وهو صوم القلب عن الهمم الدنية، والأفكار الدنيوية، وكفه عما سوى الله بالكلية٠

٣- تجنب الإسراف:

ينتهز كثير من الناس مناسبة شهر الصوم فيبالغون فى الأطعمة والأشربة، ويسرفون فى العبث واللهو، ويستدينون من غيرهم لشراء الملابس الغالية التى تفوق بأسعارها الكبيرة قدراتهم المحدودة،

ويوازنون أنفسهم بغيرهم ممن يملكون أكبر منهم، ويغفلون عن أهداف الصوم التى ليس من بينها الوقوع فى شراك الإسرافات الممقوتة،لكن ليس معنى ذلك أن الإسلام يحرم التمتع بالطيبات والأشياء الجميلة،والأطعمة المفيدة فقد أباح ما تهفو إليه النفس ولا يضر الجسم، ولا يشغل عن العمل أو يلهى عن العبادة، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴾ [١].

وقال تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [٢].

وقد بات واضحا للكثيرين خطورة الإسراف فى الطعام والشراب من الناحيتين الصحية والروحية، قال رسول الله ﷺ : "ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه،بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإن كان ــ ولا محالة ــ فاعلا فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه"[٣].

---

(١) المائدة ٨٧ ، ٨٨ .
(٢) الأعراف ٣١، ٣٢ .
(٣) رواه أحمد والترمذى .

٤ـ الإكثار من فعل الخير :

إن شهر رمضان موسم للعبادة، ومناسبة إيمانية جليلة، وفرصة عظيمة لإصلاح النفس ، وقهر أنانيتها، حتى لا يلحقها غرور خادع، وصلف دنيىء، فرمضان شهر تعود فيه النفس المطمئنة إلى ربها بالإحسان إلى الفقراء ، والتصدق على المحتاجين، ومواساة المكروبين، والعطف على الأيتام والإسهام فى عمل الخير، حتى يكون الصيام قوة دافعة للفرد نحو خدمة الدين والوطن .

إن قراءة القرآن من أبرز ملامح هذا الشهر ، لكن لابد أن يحرص الصائمون على العمل بما فى هذا الكتاب الكريم للدين والدنيا من صلاة وزكاة، وإنفاق، ومن سعى شريف على الرزق بلا تراخ وكسل وتواكل، مع الاعتماد على الله والالتزام بالصبر الجميل وكبح الشهوات، وتهذيب السلوك، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾ (١) ومن الواجب أن يحرص كل أفراد الأسرة، وسائر أعضاء المجتمع على الالتزام بهذه الآداب الفاضلة وبخاصة المرأة؛ لأنها قدوة لأبنائها وبناتها، وعون لزوجها وولى أمرها فى النهوض بالرسالة الإيمانية فى هذا الشهر الفضيل.

٥ـ تعجيل الفطر وتأخير السحور:

إن الهدف من السنة فى تعجيل الفطر وتأخير السحور هو التقليل من إحساس الصائم بالجوع ؛ حتى لا يكون الصوم سببا فى الضيق

(١) العنكبوت ٦٩ .

والكراهية، فإن شهوة البطن كانت سببا فى إخـراج آدم وحـواء مـن الجنة، وإن الرغبة فى الطعام تؤثر فى تصرفات الشخص فـلا يـنعم بالهدوء وحسن التفكير، كما أن الجوع ضرب من الابتلاء الذى تختبر فيه إرادة الإنسان، ويقاسى بـه اسـتعداده لقهـر غرائـزه ومقاومـة شهواته،قال الله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [١].

وكان الجوع ــ ولا زال ــ هما كبيرا يشغل الإنسان، ومن فضل الله على قريش أن بعث فيهم رسولا من أنفسهم، وأمـن حيـاتهم مـن الجوع والخوف، فقال تعـالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ [٢].

ونأتى إلى هدى رسولنا الكريم ﷺ مما رواه سهل بن سعد ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : "لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر"[٣] وزيد فى رواية أبىذر "... وأخروا السحور"[٤] فإن التبكير بـالفطر والتـأخير بالسحور فيه رفق بالصائم ، وعون وقوة لـه علـى العبـادة، ثـم إن السحور من سنة رسول الله ﷺ ، فعن أنس ﷺ ، قال : قال رسول الله ﷺ : "تسحروا فإن فى السحور بركة"[٥].

---

(١) البقرة ١٥٥ ٠
(٢) قريش ٤ ٠
(٣) متفق عليه ٠
(٤) أخرجه أحمد٠
(٥) متفق عليه ٠

قال ابن حجر فى شرحه لصحيح البخارى : "والأولى أن البركة فى السحور تحصل بجهات متعددة ،وهى اتباع السنة، ومخالفة أهل الكتاب، والتقوى به على العبادة، والزيادة فى النشاط، ومدافعة سوء الخلق الذى يثيره الجوع، والتسبب بالصدقة على من يسأل إذ ذاك، أو يجتمع معه على الأكل، والتسبب للذكر والدعاء وقت مظنة الإجابة، وتدارك نية الصوم لمن أغفلها قبل أن ينام"[١].

ومن السنة أيضا أن يكون الإفطار على رطب أو تمر أو ماء، فعن أنس ﷺ ، قال : "كان رسول الله ﷺ يفطر على رطبات قبل أن يصلى، فإن لم تكن رطبات فعلى تمرات، فإن لم تكن حسا حسوات من الماء"[٢].

وروى أصحاب السنن عن سلمان بن عامر ﷺ ، عن النبى ﷺ قال : "إذا أفطر أحدكم فليفطر على تمر فإنه بركة ، فمن لم يجد فليفطر على ماء فإنه طهور" ، ويكون تناول التمر أو الماء قبل صلاة المغرب، ثم يؤدى الصلاة، ويستكمل الإفطار بعدها،ولعل هذا الإفطار هو المقصود من العشاء فى الحديث الذى رواه البخارى ومسلم عن أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : "إذا قدم العشاء فابدؤوا به قبل صلاة المغرب، ولا تعجلوا عن عشائكم".

أما فيما يتصل بالدعاء عند الإفطار فقد روى أبوداود والنسائى عن ابن عمر رضى الله عنهما، قال: "وكان النبى ﷺ إذا أفطر قال:

---

(١) جـ ٤ صـ ١٦٦ .
(٢) رواه أبو داود والترمذى .

"ذهب الظمأ، وابتلت العروق، وثبت الأجر إن شاء الله" وفى رواية أنه كان يقول: "اللهم لك صمت، وعلى رزقك أفطرت" وإذا أفطر المسلم عنده غيره فليقتد بالرسول فى دعائه الذى رواه ابن ماجة عن عبدالله ابن الزبير رضى الله عنهما قال: أفطر رسول الله ـ ﷺ ـ عند سعد ابن معاذ ، فقال : "أفطر عندكم الصائمون، وأكل طعامكم الأبرار، وصلت عليكم الملائكة" .

فالصوم عبادة خالصة لله تعالى تعود بفوائد عظيمة على الصائم نفسه، وتشيع المودة والمحبة فيما بينه وبين من يفطر عندهم أو يفطرون عنده، فضلا عما تنشره من روحانية وفرح وبهجة عند الاجتماع على الإفطار مع الآخرين وعند مراجعة الصائم لعلاقته بربه، وسعادته بإتمام صومه.

٦ ـ ضرورة العمل وترك الكسل :

ينتهز بعض الناس مناسبة الصوم فى شهر رمضان فيركنون إلى الكسل، ويتقاعدون عن العمل بحجة أنهم صائمون، ويقضون كل أوقاتهم فى العبادة، وليس ذلك مطابقا تماما لمنهاج الإسلام الذى يحض على السعى وبذل الجهد، ويحذر من الإهمال والتراخى، ولا يغفل أيضا عن العبادة وحسن الإقبال على الله، قال عليه الصلاة والسلام : "ما من مسلم يغرس غرسا أو يزرع زرعا، فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة"[1].

---

(١) البخارى ومسلم.

على أن تخصيص الزراعة هنا ليس مقصودا لذاته، وإنما يشمل السعى الجاد لكل عمل شريف يدر ربحا ودخلا يقوى به الإنسان على متطلبات الحياة ٠

والذى يطالع سيرة الرسول وتاريخ أصحابه وتابعيه سيرى أن معظم الانتصارات التى أنجزوها كانت فى شهر رمضان ، إذ كان الصوم حافزا على الاجتهاد والإخلاص والرغبة العارمة فى الانتصار، وجاءت صيحات الجنود العرب والمسلمين — يوم العبور العظيم — فى العاشر من رمضان ١٣٩٣هـ عالية ومدوية، وهم يقولون فيها: الله أكبر، الله أكبر" فتحقق لهم النصر فى هذا الشهر الكريم٠

٧ ـ **تحصيل العلم ودراسة القرآن والاستعانة بالصبر**، وقيام الليل، وصلاة التراويح والتسابيح والتهجد، والاقتداء بالرسول وصلة الرحم ومقاومة الشياطين، والصلح بين الناس، ومواساة المحتاجين ٠

فمن أخطر الرياح العاتية التى هبت على المسلمين فى السنين الأخيرة انشغالهم عن آداب الصوم بالكثير من اللهو المحرم والعبث الماجن، والإسراف الممقوت وتحول الشهر من كونه امتحانا لقدرات الإنسان، واختبارا لمقياس إيمانه إلى موسم يزاد فيه الاستهلاك والتخمة والبدانة، وإضاعة الوقت، إلا من عصمه الله تعالى، وقليل ما هم، قال تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ (١) وهو الهادى إلى سواء السبيل٠

---

(١) الأنعام ١٣٢ ٠

ليلة القدر(*)
بين القرآن والسنة

يرتبط شهر رمضان بمجموعة من الأحداث والمناسبات العظيمة التى يحرص المسلمون على الاحتفاء بها والعبادة فيها مثل الاعتكاف بالمسجد وصلاة التراويح والقيام بالليل للتهجد وقراءة القرآن والإقبال على الله تعالى .

وليلة القدر أهم مناسبة فى هذا الشهر العظيم؛ لأنها الليلة المباركة التى ابتدأ نزول القرآن الكريم فيها على رسول الإسلام محمد ﷺ من قبل أن يفرض صوم رمضان على المسلمين.

وتحدث القرآن الكريم عن نزول آيات الذكر الحكيم فى هذه الليلة المباركة فقال تعالى:﴿حمٓ ۝ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ۝ أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ۝ رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾(١).

فالليلة المباركة هى ليلة القدر، وقوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ﴾ أى فى ليلة القدر يفصل من اللوح المحفوظ إلى الكتبة أمر السنة، وما يكون فيها من الآجال والأرزاق ، وما يكون فيها إلى آخرها(٢).

(*) نشر فى جريدة عقيدتى بالعدد ٥٢٢ فى ٢٠٠٢/١١/٢٦م

(١) الدخان ١ ــ ٦ .

(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ١٣٧ .

وحدد القرآن بدء نزوله فى هذه الليلة فقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴾ (١).

ومعنى "أنزلناه" أى ابتدأنا نزوله، أو أنزلناه جملة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا على السفرة، ثم كان جبريل عليه السلام ينزل به على النبى عليه الصلاة والسلام منجما فى ثلاث وعشرين سنة.

والضمير الأخير فى قوله تعالى "أنزلناه" للقرآن الكريم، حيث ورد مضمرا من غير ذكر ، تعظيما له وإقرارا بالمنزلة المغنية عن التصريح ، وإشارة إلى ضرورة أن يكون موجودا بصفة دائما فى وجدان الإنسان، ولا ينبغى أن تغيب عنا أفضاله أبدا؛ لأنه الكتاب الذى لا ريب فيه، ومن دلائل العظمة فى هذه الليلة أن العبادة فيها خير من العبادة فى الف شهر ليس فيها ليلة قدر، حيث تنزل الملائكة والروح الأمين إلى الأرض من اجل كل أمر من الخير والبركة قدر فى تلك السنة إلى السنة القادمة، وهى سلام لكثرة سلام الملائكة والروح (وهو جبريل) على المؤمنين الطائعين.

---

(١) القدر ١ ــ ٥ .

وحدد القرآن الكريم ــ فى موضع ثالث ــ أن النزول فى شــهر رمضان، قال تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ... ﴾ (١) ٠

فهذا الجزء من الآية يبين أن النزول كان فى شهر رمضان الذى فرض الله صيامه على المؤمنين٠

وقيل : "إن بركة ليلة القدر ليست من غروب الشمس إلى مطلــع الفجر فحسب بل أثناء النهار السابق على تلك الليلة أيضا، فهى تبدأ من مطلع فجر إلى مطلع الفجر الذى يليه ... ولماذا وصفها الله تعالى بليلة القدر ولم يصفها بيوم القدر؟ ذلك لأن السماء فى ليل دائم، ولا يتعاقب فيها ليل ونهار كما يحدث على سطح الأرض، ولقد أنزل الله عزوجل القرآن الكريم فى ليل السماء الدائم إلى حيث أراد فيها، لذلك وصــفها بليلة القدر، ولم يصفها بيوم القدر٠

وقيل إنها سميت بليلة القدر؛ لأن الله مجدها وشــرفها وفضــلها، فالقدر هو المنزلة العالية والشرف العظيم، وقد أنزل الله فيها القــرآن، وهو كتاب ذو منزلة وقدر مع جبريل عليه السلام، وهــو ملــك مــن ملائكة الرحمة له منزلة وقدر إلى محمد ﷺ وهو رسول كريم له منزلة وقدر، وجاءت كلمة القدر ثلاث مرات فى السورة المذكورة(٢)٠

---

(١) البقرة ١٨٥ ٠

(٢) من كلمة للدكتور أحمد شوقى إبراهيم بجريدة الأهرام فى ٨/ ١/ ١٩٩٩م٠

أو أنها ليلة التقدير، ففيها يعلم الله ملائكته بمقاديره فى السنة التى تبدأ بها، ويؤيد هذا قول الله تبارك وتعالى : ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾[١] أو أن القدر بمعنى الضيق، ولكنه ضيق الأرض بما ينزل من الملائكة إليها فى تلك الليلة، وهى ليلة النور حيث فاض فيها نور الله تعالى على نبيه، ثم على أتباعه من بعده.

قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [٢] وهى أفضل الليالى؛ لنزول القرآن الكريم من رب العالمين على الرسول الامين فى ليلة من ليالى الثلث الاخير من شهر رمضان، فعن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها ان رسول الله ﷺ قال : "تحروا ليلة القدر فى الوتر من العشر الأواخر من رمضان"[٣] ويميل عبدالله بن عباس إلى القول بأنها ليلة السابع والعشرين لكن لم يرد الجزم بتحديدها؛ لكى يجتهد المسلمون فى ليال كثيرة من هذا الشهر، وما دام الله لم يعينها فإنهم بالمداومة على العبادة جديرون بأن يصادفوها، وربما كان فى عدم التحديد تخفيف على العصاة من عباده، فإن حساب المؤمن على المعصية فى ليلة يجهل أنها ليلة القدر أخف بكثير من حسابه على المعصية نفسها تقع منه فى ليلة يعلم أنها ليلة القدر.

---

(١) الدخان ٤ .
(٢) الفرقان ١ .
(٣) البخارى .

إن هذا الإخفاء لا يختلف عن أمور أخرى كثيرة تركت بلا تحديد أو بيان ، فقد أخفى الله تعالى الصلاة الوسطى؛ ليحافظ المؤمنون على كل الصلوات، قال تعالى: ﴿حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ﴾ (١)٠

ومن المستحب للمسلم فى هذه الليلة مداومة العبادة وقراءة القرآن والتوجه إلى الله بالدعاء والذكر، والتصدق على الفقراء، وفعل الخيرات ، والاعتكاف فى المسجد ، فعن أبىهريرة ﷺ عن النبى ﷺ قال : "من قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه"(٢)٠

وعن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها قالت : "كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر الأواخر من رمضان أحيا ليله، وأيقظ أهله، وجد، وشد المئزر"(٣)٠

وعنها أيضا أنها سألت الرسول ﷺ قالت: "أرأيت إن علمت أى ليلة ليلة القدر ما أقول فيها؟ قال : قولى "اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عنى"(٤)، إن هذه الليلة جديرة بأن يحرص المسلمون عليها إذ أن ثواب العمل فيها أعظم من ثوابه فى ألف شهر ليس فيها ليلة قدر، ولما فيها من التجليات العظيمة والشفافية المتميزة ببركة نزول القرآن وقراءته، والعمل بكل ما جاء فيه٠

---

(١) البقرة ٢٣٨ ٠
(٢) متفق عليه ٠
(٣) متفق عليه ٠
(٤) رواه الترمذى وقال : حديث صحيح ٠

الاعتكاف فى المسجد[*]

الاعتكاف: لزوم الشيء، وحبس النفس عليه خيرا كان أو شــرا، وتتحقق هذه العبادة بلزوم المسلم للمســجد مــدة معينــة؛ لطاعــة الله عزوجل، والصلاة، وقراءة القرآن، وسائر أنواع الذكر، وهــو ســنة مؤكدة فى العشر الأواخر من رمضان؛ رغبة فى التقــرب إلــى الله، والطاعة والتسليم والرضا بقضائه، وحسن مناجاته، وإفراغ القلب مــن شواغل الدنيا التى تثقله وتسيطر عليه، وتنقية الروح، وسلامة الــنفس، خاصة فى شهر رمضان.

والاعتكاف عبادة قديمة ذكرها القرآن الكريم فى قول الله تعالى: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [١].

وعن ابن عمر رضى الله عنهما أن عمر قال: يا رسول الله إنــى نذرت فى الجاهلية أن أعتكف ليلة فى المسجد الحــرام، فقــال: "أوف بنذرك"[٢] ولقد أقر الإسلام مشروعية هذه العبادة، وحث عليهــا؛ لمــا فيها من تقرب إلى الله فى ليالى شهر الصوم الذى نزل القــرآن فيــه لأول مرة، كما أن المسلم يتجه إلى ربه بالدعاء وحسن الطاعة، قــال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا

(*) نشر فى جريدة عقيدتى فى ٤/ ١٢/ ٢٠٠١ م العدد ٤١٩ .

(١) البقرة ١٢٥ .

(٢) رواه البخارى .

دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ (١)، وكان اعتكاف الرسول ﷺ فى رمضان خاصة فى العشر الأواخر منه فعن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان"(٢)، وروت السيدة عائشة رضى الله عنها، قالت: "كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر الأواخر أحيا الليل، وأيقظ أهله، وجد ، وشد المئزر"(٣).

ويكون إحياء الليل بالسهر للصلاة وقراءة القرآن، وأما إيقاظ الأهل فلصلاة الليل والتهجد ، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ (٤)، وقال: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ (٥).

وقول الرسول فى حديثه السابق : "وجد" أى وجد فى العبادة زيادة على المعتاد .

أما قوله : "وشد المئزر" فيؤكد اجتهاده فى العبادة، وتفرغه لها فى الليالى الأخيرة من شهر رمضان، أو فى بعض منها، ويمكن أن يكتمل ذلك باعتزاله النساء، وانصرافه إلى العبادة تماما.

---

(١) البقرة ١٨٦ .
(٢) رواه مسلم .
(٣) رواه مسلم .
(٤) الإسراء ٧٩ .
(٥) الذاريات ١٧، ١٨ .

وعن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال : "أفضل الصيام بعد رمضان شهر الله المحرم، وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل"(١).

وكان الرسول ينصب خباء له فى المسجد، وتوالى اقتداء أزواجه، قالت عائشة " فلما صلى رسول الله ﷺ الفجر نظر فإذا الأخبية فقال: آلبر تردن؟ فأمر بخبائه فقوض، وترك الاعتكاف فى شهر رمضان، حتى اعتكف فى العشر الأول من شوال"(٢).

ويفيد الحديث الشريف أن الاعتكاف ليس واجبا، وإنما هو سنة مؤكدة، ويجوز أن يكون فى رمضان أو فى شوال أو فى غيرهما من الشهور، وأن مقداره غير محدد، فيجوز أن يكون وقتا قصيرا فى الليل أو النهار، ولهذا فيمكن للمسلم إذا أخلص النية، وصدقت عزيمته أن ينتظر الصلاة بالمسجد، ويكون ذلك اعتكافا، كما يتحقق اعتكاف المرأة فى بيتها، متفرغة بعض الوقت للعبادة والذكر والدعاء وقراءة القرآن.

ولابد أن يكون الاعتكاف فى المسجد بخباء يستتر به الإنسان مراعيا الآداب الإسلامية فى هذه السنة، وبحيث لا يعيق المصلين عن أداء صلواتهم، ولا يؤذيهم بمناظر منفرة، أو روائح كريهة لا تتناسب مع بيوت الله.

---

(١) رواه مسلم .
(٢) رواه مسلم .

ولا يكون الخروج إلا لضرورة، ومتجنبا المباشرة الزوجية فـي أثناء مدة الاعتكاف، قال تعالى: ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمۡ عَٰكِفُونَ فِي ٱلۡمَسَٰجِدِ﴾ (١) ويكون الخروج لقضاء مصلحة، أو زيارة مريض، أو حضور جنازة، إذ لابد أن تستمر حركة الحياة، فلـيس مطلوبـا مـن الشخص ان يعتكف ما دامت شؤون أهله لن تحقق على الوجه الأكمل فمن الواجب ان تراعى الأوليات، فالطالب المقبـل علـى الامتحـان، والشخص الذى تتوقف عليه مصالح الناس، أو تحتاجـه الدولـة فـى مسئولية منوطة به، كل هؤلاء وامثالهم يتعين عليهم أن ينصرفوا إلـى واجباتهم، قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ﴾ (٢) ويكـون الاعتكاف واجبا إذا نذره الإنسان، ويكون مكروهـا إذا ترتـب عليـه ضرر يلحق بالإنسان وأهله ومجتمعه، وما عدا ذلك فهو سنة مؤكـدة خاصة فى العشر الأواخر من رمضان.

---

(١) البقرة ١٨٧ .
(٢) البقرة ٢٨٦ .

زكاة الفطر
ودورها فى تماسك المجتمع

فرض الله سبحانه وتعالى الصيام فى شهر رمضان من كل عام.

وشهر الصوم موسم للعبادة ، ومناسبة لفعل الطاعة، وهو شهر تتوحد فيه القلوب المؤمنة فى التوجه إلى الله تعالى وتتقارب فيه بالدعاء والذكر والعبادة، وفعل الخيرات. قال عز من قائل: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ (١) .

ففى الصيام تتجسد الوحدة فى الامتناع عن الطعام والشراب ثم فى الإفطار والسحور.

قال رسول الله ﷺ : "للصائم فرحتان ... فرحة عند إفطاره وفرحة عند لقاء ربه"(٢) ، ويزداد الخير، وينتشر الحب، ويعم الفرح طول الشهر، ونلمس العديد من وجوه البر المعروف، فتكثر موائد الإفطار التى يصنعها أهل الخير احتسابا لله تعالى، أو يقدمونها إلى الفقراء والمساكين فى منازلهم، أو فى أى مكان يوجدون فيه، ويزداد المعروف والعطاء من خلال زكاة الفطر (أو صدقته) وهى واجبة على كل مسلم (ومسلمة) يملك قوته (طعامه وشرابه) وقوت من يتولى

---

(١) البقرة ١٨٦ .
(٢) رواه البخارى ومسلم .

الإنفاق عليهم خلال ليلة العيد ويومه، أو هى سنة مؤكدة عن الرسـول ﷺ ، فعن ابن عمر رضى الله عنهما، قال ك "فـرض رسـول الله ﷺ زكاة الفطر من رمضان صاعا من تمر أو صاعا من شعير على العبد والحر والذكر والأنثى والصغير والكبير من المسلمين"[١].

وقال تعالى:﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴾[٢].

وروى عن أبى سعيد الخدرى وابن عمر أن ذلـك فـى صـدقة الفطر وصلاة العيد، وكذلك قال أبو العالية ٠

ويسن إخراجها أول ايام العيد بعد صلاة الفجـر، وقبـل صـلاة العيد؛ حتى ينصرف الفقراء والمساكين إلى مشاركة عامة المسلمين فى الفرح والسرور بهذا اليوم، وحتـى يتجنبـوا سـؤال النـاس العـون والمساعدة، ويجوز تعجيلها قبل العيد بيوم أو يومين، وأجاز الشـافعى إخراجها من أول شهر رمضان، ولكل رأى توجيه ونظر، تراعى فيـه مصالح المحتاجين، خاصة أن الزكاة لا تتوقف عند الطعام والشـراب، وإنما تشمل أمورا أخرى تعد ضرورية أيضا لاستمرار حركة الحيـاة، وقد روى ابن عباس رضى الله عنهما قال : "إن رسول الله ﷺ فـرض زكاة الفطر طهرة للصائم من اللغو والرفث"[٣] وطعمة للمساكين، مـن أداها قبل الصلاة (صلاة العيد) فهى زكاة مقبولة، ومـن أداهـا بعـد

---

(١) رواه البخارى ومسلم ٠
(٢) الأعلى ١٤، ١٥ ٠
(٣) الرفث: الفحش من القول٠

الصلاة فهى صدقة من الصدقات"[١] وعن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ فى بيان وجوب هذه الزكاة : "أغنوهم فى هذا اليوم"[٢].

وقد فرضت فى شهر شعبان من السنة الثانية من الهجرة؛ لتكون طهرة للصائم مما يمكن أن يكون قد وقع فى صيامه من تجاوز فى القول والفعل؛ ولتكون عونا للفقراء، والمعوزين.

وقال الشيخ سيد سابق عن مقدارها : "الواجب فى صدقة الفطر صاع من القمح أو الشعير أو التمر أو الذبيب أو الأقط (اللبن المجفف غير منزوع الزبد) أو الأرز أو الذرة، أو نحو ذلك مما يعتبر قوتا".

وتقدير الصاع محل خلاف فقيل إنه قدح وثلث أو قدحان.

وقيل يجوز أن تخرج الزكاة من القمح نصف صاع، لأنه يقوم مقام صاع من الشعير، كما أجاز أبوحنيفة النعمان إخراج القيمة نقدا، وهى تختلف من عام إلى آخر، وقد سار الكثيرون هنا فى مصر على اعتبار أن الصاع يعدل قدحين من غالب قوت البلد.

وتؤدى لمن تصرف لهم الزكاة المفروضة، وهم الذين ذكرتهم الآية الكريمة ، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَـٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْعَـٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَـٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [٣].

---

(١) رواه أبو داود وابن ماجة والدارقطنى .
(٢) رواه البيهقى والدارقطنى .
(٣) التوبة ٦٠ .

والفرق بين الفقير والمسكين ان الأول هو المحتاج المتعفف الذى يكتسب اثنين أو ثلاثة ويحتاج إلى عشرة، أما الثانى فهو الذى يسأل الناس ويكتسب سبعة أو ثمانية ويحتاج إلى عشرة، وقوله : ﴿ **وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ** ﴾ أى المحاربون فى سبيل الله، وكل ما يعم جميع مصالح المسلمين.

وتصرف فى البلد الذى يقيم فيه المزكى إلا إذا كان له أقارب فقراء فترسل إلى محل وجودهم، ويصرف جزء منها للمحتاجين فى بلده، والفقير القريب أولى أينما كان.

ومن الثابت المكرر أن الرسول ﷺ كان حريصا فى تأكيد حتمية إخراج هذه الصدقة؛ حتى تعم الفرحة جميع عناصر المجتمع، فلا يبقى فقير محتاج يسيطر القلق واليأس عليه، ويرى الناس قد اشتملهم السرور فيزداد حسرة وألما.

إن إخراج زكاة الفطر فى هذا الزمن يعد معالجة ودفعا لأى هم ينتاب المحتاجين من فقراء ومساكين، وإسهاما فى دين لشخص عجز عن سداده، ومشاركة فى بعض وجوه البر كتأسيس مستشفى، أو مسجد، أو إصلاح مدرسة، وعونا لابن ضال تاهت مسيرته فى دروب الحياة فكان هذا القدر المحدد من الزكاة لكى تتقوى العلاقة الاجتماعية بين جميع الناس من أغنياء يملكون وفقراء ومساكين يحتاجون ومؤسسات تنهض برسالتها فى خدمة الناس جميعا.

لقد فرض الإسلام وسن مجموعة من الدعم والمساعدة للفقير والمسكين من قبل المالك الغنى الذى يستطيع أن يدفع بلا مَنٍّ أو أذى مثل الزكاة الواجبة، والسنن المؤكدة والمستحبة كزكاة الفطر وصدقة التبرع وسوى ذلك، لكن هذا التشريع مع شموليته لم يمنع آفة سلوكية سيئة من الانتشار والتوغل بين شرائح المجتمع وهى آفة التسول فمنذ أن يأتى شهر رمضان بهلاله الكريم تنتشر فى الشوارع وأمام المستشفيات والمساجد جماعات التسول التى غالبا ما تكون مدعاة، ولا تعبر عن واقع الشخص وحقيقته، وهذا السلوك يتنافى مع جوهر الإسلام، ويمثل فى غالبه نوعا من الخداع؛ ذلك لأن أكثر الذين يتسولون لا يحتاجون فربما كان لديهم من المال ما يجعلهم فى غنى عن هذا السلوك وما يتبعه من إدعاء وكذب ، كما أن أكثر الذين يحتاجون لا يسألون، إذ أنهم يتعففون ولا يسألون الناس إلحافا، ويقنعون بما لديهم من القليل، وهنا لابد على كل مسلم أن يتفهم أبعاد هذا الأمر وألا يندفع نحو تسليم زكاة فطره إلى طوائف المتسولين بل عليه أن يوجهها فى المقام الأول إلى الجهة التى يثق فى قيامها بهذا الأمر أو أن يقوم هو بنفسه بتسليمها إلى ذوى الحاجات والجهات التى ذكرتهم آية المصارف السابقة، وعلى أجهزة الدولة ان تنهض بالدور المكمل لهذا التوجه فى القضاء على هذه الآفة وتخليص المجتمع منها أما ما يتسرب من نتاج هذه المحاولات فسوف يكون ضئيلا محدودا وليس بالصورة التى تسيىء إلى الدين والوطن.

من الآداب الإسلامية فى عيد الفطر(*)

كان للعرب فى الجاهلية أيام كثيرة يذكرونها، ويحتفلون بهـا إلا أن عنايتهم بيومى الفيروز والمهرجان كانت كبيرة ومشـهورة، ولمـا هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة، ورأى ما كان عليه العرب من احتفالهم بهذين اليومين، قال فيما يرويه أنس بن مالك: "قدم النبـى ﷺ المدينـة ولهم يومان يلعبون فيهما، فقال: قد أبدلكم الله تعالى بهما خيرا منهمـا يوم الفطر والأضحى" (١).

ويأتى عيد الفطر بعد صيام شهر رمضان بما فيه من تضرع إلى الله تعالى بالعبادة، وخشوع فى التوبة، وتهجـد فـى الليـل، وصـلاة للتراويح وقراءة للقرآن ٠

ويعود يوم العيد على المسلمين، والفرحة تملأ قلوبهم، والسـعادة تعلو وجوههم، والأمل يحدوهم فى العودة إلى طاعة الله تعالى بصـيام ستة أيام من شوال٠

وقد ارتبط العيد بكثرة عوائد الله تعالى فيه بالإحسان والمغفـرة، وبعودة الفرح والسرور إلى الصائمين الصادقين فى عبادتهم، ويسـعد بهذا الفرح ويناله كل من اخلص فى عمله وعبادته ، وكل من أخـرج زكاة مالهن وصدقة فطره، وأحسن إلى الفقراء والمساكين، وتاب إلـى

(*) نشر فى جريدة الأهرام يوم ١٩ / ١/ ١٩٩٩م٠
(١) رواه النسائى وابن حبان بسند صحيح ٠

ربه توبة نصوحا، وصبر على العبادة، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ (١).

وقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ (٢) .

و﴿تَزَكَّىٰ﴾ أى أخرج زكاة الفطر.

و﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ﴾ بقلبه ولسانه، وكبر يوم العيد، ولهج لسانه بذكر الله تعالى.

وقوله ﴿فَصَلَّىٰ﴾ أى أدى صلاة العيد على سنة رسول الله.

ويرتبط العيد بالتكبير والتهليل والصلاة وقـراءة القـرآن، قـال تعـالى: ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٣).

والتكبير فى العيد سنة متبعة عن رسول الله ﷺ وهو فـى عيـد الفطر من وقت الخروج إلى الصلاة وابتداء الخطبة.

(وقيل من ليلة الفطر – إذا رأوا الهلال – حتى يخرج الإمام إلى الخطبة وفى الأضحى من صبح يوم عرفة إلى عصر أيام التشريق).

---

(١) فاطر ٣٤ .
(٢) الأعلى ١٤، ١٥ .
(٣) البقرة ١٨٥ .

وقد شرع الاجتماع والتزاور وصلة الأرحام ونبذ الخصام والشقاق، وعمل المعروف، والعطف على الفقراء والمساكين، ومواساة المكروبين.

ويؤدى المسلمون الصلاة فى المسجد الجامع، ويكبرون سبع تكبيرات فى الركعة الأولى غير تكبيرة الإحرام، كما يكبرون فى الركعة الثانية خمس تكبيرات سوى تكبيرة القيام، ويقولون بين كل تكبيرة وأخرى "سبحان الله . والحمد لله . ولا إله إلا الله . والله أكبر . ولا حول ولا قوة إلا بالله".

وتبدأ خطبتا العيد بالحمد لله، ويكبر الإمام فى الأولى تسع تكبيرات، وفى الثانية سبعا، والاستماع إلى الخطبة سنة، فعن سعد بن أبيوقاص أن النبى ﷺ صلى العيد بغير آذان ولا إقامة وكان يخطب خطبتين قائما يفصل بينهما بجلسة"[١].

ويجب أن يكون السرور غير مصاحب لما حرم الله، حتى لا يحبط المسلم عمله وجهاده فى الصوم والعبادة.

وكان الرسول ﷺ يفطر صباح العيد على تمرات يأكلها قبل أن يخرج إلى المصلى، فعن أنس ﷺ قال : "وكان النبى ﷺ لا يغدو يوم الفطر حتى يأكل تمرات، ويأكلهن وترا"[٢].

---

(١) رواه البزار .
(٢) رواه أحمد والبخارى .

ومن هدى الرسول فى العيد أنه كان يذهب إلى المصلى من طريق، ويعود منها عن طريق مخالف، فعن جابر ﷺ قال : "كان النبى ﷺ إذا كان يوم عيد خالف الطريق"(١) .

قال ابن قيم الجوزية فى زاد المعاد : "وكان ﷺ يخالف الطريق يوم العيد فيذهب فى طريق، ويرجع فى أخرى، فقيل ليسلم على أهل الطريق وقيل لينال بركته الفريقان، وقيل ليقضى حاجة من له حاجة منهما، وقيل ليظهر شعائر الإسلام فى سائر الفجاج والطرق، وقيل ليغيظ المنافقين برؤيتهم عزة الإسلام وأهله، وقيام شعائره، وقيل لتكثر شهادة البقاع فإن الذاهب إلى المسجد والمصلى: إحدى خطوتيه ترفع درجة، والأخرى تحط خطيئة؛ حتى يرجع إلى منزله، وقيل وهو الأصح أنه لذلك كله ولغيره من التى لا يخلو فعله عنها"(٢).

وينبغى للمسلم أن يكون مقتصرا معتدلا فى فرحه وسروره، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ (٣) وهم الذين يكثرون الفرح بزخارف الدنيا، فيغترون بما لديهم من أموال وأبناء وجاه ونفوذ وسائر أعراض الحياة.

وإذا كان يوم العيد مقترنا بفرحة الفطر التى يسعد بها كل مسلم حافظ على الصيام ومتطلباته فإن بعض الناس لا يتورعون عن فعل المنكر ظانين أن كل شىء مباح فى يوم العيد ... كيف؟

---

(١) رواه البخارى .
(٢) ج١ ص١٢٣ .
(٣) القصص ٧٦ .

كنا نشاهد ـــ فى زمن قريب ـــ كثيـــرا مـــن الرجـــال والنســـاء يخرجون بعد صلاة العيد إلى زيارة القبور فرادى وجماعات معتقـــدين أن هذا أقل ما يمكن أن يتذكروا به موتاهم فى هذه المناسبة، ولا شـــك فى أن الزيارة ـــ وإن صاحبتها تذكرة واعتبار ـــ يشوبها تجديد للحزن والغم والبكاء ـــ وهى لا تتلاءم مع بهجة العيد٠

وعلى جانب آخر يمعن البعض فى التجاوز فيمارسون أشكالا من المحرمات والمنكرات ، ولعل أبرزها الاختلاط الفاحش بـــين الرجـــال والنساء وإثارة الشهوات وتحريك الغرائز، والنظر إلى ما حـــرم الله ، أو أن يخرج الناس فى صبيحة يوم العيد فيسرفون فى أكلهم وشربهم، ويمارسون ألعابا خطيرة، ويعرضون أنفسهم لأضرار صحية وأعبـــاء نفسية ومخاطر اجتماعية٠

قـــال تعـــالى : ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾[١] ومن السنة صيام ستة أيام من شوال بعد عيد الفطـــر ، فعن أبى أيوب ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : "من صام رمضـــان ، ثـــم أتبعه ستا من شوال كان كصيام الدهر"[٢]٠

---

(١) الأعراف ٣١ ٠
(٢) رواه مسلم ٠

وعن ثوبان ﷺ عن رسول الله ﷺ قال : "من صام رمضان وستة أيام بعد الفطر، كان تمام السنة ، من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها"(١).

إن يوم العيد مناسبة للتذكر والاعتبار ومحاسبة النفس، ومراجعة السلوك والتصرفات ، ولابد أن يحافظ المسلمون فيه على شعائر دينهم، وألا يقطعوا صلتهم بخالقهم ، وأن يحرصوا على أداء الفرائض الدينية بصدق وإخلاص، وأن يلتزموا بالآداب الإسلامية كصلة الأرحام وزيارة الأقارب والبر بالفقراء والمحتاجين والعطف على الأيتام والمظلومين ، وعيادة المرضى، ومواساة أسر الشهداء والصلح بين المتخاصمين، وحمد الله على التوفيق فى الصلاة والصيام والزكاة والعمل بالقرآن والسنة النبوية .

والله الموفق وهو الهادى إلى سواء السبيل

(١) رواه ابن ماجة.

الجهاد فى سبيل الله

الجهاد فى سبيل الله من أعظم الأعمال التى يتقرب بها الإنســـان إلى ربه، وهو ليس قاصرا علـــى مقاومـــة المشـــركين، والتصـــدى للمرتدين، ومواجهة الغزاة والمحتلـــين، بـــل يشـــمل جهـــاد الـــنفس وترويضها على ترك المعاصـــى، وقهـــر الشـــيطان، وردع الهـــوى، والأنانية، وحب الذات، والتفاخر الكاذب، والرياء الممقوت.

ولابد أن يبنى الجهاد على حب التضحية فى سبيل الله، والرغبـــة الأكيدة فى الاستشهاد ، وهو فريضة ماضية من أجل الدفاع عن الدين حتى يصل حال الأمة إلى التصدى للدجال دفاعا عن العقيدة والـــنفس قال رسول الله ﷺ : "الجهاد ماض منذ بعثنى الله تعالى، لا يبطله جور جائر، ولا عدل عادل، إلى أن يقاتل آخر هذه الأمة الدجال"(١).

إن البطولة والجهاد فى سبيل الله من ألزم العوامل والأسباب التى تحرس القيم والمبادئ الإسلامية، وتحوطها بالقوة والهيبة، فإذا ما تحقق ذلك للأمة فى ظلال أوضاعها منذ بعثة الرسول ﷺ حتى الآن(٢).

أمكنها أن تقتحم العراقيل، والصعاب، وتصير مضرب الأمثـــال فى القديم والحديث، فإذا أدرك المجاهد أن آمال الأمـــة مرتبطـــة بـــه وأمانة فى عنقه كان ذلك هو الإيمان الحقيقى الذى تقوى بـــه همتـــه، وتشتد عزيمته، وذلك عندما يخرج للدفاع عن دينه ونفسه ووطنه.

---

(١) رواه أبو داود فى سننه والطبرانى فى الأوسط وأبو يعلى فى مسنده.
(٢) مساء الأحد ١٠/ ١١/ ١٩٦٨م (١٩ من شعبان ١٣٨٨هـ) ذلـــك التـــاريخ الذى ابتدأنا فيه كتابة هذا الموضوع.

طبيعة الجهاد فى مكة قبل الهجرة:

جاهد الرسول وأصحابه فى مكة بعد البعثة النبوية جهادا صارما من أجل ترويض النفوس وتهيئتها للتجاوب مع رسالة الإسلام، ونبذ عبادة الأصنام، فكان الجهاد من أجل الحق بكل ما وسعهم من جهد، ولم يتخلوا عن رسول الله ﷺ فى سنوات العسرة والمعاناة التى دافع فيها عن التكليف الإلهى بإبلاغ الناس ما جاءه عن الدين الجديد.

لقد جاهد الرسول ﷺ مع أصحابه فى مكة بالقول اللين والحجة الواضحة، والدعوة إلى التفكر فى خلق السموات والأرض؛ حتى يقترب الناس من ربهم عن طريق الدعوة والفكر، وليس بأسلوب الإكراه والإجبار، أى أن الجهاد من البعثة إلى الهجرة كان جهادا لا قتال فيه إذ أن أوضاع الأمة فى أطوارها الأولى لا تسمح مطلقا لأى فرد بحمل السلاح للدفاع عن العقيدة تحت أى وضع من الأوضاع إذ أن الرسول كان مأمورا بالصبر والثبات، وتحمل الأذى، وهداية الناس، وإيصال الخطاب الإسلامى بالدعوة الواضحة للتسامح والعفو والعيش فى سلام.

إذن فقد كان الجهاد قاصرا على الكلمة التى أثمرت كثيرا فى المرحلة الملائمة لحياة الأمة مع أن القتال فى الإسلام قد شرع للحفاظ على المثل والمبادئ الإسلامية ، والتى تصير بين وقت وآخر فى مواجهة سافرة مع قوى القهر ، والظلم، والعدوان التى كان لها فى بدايات الإسلام ما لم يكن متاحا للرسول وأصحابه الذين كان معظمهم من الضعفاء الأذلاء المقهورين على الأرض.

ولذلك فأعظم الجهاد ما كان نابعا من القناعة ، ومطابقا لأوضاع الأمة، ومعبرا عن السماحة الإسلامية .

فعن أبى موسى الأشعرى ﷺ قال : جاء رجل إلـى النبـى ﷺ ، فقال : الرجل يقال للمغنم، والرجل يقاتل للذكر، والرجل يقاتل ليـرى مكانه، فمن فى سبيل الله؟

قال : "من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله"[١].

وقال رسول الله ﷺ : "إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا وابتغى به وجه الله"[٢].

هذا وقد واجه الرسول فى ساحة مكة صناديد الكفر بالقول اللين، والحجة الساطعة، والبرهان الواضح، متحملا كل أنواع الأذى، صابرا على تجاوزات قومه منذ أن دعا إلى عبادة الله وحده، وتـرك عبـادة الأصنام التى لا تضر ولا تنفع، والتى لا تعى ولا تسمع، ومن يوم أن أعلن أنه نبى للأمة أرسله ربه هاديا للناس، ومبشرا ونذيرا، وأنه جاء بالخير والحق، والرحمة والسلام، والأمر بـالمعروف، والنهـى عـن المنكر، فكان الجهاد بالقول اللين، والموعظة الحسنة قال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾[٣].

(١) رواه البخارى ومسلم .
(٢) رواه النسائى والطبرانى فى المعجم الكبير .
(٣) النحل ١٢٥ .

فهذه الآية كما يقول القرطبى : "نزلت بمكة فى وقت الأمر بمهادنة قريش، وأمره أن يدعو إلى دين الله وشرعه بتلطف ولين، دون مخاشنة وتعنيف، وهكذا ينبغى أن يوعظ المسلمون إلى يوم القيامة فهى محكمة فى جهة العصاة من الموحدين، ومنسوخة بالقتال فى حق الكافرين. وقد قيل: إن من أمكنت معه هذه الأحوال من الكفار ورجى إيمانه بها دون قتال فهى فيه محكمة. والله أعلم"[١].

أما الآيات الثلاث التى بعدها فقد نزلت بالمدينة كما قال جمهور أهل التفسير، وأولها قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴾[٢] .

فقد نزلت بالمدينة فى شأن التمثيل بجثة حمزة بن عبدالمطلب فى غزوة أحد.

لقد جاهد المسلمون الأوائل فى سبيل دينهم بكل ما وسعهم من قوة وجهد، فبذلوا الأموال والأوقات، وتحمل الإيذاء، والصبر على المكاره فى حدود إمكاناتهم المتواضعة، وهكذا كان جهاد الرسول والمسلمين قبل الهجرة.

تحدث الشيخ محمود شلتوت عليه سحائب الرحمة والرضوان عن طبيعة الدعوة الإسلامية متسائلا بالقول هل كانت الدعوة بحاجة إلى إكراه الناس عليها، وأجاب بأن الدعوة كانت خطابا للعقل ، ودعوة إلى

---

(١) الجامع لأحكام القرآن جـ١٠ صـ٢٠٠ ، وأمره : أى أمر رسول الله.
(٢) النحل ١٢٦ .

الرحمة، ورغبة فى الخير، وحضا على السلام، وتوخى اليسر، وقواعد الاجتماع ، ومثل هذه الأمور لا تحتاج فى اعتناق الناس لها إلى وسيلة تفرضها عليهم فرضا وتلجئهم إليها إلجاء.

والدعوة إلى هذه المثل والقـيم إنمـا تمثـل تكريمـا للإنسـان، والارتفاع به إلى درجة من تحكيم العقل فى عدم وقوعه تحت ظـلال الجهل فيعبد صنما أو حجرا من الأصنام التى كانت منتشرة فى الحرم وعلى اقتراب منه، وقال الشيخ: هذه هى دعوة الإسلام. فهل مثل هذه الدعوة يحتاج فى إيمان الناس بها إلى إكراه؟ إنه لمن الإسـاءة إليهـا، ومن الصد عنها، ومن وضع العراقيل فى سبيلها، أن يجعـل الإكـراه طريقا من طرق الإيمان بها ، إن الإنسان إذا شعر أنه مكره على شىء صرفه ذلك عن تقديره واحترامه، والتفكر فيه، فضلا عن الإيمان بـه، فاتخاذ الإكراه وسيلة إلى اعتناقها، فيه إلباسها ثوب التعقيد والالتـواء والغموض، وإبعاد لها عن متناول العقول والقلوب، ولا ريب أن هـذا ظلم لها أى ظلم[1].

وقد خلص الشيخ شلتوت إلى أنه لا يوجد سبب ما يبرر لأحد ما، أن يعتقد أو يزعم أن من أساليب الدعوة الإسلامية حمل النـاس علـى الإيمان بها عن طريق السيف والقتال[2].

---

(١) القرآن والقتال صـ٤٢، ٤٣ .
(٢) السابق صـ٥٥ .

جهاد الرسول وأصحابه بعد الهجرة :

لقد شرع القتال فى سبيل الله بعد هجرة الرسول والمسلمين إلـــى المدينة عندما صاروا قوة لا يستهان بها، إذ زادت أعداد المجاهدين من المهاجرين والأنصار، وكثرة الأموال، لتجهيز الجيش، وتوهج الإيمان فى القلوب وازدادت الرغبة للحركة الإيجابية لنصرة الـــدين وتجـــاوز مرحلة القول إلى الفعل فكـــان إذن الله تعـــالى بالقتـــال ردا ومقاومـــة ومواجهة لمن يقاتلونهم، ويعتدون عليهم، ويقفون ضد التحـــرك لنشـــر الإسلام ، قال تعـــالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [١] وقال تعـــالى: ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [٢] وقال تعـــــالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ [٣] وقال تعالى: ﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[٤].

---

(١) الحج ٣٩ .
(٢) البقرة ١٩٠ .
(٣) النساء ٧٥ .
(٤) الأنفال ٣٩ .

ثم خاطب القرآن الرسول وأصحابه بقتال المشركين للرد ومقاومة الاعتداء قتالا عاما شاملا قال تعـالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [(١)].

وكان التشريع القرآنى فى عهد الرسول شاملا لمـا كـان فـى عصره، وما سيأتى فى الأزمنة التالية، فعندما كان المسلمون يفتتحـون بلدا كانت الجزية عمن بقى على إسلامه بديلا عن حمله للسلاح وقتاله فى صفوف المسلمين لحماية الدين، ثم جاءت مرحلة زاد فيها المـال، وعم الخير فكان الرد الإسلامى متمثلا فى إعادة أموال الجزية إلى من حصلت منهم وقد ذكر الشيخ شلتوت أن القتال فى الإسلام كان واضح المعالم محددا فى أذهان المسلمين.

وذلك أن آيات القتال قد كشفت عما يأتى : أنه لا توجد آية واحدة تدل أو تشير إلى أن القتال فى الإسلام لحمل الناس على اعتناقه، وأن السبب لذلك ينحصر فى رد العدوان وحماية الدعوة وحرية الدين، وأن القرآن فى تشريعه للقتال نأى به عن جوانب الطمع والاستئثار وإذلال الضعفاء، وأن الجزية لم تكن عوضا ماليا عن دم أو عقيدة ، وإنما هى علامة على المشاركة فى حمل أعباء الدولة قال: "وليس لأحد بعد هذا أن يفترى على الإسلام، أو يسىء فهم آيات القرآن، فيزعم ما يزعمـه الجاهلون من أن الإسلام قرر القتال طريقا لدعوته، ووسـيلة للإيمـان

---

(١) التوبة ٣٦ .

به، وأنه إنما قامت دعوته وانتشرت عقيدته على أساس من الضغط والإكراه"[١].

وهنا نذكر ببعض ما جاء فى القرآن الكريم فى معاملة المسلمين لغير المسلمين قال تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَـٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ وَظَـٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾[٢].

ونخلص إلى ما يأتى أن جهاد الرسول قبل الهجرة كان جهادا بالقول ، وليس بحمل السلاح حتى لو كان لرد العدوان، ثم صار الجهاد فى الهجرة متجسدا فى المآخاة بين المهاجرين والأنصار ، والمعاهدة مع قبائل اليهود فى مجموعة عناصر منها مشاركة أهل المدينة جميعا فى الدفاع عنها ضد أى اعتداء عليها .

أى أن الدعوة إلى الجهاد بالنفس، وحمل السلاح ، ورد الاعتداء، وحفظ دولة الإسلام بالمدينة فى بداية تكوينها فكان قبل غزوة بدر الكبرى ثم تواصلت السرايا والغزوات بالمعايير الإسلامية الواضحة،

---

(١) القرآن والقتال صـ٨٠ .
(٢) الممتحنة ٨، ٩ .

ومنها ــ إضافة غزوة بدر ــ غــزوات أحــد، والخنــدق، وحنــين، وغيرها.

أما قتال الرسول وأصحابه لليهود فكان ردا على خيانتهم للعهود، ونقضهم للمواثيق، وتخليهم عما اتفقوا عليه مــع رســول الله ﷺ بعــد استقراره فى المدينة خاصة من يهود بنى قريظة، وبنى النضير، وبنى قينقاع.

إخراج يهود بنى قينقاع من المدينة قال ابن هشام مما ذكره عن غيره: "كان من أمر بنى قينقاع أن امرأة من العرب قــدمت بجلــب[1] لها، فباعته بسوق بنى قينقاع، وجلست إلى صــائغ بهــا[2]، فجعلــوا يريدونها على كشف وجهها، فأبت، فعمد الصائغ على طــرف ثوبهــا فعقده إلى ظهرها، فلما قامت انكشفت سوءتها، فضحكوا بها، فصاحت. فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله، وكان يهوديــا، وشــدت اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود، فغضب المسلمون، فوقع الشر بينهم وبين بنى قينقاع"[3].

وذكر ابن هشام أيضا أن الرسول ﷺ جمع بنى قينقاع فى سوقهم ثم قال لهم: "يا معشر يهود، احذروا من الله مثل ما نزل بقــريش مــن النقمة "وأسلموا" فإنكم قد عرفتم أنى نبى مرسل، تجــدون ذلــك فــى كتابكم، وعهد الله إليكم، قالوا : يا محمد، إنك ترى أن قومك! لا يغرنك

(١) جلب : كل ما يجلب للأسواق ليباع فيها .
(٢) لتبيع قطعة حلى لذلك الصائغ .
(٣) السيرة النبوية لابن هشام المجلد الثانى صــ٣٤ .

أنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب، فأصبت منهم فرصة، إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس"[١].

وقد وضح من سياق الموضوع أن الرسول ﷺ قد استعان بحكمته في قيادة الأمة فذهب إلى اليهود في مستقرهم، وخاطبهم بالأسلوب الهادئ، وتحدث إليهم على أنهم شركاء في الدفاع عن المدينة وصيانة أهلها، وعدم الاعتداء على أحد منها، لكنهم فسروا الأمر — فيما يبدو — على أنه ضعف منه، وعدم رغبته في قتالهم حتى لو وقوع اعتداء على أحد من أهل المدينة ثم بلغ بهم الغرور حدا لا يطاق إذ أخبروه بأن لديهم من العلم بالحرب ما ليس عند أهل مكة، وقد عرض القرآن الكريم لهذه القضية في آيتين واضحتين كانت الأولى حديثا عن الكفار بوجه عام، ومنهم بنو قينقاع، أما الآية الثانية فكانت عن أصحاب الرسول ومشركي قريش في غزوة بدر"[٢].

قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ۝ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَـٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾[٣].

(١) السابق جـ٣ صـ٣٣ .
(٢) راجع المصدر السابق صـ٣٣ والجامع لأحكام القرآن جـ٤ صـ٢٥ .
(٣) آل عمران ١٢، ١٣ .

وأسفرت هذه المواقف عن توجيه إنذار لهم من رسول الله ﷺ بالكف عن أذى المسلمين فما كان منهم إلا أن ردوا ردا عنيفا لا يليق، وهنا يرد سؤال أمام هذا الاستفزاز الغادر ماذا يفعل المسلمون حيال ذلك أيحاربونهم وقد وجب القتال أم يتقبلون الأذى والعدوان وهذا ما يرفضه الإسلام؟ ثم سار المسلمون إليهم فحاصروهم خمس عشرة ليلة، لا يخرج منهم أحد ، ولا يدخل إليهم أحد، حتى امتلؤوا رعبا وخوفا، وطلبوا الخروج بدون رجعة، ولهم الذرية والنساء، وللمسلمين الأموال، فقبل النبى ﷺ ذلك منهم، وتم ذلك فى سهولة وحرب يسيرة لم تكن متوقعة، وذلك فيما بين غزوة بدر وغزوة أحد٠

لقد كانت حياة الرسول ﷺ عامرة بالجهاد العظيم فى سبيل نشر الدين وإعلاء كلمة الحق ، وردع المشركين، واليهود الذين تجاوزوا كل الحدود فى علاقاتهم بالدعوة الإسلامية ٠

كانت الحياة الجهادية للرسول وأصحابه سلسلة ذهبية متصلة الحلقات من البطولات الفدائية المؤمنة فى أعلى الدرجات، وأسمى المراتب، وهنا كان الرسول ينبه دوما إلى ضرورة الجهاد، وحتمية المشاركة فى الغزو، لاستكمال ما بدأه المسلمون بعد الاستقرار فى المدينة، فقال : "قال ـــ فيما رواه أنس بن مالك ﷺ : "لغدوة فى سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها"[١]٠

---

(١) جزء من حديث رواه البخارى ومسلم ٠

جهاد الصحابة والتابعين:

بعد أن توفى الرسول ﷺ ولحق بالرفيق الأعلى، وتولى الخلافة من بعده أبوبكر الصديق حدثت ارتدادات فى الأمة، فارتـدت جماعة عن الإسلام، وامتنعت أخرى عن دفع الزكاة، وادعى بعض الأفـاقين النبوة، واختلف الصحابة حول بعض الأمور المتصلة بالجهاد فى سبيل الله، فكان لأبىبكر يد طولى فى ردع المعاندين، ومقاومة المـارقين ، فكانت الحروب ، أو السرايا التى خاضها بأمره قـواد مـن عظمـاء الإسلام، نهضوا بمهامهم بدون كلل وضعف، حتى حققوا المسـتهدف الذى كلفوا به من خليفة رسول الله.

ونذكر هنا ما كان من تكليف رسول الله لقيادة الجيش الإسـلامى للقتال بقيادة أسامة بن زيد، وأراد الصديق أن يرسل الجيش المـذكور إلى خارج المدينة، فاعترض عليه جمع من الصحابة، وخوفـوه مـن الخطر الذى يمكن أن يلحق بالمدينة، والجـيش يفارقهـا، لكنـه درس الأمر واتخذ قراره فى أن العزائم لا يصح لها أن تفتـر، وأن الجهـاد ماض إلى يوم القيامة، وقال كلمة خالدة ستبقى نقشا على جدار الزمن، وأثرا خالدا لصحائف الإخلاص والصدق عند أبىبكر ﷺ قـال : "والله لا أحل عقدة عقدها رسول الله ولو أن الطير تخطفتنا، والسـباع مـن حول المدينة، ولو أن الكلاب جرت بأرجل أمهات المؤمنين لأجهـزن جيش أسامة" كما روى عنه أيضا أنه قال : "لا يدع أحدكم الجهاد، فإنه لا يدعه قوم إلا ضرب الله عليهم الذلة".

عاش جمع من الصحابة الكرام بعد الرسول الأمين يدعون إلــى دين الله بالكلمة الهادئة، والفعل الإيجابي فى سائر الأمكنة الجديدة التى انتقل الإسلام إليها، فتم النصر على أيديهم بفضل إخلاصهم وورعهــم بسرعة مذهلة لم تكن متوقعة فــى المراحــل الأولــى مــن الــدعوة الإسلامية.

ونذكر هنا مجاهدين عظيمين من عظماء الجهــاد فــى الإســلام أستشهد الأول صريعا فى غزوة أحد بينما توفى الثانى على فراشه بعد أن شارك فى مائة غزو أو ما يقرب منها .

١ـ **حمزة بن عبدالمطلب عم رسول الله ﷺ** ، وأخوه من الرضــاعة ، وهو بطل من أبطال الإسلام، وشجاع، وجرئ بطريقة لا تبارى حيــث تذكر صحائف التاريخ أنه كان عائدا من رحلة صــيد ذات مــرة وإذ بامرأة تبلغه بإيذاء أبى جهل للرسول ﷺ ، ولكنه لم يبتلع الموقف الذى بقى غصة فى حلقه، وألما، وضيقا فى صدره، فذهب إلى أبى جهل فى حمية عربية أصيلة حيث رفع القوس عليه وضربه ضربة مؤلمة ثــم قال له أتشتمه وأنا على دينه؟! وأعلن فى وجهه وأمام أســماع النــاس وأبصارهم دخوله واعتناقه الدين الإسلامى.

وفى غزوة بدر قتل بسيفه رؤوســا كثيــرة مــن أهــل الظلــم والاستبداد، وقضى على جبابرة ارادوا وأد الدعوة المحمدية فى مهدها، وحقق الله به فى بدر الكثير مما يعجز عن فعله جماعة من الناس، فلما كانت غزوة أحد وقاتل فيها بكل ما أوتى من قوة أراد الله له الاستشهاد

فى سبيل الله، فقتل بطعنة غادرة لم تكن متوقعة من شخص أجير لهذا الغرض، فمات ﷺ شهيدا فى وقت كان المسلمون فى أشد الحاجة إليه، وحزن الرسول عليه حزنا وصمم على الانتقام له ممن شجع على قتله وشارك فيه، ﷺ وجعل الجنة مثواه.

٢ـ خالد بن الوليد :

عاش خالد بن الوليد مقاتلا طوال حياته وكان متميزا برجاحة العقل، وحسن التدبير، ومعرفة طرق القتال والانقضاض على الخصوم والأعداء فى التوقيت المناسب.

وقد روى أنه كان سببا رئيسا فى تحول ميزان القتال فى غزوة أحد لصالح مشركى مكة بعد أن أيقن المسلمون بالنصر، وانصرفوا إلى جمع الغنائم، وإذ به يتجه مع رفاقه إلى قمة فى جبل أحد، فتظهر ملامح التحول فى مسيرة القتال، فلما أعلن إسلامه ، فرح الرسول وأصحابه بذلك فرحا عظيما، وخاطبه الرسول ﷺ وقال له : "أنت سيف من سيوف الله، سله على المشركين" لقد كان النصر حليفه فى كل غزوة شارك فيها فاستحق أن يطلق عليه لقب سيف الله عن جدارة؛ لما اشتملت عليه نفسه من البطولة الخالدة التى لا تهاب الصعاب، ولا تخشى الأعداء، وننقل عنه كلمة خاطب جنوده بها فى حرب (اليرموك) قال :

"إن هذا يوم من أيام الله لا ينبغى فيه الفخر ولا البغى، أخلصوا جهادكم، وارضوا الله بعملكم، فإن هذا يوم له ما بعده".

كانت أمنيته ﷺ أن يموت شهيدا فى ساحة القتـال، ولكـن هـذه الأمنية لم تتحقق، فمات على فراشه وبين أهله، وترك كلمة تعبر عـن تلك الرغبة وتوحى بنهاية عمره فقال فيها: "لقد شهدت مائة غـزو أو زهاءها، وما فى بطنى إلا ضربة بسيف أو رمية برمح، والآن أمـوت على فراشى كما تموت البعير، فلا نامت أعين الجبناء"٠

واشتمل الجهاد أبطالا كثيرين من قواد الأمة الذين جابوا معظـم دول العالم فى كل اتجاه، مما أسهم فى اتساع مساحة العالم الإسـلامى ارتفع فيها لواء الحق وقول "الله أكبر"٠

لقد استمر الجهاد فى العصر الحديث بأبعاد ورؤى جديـدة كـان القتال للدفاع عن الدين والوطن يمثل جانبا مهما فـى مسـيرة الحيـاة الإسلامية والعربية أما الذى أسف الناس له كثيرا فهو إسـاءة الفهـم لدلالات الجهاد إذ ليس الجهاد قاصرا على القتال دفاعا عـن الـوطن والدين، وحماية للمقدسات، بل يشتمل ذلك وأكثر منه إذ ينطوى تحتـه الدفاع الحق ، والصبر على المكاره، وبذل المـال فـى سـبيل الله ، والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر ، وتعلم العلم ونشره، والـدعوة إلى الله بالحسنى ومجابهة المهاجمين للإسلام، والرد عليهم بما يحفـظ للإسلام حقه فى كونه آخر رسالة من الله إلى الناس٠

أما الذين ينحرفون بالجهاد عن هذه المعانى فـإنهم لا يخـدمون الدين، وإنما يسيئون إليه فنسمع ونقرأ عمن يقتلون من يخـالفهم فـى الرأى، ويسمون ذلك جهادا، أو يهددون أرواح الضعاف مـن النسـاء

والأطفال لمجرد علاقة قد تربط هؤلاء بمن يختلف معهم فى الرأى، أو ينهبون أموال الآخرين لتوظيفها فى خدمة مخططاتهم، وتحقيق أبعـــاد تفسيراتهم الخاطئة، وهذا النوع من الانحراف الذى يطلق عليه الغافلون عن سماحة الإسلام جهادا، وشجاعة، وليس ذلك من الجهاد فى شــــىء بل هو انحراف، وإضلال ، وتضليل للرؤية الإسلامية الصحيحة.

ونعتقد أن هذا التوجه شديد الضرر، عظيم الخطر، سيىء النتائج، يلحق بالدعوة الإسلامية من الأذى أكثر ممـــا يلحقهـــا مـــن الأعــداء والخصوم الذين يجاهرون بإساءتهم إلى الإسلام سائلين المولى سبحانه وتعالى أن يعيننا على تصحيح المفاهيم ، وتبصير الأجيـــال الجديـــدة بحقيقة الجهاد فى الإسلام .

غزوة بدر الكبرى

ذكرنا فى موضع سابق ما هو معلوم فى مسيرة الدعوة الإسلامية من أن الجهاد فى مكة كان مقتصرا على الكلمـــة الهادئـــة، والحكمـــة الرشيدة، والموعظة الحسنة، ولم يؤمر الرسول هو وأصحابه بالجهـــاد إذ لم يكن لديهم من الاستعداد ــ وهم قلة مستضعفة ــ ما يمكنهم مـــن التلاحم القتالى بأية صورة من الصور ، فلما كانـــت الهجـــرة شـــغل الرسول ﷺ بتأسيس مجتمع إسلامى جديد تحكمه قواعد وأصول واضعا فى اعتباره تاريخ يثرب واختلاف الأهواء فيها بين قبائل اليهـــود، ثـــم بين الأوس والخزرج، فانطلق من حيز العهود والمواثيق إلـــى نطـــاق التطبيق العملى الواسع، وبدأ المهاجرون بخاصة يسعون فـــى الأرض للتجارة، وإحياء الأرض للزراعة، وممارسة بعض النشاطات الأخرى، لكن المدينة كانت فى حاجة دوما إلى تأمين لحدودها؛ حتى يحيا الناس فى بحبوحة من الأمن والأمان، وكان لسرايا المسلمين تأثير بالغ فضلا عن تحقيق الأمن، وهو الإشعار بأن المدينة قد تغيرت ، وأن بها قـــوة جديدة شعارها الإسلام، وقائدها محمد ﷺ ٠

وقد خرج الرسول ﷺ إلى عدد محدود من الغزوات التـــى كـــان معه فيها جمع قليل من الصحابة، فقد ذهب إلى غزوة العشيرة، وعـــاد منها إلى المدينة، وأقام فيها أياما، فأغار [كرز بن جابر القهرى] علـــى سرح[١] المدينة، فخرج الرسول فى طلبه، حتى بلغ واديـــا يقـــال لـــه

---

(١) سرح المدينة : أى مواشيها ٠

سفوان ، من ناحية بدر ، وفاته كرز بن جابر ، إذ لم يدركه، وهى غزوة بدر الأولى، أو الصغرى، ثم عاد ﷺ إلى المدينة[١].

أما غزوة بدر الكبرى فهى أول مواجهــة قتاليــة ذات اســتعداد ونظام خاص بين جيش المسلمين ومشركى مكة أسفرت عــن نصــر حاسم للمسلمين، مما جعلها حادثا فارقا فى تاريخ الأمــة الإســلامية، فأصبحت عيدا يهنأ الناس به فى السابع عشر من شهر رمضـــان كــل عام هجرى، إذ تحقق فيها ما لم يتحقق فى السرايا والغــزوات التــى تقدمت عليها، وقد أسهمت بصورة كبيرة فى الإعلان عن قــوة الــدين الإسلامى بعد أن استقر الرسول فى المدينة .

أسباب الغزوة:

وصلت الأنباء إلى المدينة أن قافلة تجارية ضخمة فى طريقهــا من الشام إلى مكة يحملها ألف بعير، ويقودها أبوســفيان بــن حــرب بحراسة عدد من الرجال ، ما بين الثلاثين والأربعين، وشعر المسلمون بعد دراسة هذا الأمر ، وتقليبه على كافة وجوهه أنهــم لــو خرجــوا ونالوها أو حصلوا منها على شيء فسوف يكون ذلك تعويضا عما لحق بالمسلمين من خسائر أثناء الهجرة، ثم قال الرسول لأصــحابه: "هــذه عير قريش، فيها أموالهم، فاخرجوا إليها، لعل الله ينفلكموها"[٢].

---

(١) انظر السيرة النبوية لابن هشام جـ٢ صـ٣٩٧ .

(٢) حديث صحيح رواه ابن هشام عن ابن إسحاق . انظر فقه الســيرة لمحمــد الغزالى .

وترك الرسول الرغبة فى الخروج مطلقة، وغير مقيـدة، فخـف بعضهم، وثقل بعضهم على اعتقاد أن خروجهم لم يكن بالصورة التـى فى ذهن رسول الله ﷺ ، من ضرورة التحرك لهذه المقابلة التـى لـم يألفوها فى السرايا والغزوات السابقة.

أما أبو سفيان فلما علم، وقد دنا من الحجاز أن خطرا يهدد قافلته، وأن محمدا قد استنفر أصحابه لذلك، فاستأجر رجلا يسمى [ضمضم بن عمرو الغفارى] فبعثه إلى مكة، وأمره أن يخبر قريشا بما كان من أمر محمد ﷺ ، فخرج الرجل سريعا إلى مكة، وقـد اسـتطاع أن يـزعج القرشيين جميعا فوقف على بعيره بعد أن جدع أنفه، وحـول رحلـه، وشق قميصه، وأخذ يصرخ ببطن الوادى : "يا معشر قريش، اللطيمـة اللطيمة، أموالكم مع أبى سفيان قد عرض لها محمد فى أصـحابه ، لا أرى أن تدركوها، الغوث الغوث"(١).

وتجهز الناس للخروج، وهم إما خارج وإما باعث مكانه رجـلا، وأجمعوا المسير، وهم يمتلئون غضبا، ومعهم الفرسان والقيان وسـائر المتطلبات وهم بعيدون عن مكة.

أما أبو سفيان فقد أدرك أن خطرا يهدد تجارته، فغير طريق سير القافلة؛ حتى يؤمنها من الراغبين فيها، ونجح فى ذلك بحنكته الكبيـرة ومعرفته ومن معه بسائر الطرق التى تربط بين الشام ومكة.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام جـ٢ ص ٤٠١ ، ٤٠٣ .

وكان أهل قريش قد اجتمعوا فى دار الندوة، وتحدث فيها عتبة بن ربيعة الذى كان يرفض قتال محمد وأصحابه، وقال إن سائر العـرب يمكن أن يكون بينهم من ينهض بإصابته وإلحاق الضرر به .

أما أبوجهل فقد استشاط غضبا لمقولـة عتبـه، وسـيطر عليـه الغرور، وتملكته الرغبة فى الانتقام، فصمم على الخـروج لملاقـات محمد، وردعه وتأديبه.

وقد رأى أبوسفيان أنه ما دام قد نجا بالقافلة وأفلت بها، وتجـاوز أمكنة الخطر، فأرسل إلى قريش قيس بن امرئ القيس، يخبرهم بنجاته ويدعوهم للرجوع راغبا فى الحفاظ على قريش، وتجنب القتال.

فقال أبوجهل : "والله لا نرجع حتى نرد بدرا، فنقيم ثلاثا، ننحـر الجذور، ونطعم الطعام، ونسقى الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسـمع بنا العرب ، وبسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبدا".

وتحرك القرشيون فلما وصلوا إلى الجحفة رجع منهم بنو زهـرة وواصل الجيش مسيرته، فلما بلغوا ثنية لفت[١]، رجع بنو عـدى ابـن كعب منصرفين إلى مكة فلم يشهد بدرا أحد من بنى زهرة ولا من بنى عدى[٢].

---

(١) ثنية لفت : بين مكة والطائف واختلف فى ضبط لفت بـين تسـكين ألفـاء وفتحها أو كسر اللام مع السكون.

(٢) انظر الطبقات الكبرى لابن سعد جـ٢ صـ١٥ .

وقد علم الرسول ﷺ بتحرك القرشيين، وتصميمهم على القتـــال، فاستشار أصحابه للخروج من المدينة خاصة بعد أن أفلتت القافلة بحيلة أبى سفيان وخبرته، لكنه قبل أن يستقر رأيه تماما اجتمع مـــع صـــفوة القوم من المهاجرين والأنصار للاستشارة؛ حتى يتخذ قرارا فى ظـــل قيادته للدولة الوليدة، ووضع بذلك قاعدة إسلامية حكيمة فى المشورة، وحسن التصرف، وتقدير أهل الخبرة؛ حتى يكون التحرك نابعـــا مـــن المهاجرين والأنصار على السواء.

الشورى فى أمر الخروج لغزوة بدر :

اجتمع الرسول ﷺ بأصحابه وأخبرهم عن قريش واستشارهم فى أمر الخروج فقام أبوبكر الصديق ﷺ وتحدث معلنا رأيه بالموافقة على ملاقاة قريش، وأحسن القول، ثم أعقبه عمر بن الخطاب وكان رأيه لا يختلف عن رأى أبىبكر ، ثم قام المقداد بن عمرو فقال : "يا رســـول الله امض لما أراك الله، فنحن معك، والله لا نقول لـــك كمـــا قالـــت بنوإسرائيل لموسى ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾[(١)] ولكن نقول اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، فوالذى بعثـــك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد[(٢)] لجالدنا معك من دونـــه، حتـــى تبلغه ، فقال له النبى خيرا ، ودعا له "[(٣)] واعتبرت كلمة المقداد معبرة عن جمهرة المهاجرين.

---

(١) المائدة ٢٤ .
(٢) برك الغماد : موضع باليمن ، أو أقصى معمور الأرض، وقيل إنها الحبشة.
(٣) السيرة النبوية لابن هشام جـ٢ ص ٤٠٧ ، وقصص القرآن ص ٣٤٣ .

أما الرسول ﷺ فقد كان ينتظر كلمة الأنصار، وذلك أنهـم عـدد يمثل الأكثرية فى المسلمين وأنهم ــ كما ذكر ابن هشام ــ حين بايعوه بالعقبة قالوا: يا رسول الله : إنا برءاء من ذمامك حتـى تصـل إلـى ديارنا، فإذا وصلت إلينا فأنت فى ذمتنا ، نمنعك مما نمنع منه أبناءنـا ونساءنا، فكان رسول الله يتخوف ألا تكون الأنصار ترى عليها نصره إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه، وأن ليس عليهم أن يسير بهـم إلـى عدو من بلادهم، فلما قال ذلك رسول الله ﷺ قال له سعد بن معاذ، وهو من الأنصار : "والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال أجل، قـال: فقـد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك علـى ذلك عهودنا ومواثيقنا، على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك، فوالذى بعثك بالحق، لو استعرضت بنا هذا البحـر فخضته ، لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقـى بنا عدونا غدا، إنا لصبر فى الحرب، صدق فى اللقاء، لعل الله يريـك منا ما تقربه عينك، فسر بنا على بركة الله، فسر رسول الله ﷺ بقـول سعد ونشطه ذلك، ثم قال : سيروا وأبشروا فإن الله تعالى قد وعـدنى إحدى الطائفتين[١]، والله لكأنى الآن أنظر إلى مصارع القوم".[٢]

وخرج جيش المسلمين من المدينة تـودعهم النفـوس الظامئـة للنصر، والقلوب الواثقة فى عـدل الله، والـدعوات الصـالحة ممـن أعجزتهم الحيلة عن المشاركة، وأمام الجيش رايتان سوداوان إحداهما

(١) إحدى الطائفتين: أى القافلة أو النصر فى الحرب.
(٢) السيرة النبوية لابن هشام جـ٢ ص ٤٠٨ .

مع على بن أبى طالب، والأخرى مع رجل من الأنصار هو سعد بن معاذ، وكان قوام جيش المسلمين فى حدود ثلاثمائة وأربعة عشر مجاهدا منهم ثلاثة وثمانون من المهاجرين، ومائتان وواحد وثلاثون من الأنصار (من الأوس واحد وتسعون، ومن الخزرج مائة وأربعون)٠

كما كان معهم ثلاثة أفراس، وسبعون بعيرا، وكان كل ثلاثة أو اربعة يتعاقبون على بعير، وكان الرسول ﷺ ، وعلى ، وأبو لبابة يتناوبون على بعير واحد حتى إن عليا وأبا لبابة عرضا على الرسول أن يركب ويمشيا، فقال : "ما أنتما بأقوى منى على المشى، وما أنا بأغنى عن الأجر منكما"[١]، وكان الخروج بعد ثمانى ليال مضين من شهر رمضان فى السنة الثانية من الهجرة، وهم يقصدون الموقع المختار للقتال والمواجهة وهو بدر التى تبعد عن المدينة بما يقارب مائة وستين كيلو مترا، ولما سار الجيش محفوظا برعاية الله لقى رجلا من الأعراب سألوه عن أخبار تحرك قريش فلم يجدوا عنده خبرا، واستمر الجيش فى مسيرته، فلما كانوا قريبا من موقع بين جبلين يعرف بالصفراء، بعث رسول الله ﷺ على بن أبى طالب، والزبير بن العوام ، وسعد بن أبى وقاص فى نفر من أصحابه إلى ماء بدر يلتمسون أخبار أبىسفيان وقافلته، وجيش قريش بقيادة أبىجهل ، ثم

---

(١) رواه أحمد فى المسند، وسنده حسن، وأخرجه الحاكم وقال : "حديث صحيح على شرط مسلم"، وجاء فى السيرة النبوية لابن هشام أن الرجلين اللذين كانا مع رسول الله ﷺ فى التعاقب على البعير هما: على بن أبى طالب، ومرثد بن أبى مرثد الغنوى ٠

عادوا وأخبروا الرسول بأن القرشيين ليسوا بعيدين عن بدر، وأن عددهم قد يصل إلى الألف، وفيهم عدد كبير من أشرافها، وقد غيرت هذه الأخبار من طبيعة الأمر الذى سيقدم عليه المسلمون، وهو أنهم سيكونون أمام عدو، لابد أن يلتحموا معه فى حرب ويشتبكوا معه فى قتال، وكان الرسول ﷺ قد قسم الجيش إلى ثلاثة ألوية لواء المهاجرين ويتبع مصعب بن عمير، ولواء الخزرج ويحمله الحباب بن المنذر، ولواء الأوس ويحمله سعد بن معاذ.

وعرف الرسول وأصحابه بنجاة أبى سفيان بالقافلة، وأن قريشا لازالوا مستمرين فى تحركهم لقتال محمد ﷺ وأصحابه، وسار جيش الإسلام شاقا طريقه بين الصحراء حتى إذا كان أدنى من ماء بدر نزلوا به، فلما تجمع الجيش فى مكان نزوله، وشرب الناس من الماء، وهدأت الأعصاب من الرحلة، وتجمعت النفوس على الإيمان والمحبة كان لبعض الصحابة رأى فى مكان النزول.

الرأى والمشورة فى موضع نزول المجاهدين ببدر ومكان رسول الله ﷺ :

كان استقرار الجيش أمام ماء بدر ، وذلك بتصرف تلقائى من الرسول وأصحابه، لكن الحباب بن المنذر بن الجموح كان له رأى آخر عرضه على رسول الله ﷺ إذ قال له: "يا رسول الله أرأيت هذا المنزل أمنزلا أنزله الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه، أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟

قال : بل هو الرأى والحرب والمكيدة، فقال: يا رسول الله فــإن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتى أدنى ماء من القوم، فننزله، ثم نغور[١] ما وراءه من القلب، ثم نبنى عليه حوضا فنملؤه مــاء، ثــم نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون، فقال رسول الله ﷺ : لقــد أشــرت بالرأى، فنهض رسول الله ﷺ ومن معه من الناس، فسار حتى إذا أتى أدنى ماء من القوم نزل عليه، ثم أمر بالقلب فغورت، وبنــى حوضــا على القليب الذى نزل عليه، فملئ ماء، ثم قذفوا فيه الآنية"[٢].

ولا زال الرسول ﷺ يستقبل الرأى من أصــحابه فيمــا يتصــل باستقرار الجيش ، والاستعداد للقتال، لكن الرأى عرضه سعد بن معاذ كان رأيا وجيها ؛ لأنه يعبر عن مدى حــب المســلمين لرســول الله، وحرصهم على أمنه وسلامته، إذ أشار بإقامة رسول الله فى مكان آمن بعيدا عن أذى المشركين، فقد حدث عبدالله بن أبىبكر : "أن سعد بــن معاذ قال : يا نبى الله، ألا نبنى لك عريشا[٣] وتكون فيه ، ونعد عندك ركائبك، ثم نلقى عدونا، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلــك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى؛ جلست على ركائبــك، فلحقــت بمــن وراعنا، فقد تخلف عنك أقوام، يا نبى الله،ما نحن لك بأشد حبا مــنهم، ولو ظنوا أنك تلقى حربا ما تخلفوا عنك، يمنعك الله بهم، يناصــحونك

---

(١) التغوير : الدفن والطمس .
(٢) السيرة النبوية لابن هشام جـ٢ صـ٤١١ ، ٤١٢ .
(٣) العريش : شبه الخيمة يستظل به .

ويجاهدون معك .. فأثنى عليه رسول الله ﷺ خيرا، ودعا له بخير . ثم بنى لرسول الله ﷺ عريش، فكان فيه"[١].

لقد كان سعد بن معاذ مشغولا بالرسول حريصـــا عليـــه، شـــديد التعلق به، مخلص الرأى والنصيحة لنبى الأمة محمد بن عبدالله، ولـــم ينس وهو يعرض رأيه أن يحدد للرسول طريقة خروجه مـــن ســـاحة القتال فى حالة وقوع هزيمة، كما لم يغب المسلمون فى المدينـــة عـــن ذاكرته الذين كانوا فى حاجة للإسلام ورسوله بمثـــل حاجـــة هـــؤلاء المقيمين فى بدر ، لولا أن بعضهم لم يكن يقدر الأمر بهذه الكيفية التى أصبح الجيش فيها، فضلا عمن تخلفوا لظروفهم التى لم يتيسر معهـــا السفر والمشاركة، مما يعطى انطباعا بأن الدعوة فى مراحلها الأولـــى لم تكن خاضعة للارتجال أو لتشدد الرسول واستقلاله بالرأى، أو لتحكم حاشية من أصحابه يلتفون حوله، ويستقلون بالرأى من دونـــه، ومـــن سائر المسلمين، كما كان الرسول ﷺ حريصا على تلاحـــم المكونـــات الاجتماعية القديمة، وهى جماعات المهـــاجرين والأوس والخـــزرج، وربما كان تخلف اليهود بزعم أن تعاهدهم مع الرسول كان للدفاع عن المدينة وليس للمواجهة بعيدا عنها بعد ما بين بدر والمدينة.

وقد تمخضت هذه التوجهات عن نتائج إيجابيـــة أســـفرت عـــن الحرص على الجهاد ، والعزم الصادق على حماية الإسلام ، وتثبيت بذور الدعوة الجديدة فى كل موقع يحلون به ويشاركون فيه .

---

(١) المصدر السابق حـــ٢ ص ٤١٢ .

أما جيش قريش فكان قد اقترب من بدر بمكوناته التـــى تشـــتمل على ألف مقاتل ، ومائة فرس وعدد من البعير فى حـــدود ســـبعمائة ، وكما كان معهم بعض الجوارى والمغنيات ؛ ليغنـــين لهـــم ، ويثـــرن الحماسة فيهم ٠

ولما استقر الجيشان كانت قريش حريصة على معرفة ما بحوزة الرسول وأصحابه، ولكن جواسيسهم كانت تحمل إليهم ما يســـوؤهم ، ويحذرهم من التهاون؛ حتى لا يقعوا فى هزيمة لا تستقيم لهـــم الحيـــاة بعدها ، وقد جعل ذلك نذير شر عندهم، ثم بدءوا فى استعراض القوة ، إذ زين الشيطان لهم أنهم غالبون ، وما هى إلا جولة خفيفة ســـريعة؛ حتى ينتقموا من عدوهم ، ويقضوا على طموحاتهم التى خرجوا بها من المدينة ٠

قال تعـــالى : ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ﴾ (١) .

ثم اصطفوا صفوفا يستعرضون فيها قوتهم أمام المسلمين فما كان من المسلمين إلا أن اصطفوا هم كذلك، ووقف الرسول ﷺ يسوى بـــين صفوف جيشه، ويقدم لهم المواعظ التى تحضهم على القتـــال ، وممـــا قاله ﷺ : "أما بعد فإنى أحثكم على ما حثكم الله عليه، وأنهـــاكم عمـــا

(١) الأنفال ٤٨ ٠

نهاكم عنه، فإن الله عظيم شأنه، يأمر بالخير ويحب الصدق، ويعطى الخير أهله على منازلهم عنده، وإنكم قد أصبحتم بمنزل من منازل الحق، لا يقبل الله فيه من أحد إلا ما ابتغى به وجهه، وإن الصبر فى مواطن البأس مما يفرج الله به الهم، وينجى به من الغم، وتدرك به النجاة فى الآخرة، فيكم نبى الله يحذركم ويأمركم فاستحيوا اليوم أن يطلع الله ــ عزوجل ــ على شيء من أمركم يمقتكم عليه، فإن الله يقول : ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾............" (١).

وكان ذلك يوم الجمعة فى صباح السابع عشر من رمضان فى السنة الثانية من الهجرة.

ذكر ابن إسحاق قال:وقد خرج الأسود بن عبدالأسود المخزومى، وكان رجلا شرسا سيىء الخلق فقال : أعاهد الله لأشربن من حوضهم، أو لأهدمنه، أو لأموتن دونه، فلما خرج، خرج إليه حمزة بن عبدالمطلب، فلما التقيا ضربه حمزة فأطن قدمه بنصف ساقه، وهو دون الحوض، فوقع على ظهره تشخب رجله دما نحو أصحابه، ثم حبا إلى الحوض حتى اقتحم فيه، يريد أن يبر يمينه، وأتبعه حمزة فضربه حتى قتله فى الحوض"(٢) فكان الأسود أول قتيل للمشركين فى بدر، ثم ابتدأ القتال بالمبارزة فتقدم عتبة بن ربيعة وعن يمينه أخوه شيبة وعن شماله ولده الوليد، واتجهوا صوب المسلمين، وسألوا النبى أن يرسل

---

(١) غافر ١٠ .
(٢) السيرة النبوية لابن هشام جـ٢ صـ٤١٥ .

إليهم أكفاءهم من قومهم؛ ليبارزوهم، فأرسل إليهم عمه حمزة بن عبدالمطلب وابن عمه على بن أبىطالب، وعبيدة بن الحارث، أما حمزة فقد انقض على شيبة، ولم يمهله حتى قتله وكذلك قتل (على) الوليد، وأما عبيدة وعتبة فكلاهما جرح صاحبه، ثم حمل حمزة وعلى على عتبة وقتلاه، وانتهت هذه الجولة بجذلان المشركين، فضلا عن انعكاس هذه الضربات المؤثرة على كثير من معنويات جيش قريش ، وأخذ الرسول ﷺ يعظ المسلمين ويدعو لهم، ومن قوله ﷺ : "لا تحملوا على عدوكم حتى آمركم، وإن أحاط بكم القوم فارموهم بالنبل، ولا تسلوا السيوف حتى يخالطوكم، ثم رجع ﷺ إلى مركز القيادة يدعو ربه وكان معه أبوبكر الصديق وعلى باب العريش سعد بن معاذ لحراسته، والمحافظة عليه، وهو متوشح سيفه ومعه جماعة من الأنصار يشاركونه فى الحراسة خوفا على رسول الله من هجوم الأعداء، وكان الرسول ﷺ فى حالة من الكرب والشدة والضيق والمعاناة إذ أنه الموقف الأول فى حياته الذى وضع فيه قائدا لجيش منظم حتى لو كان عدده قليلا بالنظر إلى مشركى مكة، فلم ينقطع عن دعاء ربه، ولم يجعل طموحه محصورا فى إلحاق الضرر بالنفوس التى تربت جميعا على أرض مكة ثم فرقت الدعوة بين المسلمين والمشركين، وتجمعوا ليس للوفاق، وإنما للقتال الراغب فيه أهل مكة، الكاره له أهل المدينة، ولذلك انصرف بعد مشاهداته للجيشين ــ قبل اشتباكهما ــ إلى ربه متوجها بهذا الدعاء : "اللهم إنى أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن تهلك هذه العصابة[١] اليوم

---

(١) العصابة: الجماعة ويقصد بها جماعة المسلمين ٠

لا تعبد، اللهم نصرك الذى وعدتنى، اللهم ارعب قلوبهم، وزلزل أقدامهم"، وكان الرسول ﷺ قبل أن يشتبك الجيشان كثير الدعاء إلى ربه شديد التضرع إليه سبحانه أن ينصر المسلمين فى هذه المواجهة مع أهل مكة الذين لم يكن يدور بتفكيرهم أن محمدا سيلقاهم بجيش منظم ومرتب على هذه الصورة، كما لم يكن بحسابات الرسول وأصحابه وهم يحيون مرحلتهم الأولى بالمدينة أن مواجهة قتالية على هذا القدر من الأعداد والعتاد ستكون مع أهل مكة فى جيش يقوده أبوجهل، وفيهم كثير من أقارب الرسول، ومن أقارب أصحابه حيث شاءت إرادة الله ان يلتقى فى هذه الغزوة هؤلاء الذين عاشوا وتربوا فى مكان واحد ٠

وكان الرسول شديد الخوف والإشفاق على المسلمين من نتائج القتال فى هذا اليوم، وكان دائما يناجى ربه ويبالغ فى التوبة والدعاء والابتهال، وهو مستقبل القبلة، حتى كان الرداء يسقط على منكبيه فيعيده أبوبكر، ويهيب به قائلا له "يا نبى الله بعض مناشدتك ربك فإن الله منجز لك ما وعدك ، ولكن الرسول ﷺ كان لا يتوقف عن التضرع والاستعانة بالله على تحقيق النصر فى هذا اليوم، ثم أخفق خفقة من النعاس رأى فيها نصر الله وقد تحقق للمسلمين ، فخرج من العريش محرضا الناس على القتال قائلا لهم : "والذى نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا مقبلا على الله إلا أدخله الله الجنة"٠

وقد تحدث ابن سعد فى الطبقات عن بدء المعركة فقال: "وجـاء عمير بن وهب فناوش المسلمين، فثبت المسلمون على صـفهم، ولـم يزولوا، وشد عليهم عامر بن الحضرمى، ونشبت الحرب، فكـان أول من خرج من المسلمين مهجع ـ مولى عمر بن الخطاب ـ فقتله عامر ابن الحضرمى، فكان أول شهيد للمسلمين فى بدر .

أما أول شهيد من الأنصار حارثة بن سراقة، ويقال قتله حباب بن العرقة، ويقال: عمير بن الحمام ـ قتله خالد بن الأعلم العقيلى"[١].

ويلاحظ أن المؤرخين لم يتفقوا على تحديد بداية القتال مـن أيـة ضربة أو مناوشة، بل كانت البداية عندما هجم الأسود بن عبدالأسـود على الحوض وقتل فيه، أو عندما برز عتبه وشيبة ابنا ربيعة والوليـد ابن عتبة للتحدى وطلب المبارزة، أو عندما ناوش عمير بـن وهـب المسلمين، أو سوى ذلك.

لكن الجيشين قد التحما، واستشاط الكفار غضبا للبداية السيئة التى ووجهوا بها خاصة بعد مقتل عتبة وشيبة والوليد، فأمطروا المسـلمين وابلا من سهامهم، ثم حمى الـوطيس وتهـاوت السـيوف وتصـايح المسلمون أحد أحد، وأمرهم الرسول ﷺ أن يكسروا هجمات المشركين، وهم مرابطون فى مواقعهم وقال : "إن اكتنفكم القوم فافضحوهم عـنكم بالنبل، ولا تحملوا عليهم حتى تؤذنوا"[٢].

---

(١) الطبقات الكبرى جـ٢ صـ١٩، ٢٠ .

(٢) عن هامش فقه السيرة رواه ابن إسحاق بدون سند، وفى البخارى عن أسيد، برواية أخرى لهذا الأمر .

وقال الشيخ محمد الغزالى عن حركة سير المعركة: "فلما اتسع نطاق المعركة، واقتربت من قمتها كان المسلمون قد استنفدوا جهد أعدائهم، وألحقوا بهم خسائر جسيمة. والنبى فى عريشه يدعو الله، ويرقب بطولة رجاله وجلدهم. قال ابن إسحاق : خفق النبى عليه الصلاة والسلام خفقة ثم انتبه فقال : "أبشر يا أبىبكر أتاك نصر الله هذا جبريل آخذ بعنان فرسه يقوده على ثنايا النقع".

لقد انعقد الغبار فوق رؤوس المقاتلين، وهم بين كر وفر، جند الحق يستبسلون لنصرة الرحمن، وجند الباطل قد ملكهم الغرور فأغراهم أن يغالبوا القدر فلا عجب إذا نزلت ملائكة الخير تنفث فى قلوب المسلمين روح اليقين، وتحضهم على الثبات والإقدام"(١).

وما زال الرسول ﷺ متنقلا بين مكان القيادة وصفوف المقاتلين يشد من أزر هذا، ويحمس ذاك، ويدعو للجميع، ولا يتوقف عن تعقب كل صغيرة وكبيرة تحدث فى ساحة المعركة وقد نزلت عليه ما يخص حالته مع أصحابه آيتان كريمتان هما قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ۝ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ

(١) فقه السيرة صـ٢٢٦ ، ٢٢٧ .

فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ (١) .

ذكر القرطبى بعد تفسيره لهاتين الآيتين ما يأتى : " فلما خفف الله تعالى عنهم من العدد نقص من الصبر بمقدار ما خفف عنهم " (٢)

وقد كانت رغبة الرسول فى النصر لا حدود لها، ولـذلك سـعى بين المقاتلين لزيادة القوة المعنوية بما يسهم فى زيادة قوتهم الماديـة، وفى غمرة هذه الحماسة نزل قول الله تبارك وتعالى: ﴿ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ (٣) وقولـه تعـالى: ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٤).

كان المسلمون يقاتلون بكل ما وسعهم من جهد، ولـم يفـل مـن عزيمتهم أن يسقط من بينهم شهيد عند احتدام القتال، بل كـان سـقوط الواحد يدفعهم إلى مزيد من الرغبة فى النصر، وتحقيق الغلبـة علـى

---

(١) الأنفال ٦٥ ، ٦٦ .
(٢) تفسير القرطبى الجزء الثامن ص ٤٤ .
(٣) الأنفال ١٢ .
(٤) الأنفال ١٧ .

هؤلاء الذين جاءوا إليهم؛ لينتقموا منهم على مقربة من يثرب الطيبة، كما أن سقوط بعض القتلى من المشركين كان يقوى الأمل فى نفوس المسلمين فى تحقيق الانتصار على أبىجهل ورجاله فى هذا اليوم الخالد فى تاريخ الإسلام.

وروى أحمد فى مسنده أن المشركين لما دنوا قال الرسول لأصحابه : "قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض فقال عمير بن الحمام الأنصارى: يا رسول الله جنة عرضها السموات والأرض قال نعم . قال : بخ بخ[1]، فقال رسول الله وما يحملكم على قول بخ بخ؟ قال: لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها! قال: فإنك من أهلها ...

فأخرج تمرات من قرنه فجعل يأكل منهن. ثم قال لئن أنا حييت حتى آكل تمراتى هذه إنها حياة طويلة، فرمى ما كان معه من التمر ثم قاتلهم وهو يقول :

ركْضاً إلى الله بغير زاد ∴ إلا التُقى وعملَ المعاد

والصبرَ فى الله على الجهاد ∴ وكل زادٍ عُرْضةُ النفاد

غيرَ التقى والبر والرشاد

---

(١) بخ بخ : أى حسن حسن .

فما زال حتى قتل[١].

واستمر الرسول يسير وسط المعمعة، وملك الموت يتمشى خلال صفوف المقاتلين، والرسول على حالته من القلق مع أن بوادر النصر تلوح للمسلمين، لكن المعركة لم تنته بعد، فأخذ حفنة من الحصباء واستقبل بها قريشا وقال : "شاهت الوجوه، ثم ألقاها عليهم وفى وجهتهم وأمر أصحابه فقال لهم شدوا، وشد المسلمون وما يزالون بمعيار القلة والكثرة أقل من المشركين عددا، لكن كل واحد منهم امتلأت نفسه بنفحة من أمر الله فلم يكن هو الذى يقتل العدو ولا كان هو الذى يأسر منهم من يأسر، فكانت هذه النفحة بمثابة قوة معنوية جديدة أضيفت إلى القوى المعنوية المتعددة فى هذا القتال.

وننتقل إلى جانب آخر حيث كان أبوجهل فى قلق على ما لاح فى الأفق من علامات الانكسار ، وكثرة سقوط القتلى فى الميدان خاصة ممن يمثلون قوة وثقلا على نفوس القرشيين، وأخذ يحرض المشركين على القتال راغبا فى إيقاف سير الهزيمة النازل بقومه، فأقبل يصرخ بهم ،وغشاوة الغرور ضاربة على عينيه: "واللات والعزى لا نرجع حتى نفرقهم فى الجبال خذوهم أخذا"، ولكن ماذا نفعل هذه الصيحات أمام قوة المسلمين التى تزداد على مدار اليوم، وكان أبوجهل تمثالا للعناد إلى آخر رمق ، والطمس المنسوج على بصيرته جزء من كيانه لا ينفك عنه أبدا، لذلك أقبل يقاتل فى شراسة وغضب وهو يقول :

---

(١) فقه السيرة للشيخ محمد الغزال صـ٢٢٨ .

ما تنقمُ الحربُ الشَّمُوسُ منى؟ ∴ بـازل عـامين حـديثُ سـنِّى
لمثلِ هذا ولدتْنى أمى

وذكر الشيخ محمد الغزالى فى الموقف ذاته: "وأحاطت به فلـول المشركين يقولون: أبوالحكم[١] لا يخلص إليه، فكان بينهم وسط غابـة ملتفة. بيد أن هذه الغابة لم تلبث أن تهاوت جذعا جذعا أمـام حمـاس المؤمنين الذى اشتد بأسهم، وأغرتهم بشائر الفوز، وساد هتافهم الموقعة وهم يقولون ؛ أحد أحد"[٢].

وقد تحدث بعض الصحابة عن مقتل أبىجهل فى هـذه الغـزوة وكانت نهاية هذا العدو لله والرسول على يد اثنين من الفتيان حـديثى السن ، إذ ضرباه حتى أوشك على القتل ، وكانت نهايتهما الشهادة فى هذه الواقعة، فوقف رسول الله ﷺ على مصـرعيهما يـذكر صـنيعها ويدعو لهما بخير .

ومر عبدالله بن مسعود بالقتلى فوجد أبا جهل بين الحياة والموت، فجسم على صدره يريد القضاء عليه، وتحرك أبوجهل فى حالته التـى توشك على النهاية سائلا عبدالله بن مسعود لمن الدائرة اليوم؟ فرد عليه ابن مسعود قائلا: لله ورسوله .

ثم أخذ عبدالله يهوى عليه بسيفه حتى قضى عليه ، وذكـر ابـن إسحاق كلاما آخر عما قاله ابوجهل لابن مسعود قبل استكمال مـوت

---

(١) أبوالحكم : هو أبوجهل .
(٢) فقه السيرة صـ٢٢٩ .

أبىجهل لا نريد إطالة البحث فيه[١] وهكذا كانت نهاية أبىجهل علـــى أرض بدر ·

وكان تاريخ أمية بن خلف مع بلال بن رباح فى مكـــة لا يخفـــى على المتابعين لمسيرة الدعوة فى سنواتها الأولى، خاصة أن بلالا كان عبدا ضعيفا لا حول له ولا قوة، ولا يملك قدرة الدفاع عن نفسه فـــى ظل جبروت أمية، ولهذا كانت الأحداث القديمة محفورة فى ذهن بلال، ولم تستطع الأيام أن تمحها من أعماقه؛ لأنه عذب فيها أشد التعـذيب ونال أثناءها من التنكيل والاضطهاد ما لا يقدر عليه بشر، فلما كانـــت غزوة بدر واتجهت مسيرة القتال نحو نهايته فضلا عن بعض الأسماء المؤثرة ذات المكانة الاجتماعية المرموقة، والتى كانـــت تنتشـــر فـــى ساحة القتال على أمل أن تنقلب الأحوال، وأن تتحول الدفة إلى أيـــدى المشركين فيلحقوا هزيمة واندحارا لمحمد وأصحابه، ولما رأى بـــلال أمية بن خلف فصاح به : أمية رأس الكفر لا نجوت إن نجا! وحـــاول بعض المسلمين ممن كانوا حول أمية ان يأخذوه أسيرا فصـــرخ بـــلال باعلى صوته فى الناس: يا أنصار الله، رأس الكفر أمية بـــن خلـــف، واجتمع الناس ولم ينصرف بلال حتى قتل أمية[٢]، كما تواصل مقتـــل رؤوس المشركين ممن يمثلون القيادة والزعامة فى هذه الغزوة الخالدة بما سيتمخض عنها من نتائج · ·

---

(١) السيرة لابن هشام جـــ٢ صـــ٤٢٣ ·
(٢) انظر حياة محمد للدكتور/ محمد حسين هيكل صـــ١٧٨ ط دار المعارف·

وكتب الدكتور هيكل عن لقطة بارزة تصور بعض مـا دار فـي ساحة القتال، قال : "وخاض حمزة وعلى وأبطال المسـلمين وطـيس المعركة، وقد نسى كل منهم نفسه، ونسى قلة أصحابه وكثرة عـدوه، فثار النقع وامتلأ الجو بالغبار، وجعلت هام قريش تطير عن أجسادها، والمسلمون يزدادون بإيمانهم قوة، ويصيحون مهللين: أحد أحـد، وقـد كشفت أمامهم حجب الزمان والمكان وأمدهم الله بالملائكة يبشـرونهم ويزيدونهم تثبيتا وإيمانا"[١].

وننتقل إلى جانب آخر من ساحة القتال كانت المعركة فيـه قـد مالت إلى الهدوء، وزادت ثقة المسلمين بأنفسهم، فخاطب رسول الله ﷺ أصحابه عن أمر أثار جدلا مما يستلزم أن نعرض له، ثم نكشف كـم كانت علاقة الرسول بأصحابه قد وصلت إلى هذا الحد مـن الشـفافية والوضوح.

روى ابن هشام قال : قال ابن إسحاق : "وحدثنى العبـاس بـن عبدالله بن معبد عن بعض أهله، عن ابن عباس : أن النبـي ﷺ قـال لأصحابه يومئذ : إنى قد عرفت أن رجالا من بنى هاشم وغيرهم قـد أخرجوا كرها لا حاجة لهم بقتالنا، فمن لقى منكم أحدا من بنى هاشـم فلا يقتله، ومن لقى أبا البخترى بن هشام بن الحارث بن أسد فلا يقتله، ومن لقى العباس بن عبدالمطلب، عم رسول الله ﷺ فلا يقتله، فإنه إنما أخرج مستكرها.

---

(١) السابق صـ٢٧٨ .

قال : فقال أبوحذيفة أنقتل أباءنا وأبناءنـا وإخوتنـا وعشـيرتنا، ونترك العباس، والله لئن لقيته لألحمنه السيف ــ قال ابن هشام: ويقال: لألجمنه ــ قال: فبلغت رسول الله ﷺ ، فقال لعمر بن الخطـاب: يـا أباحفص ــ قال عمر: والله إنه لأول يوم كنانى فيه رسول الله ﷺ بأبى حفص ــ أيضرب وجه عم رسول الله ﷺ بالسيف؟ فقـال عمـر: يـا رسول الله، دعنى فلأضرب عنقه بالسيف، فوالله لقد نافق.

فكان أبو حذيفة يقول : ما أنا بآمن من تلك الكلمـة التـى قلـت يومئذ، ولا أزال منها خائفا، إلا أن تكفرها عنى الشهادة، فيقتـل يـوم اليمامة شهيدا رضى الله عنه .

قال ابن إسحاق : "وإنما نهى رسـول الله ﷺ عـن قتـل أبـى البخترى؛ لأنه كان أكف القوم عن رسول الله ﷺ وهو بمكة، وكـان لا يؤذيه، ولا يبلغه عنه شىء يكرهه، وكان ممن قام فى نقض الصـحيفة التى كتبت قريش على بنى هاشم وبنىالمطلب"[١].

وقد تجلى هذا الموقف وكشف عن مدى احترام الرسول لأقربائه وتقديره لهم وتفهمه لخروج بعضهم من مكة مكرها فطالـب أصـحابه بعدم الإجهاز على عمه العباس بن عبدالمطلب مـع الاحتفـاظ بحـق المقاتلين فى الإمساك به وتحويله إلى أسير يطلب الفداء فيما بعد كمـا

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام صـ٤١٨ ــ وقد كتبت قريش الصحيفة؛ للاتفـاق فيها حول مقاطعة بنى هاشم وبنى المطلب، ثم قام جماعة مـن أهـل مكـة بنقضها

انه لم ينس له دوره فى بيعة العقبة عندما ساند الرسول واطمأن إلـــى الحفاظ عليه ورعايته بعد أن يهاجر إلى المدينة.

أما فيما يتصل بأبى البخترى فإن الأيام لم تمسح من ذاكرته مـــا قام به هذا الرجل من حرص على علائق الود والإخـــلاص والمحبـــة للرسول، فضلا عن دوره فى إلغاء الصحيفة كما سبق القول علـــى أن الرجل جاء إلى بدر بموروثات الماضى التى يحملها بين جوانحه حتى لو كان مقاتلا فى صفوف المشركين .

وهكذا أخذت تلوح أمام الناظرين بشائر الخير، وتتجلى علامـــات النصر، وبدأت قريش فى الانسحاب من الساحة ، وترك القتلى وكـــل واحد منهم يحاول أن ينجو بنفسه، فطاردهم المسلمون يأسرون مـــنهم من لم يقتل، أو لم تمكنه قدراته من الفرار بالنجاة.

قـــال تعـــالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (١) .

فى أعقاب الغزوة :

لقد كان النصر للمسلمين فى بدر حاسما ومحققا لكثير من النتائج التى لم تكن فى فكر مشركى مكة، كما أن المســـلمين كـــانوا يســـعون للدفاع عن حقوقهم وتأمين المدينة بمن فيها، لكن طموحاتهم كانت أقـــل مما تحقق فى هذا النصر المبين، وبعد الانتهـــاء مـــن القتـــال شـــرع

---

(١) آل عمران ١٢٣ ، ومعنى أذلة: أى قليلون، وضعاف الحال وليس لهم مـــن العدة والعتاد ما يعينهم على النصر، وليست الذلة التى هى نقيض العزة.

المسلمون يجوبون أرض المعركة وحصروا من استشهد من المسلمين، ومن قتل من المشركين، ومن تم الإمساك بهم أسرى، والذين سيبقون تحت أيدى المسلمين حتى يقضى الرسول فيهم أمرا بعد مشاورة أصحابه.

فقد استشهد من أصحاب رسول الله ﷺ أربعة عشر رجلا بقيت ذكراهم خالدة فى صحائف التاريخ، كما استأثرت بهم رحمة الله ومغفرته مع الصديقين إذ ذهبوا للفردوس الأعلى بعد أن جاهدوا فى الله حق جهاده وابتغوا مرضاته دفاعا عن راية الإسلام.

وذكرت كتب السيرة أن هذا العدد كان ضئيلا بالنسبة لالتحام القتال، ورغبة كل طرف فى تحقيق نصر حاسم[١] .

ويلاحظ أن هؤلاء الشهداء كانوا من أعمار وخبرات مختلفة وهم ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار مما يؤكد التلاحم الكامل بين مسلمى المدينة، وقد صلى عليهم رسول الله ﷺ حيث استشهدوا[٢].

أما قتلى المشركين فكانوا سبعين قتيلا، وسبقت الإشارة إلى أسماء بعضهم، أما الأسرى فكانوا فى حدود السبعين، وروى أنهم كانوا ستة وستين، منهم العباس بن عبدالمطلب وأبوالعاص زوج زينب بنت الرسول.

---

(١) راجع السيرة النبوية لابن هشام لبيان من حضر بدرا من المسلمين جـ٢ صـ٤٦٥ وشهداء بدر جـ٢ صـ٤٧٥ .

(٢) راجع الطبقات الكبرى لابن سعد جـ٢ صـ٣٦ .

وبعد أن وصلت الحوادث إلى هذه الدرجة جمع المسلمون قتلى المشركين، وحفروا لهم قليبا[١] ثم وضعوا فيه، وغطوا بالتراب ووقف رسول الله ﷺ على شفا القليب، ونظر إلى سادة قريش وهم قتلى صاروا تحت أقدام المسلمين المستضعفين فلم تتحرك نفوس أصحاب رسول الله بالزهو عليهم، ولا الشماتة فيهم، وإنما حول الرسول الموقف إلى خطاب للقتلى وكأنه يعاتبهم مقدرا حق الأموات فى عدم الإهانة أو التمثيل بالجثث وبعث روح الانتقام فى نفوس اصحابه، كما يجنح إلى ذلك كثير من الجبابرة الذين يسيطر عليهم الغرور والثقة الزائدة بالنفس فوقف الرسول ﷺ وخاطب الأموات قائلا لهم: "يا أهل القليب! يا عتبة بن ربيعة ويا شيبة بن ربيعة ويا أمية بن خلف! ويا أبىجهل بن هشام واستمر الرسول ﷺ يذكر القتلى واحدا بعد واحد، ثم قال يا أهل القليب (بئس عشيرة النبى، كذبتمونى، وصدقنى الناس، وأخرجتمونى وآوانى الناس، وقاتلتمونى ونصرنى الناس)٠

كما روى أنه قال : "يا أهل القليب هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا فإنى قد وجدت ما وعدنى ربى حقا؟ فقال المسلمون : يا رسول الله أتنادى قوما قد جيفوا[٢] فقال عليه الصلاة والسلام ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبونى"[٣]٠

(١) القليب : أى البئر قبل أن تبنى بالحجارة ، أو البئر القديمة ٠
(٢) جيفوا : أى أنتنوا ٠
(٣) السيرة النبوية لابن هشام جـ٢ صـ٤٢٥ ٠

وقد كشف هذا الموقف عن جانب من أخلاق الرسول ﷺ الذى زكاه ربه سبحانه وتعالى بقوله:﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾[١].

كما أنه ﷺ لم ينس العلائق الإنسانية والاجتماعية بما فيها من قرابة ومصاهرة وغيرها، فكأنه وهو يوقر الذين قتلوا ثم دفنوا، كما أنه يوقر فى ذات الموقف بعض الصحابة المقاتلين الذين تربطهم بمن قتلوا علاقة تحتاج إلى المراعاة والتقدير ٠

إن أخلاق الإسلام ومبادئ الرسول شاملة من رحل ومن غاب فى متاهة النسيان، ومن عاش مجاهدا مدافعا عن الدعوة، وهى فى طريقها إلى التوسع والانتشار، فبعد أن وضع الناس فى القليب نظر رسول الله ﷺ — كما قال ابن إسحاق — "فى وجه أبىحذيفة بن عتبة، فإذا هو كئيب قد تغير لونه، فقال: يا أبا حذيفة ، لعلك قد دخلك من شأن أبيك شىء؟ أو كما قال ﷺ ، فقال: لا ، والله يا رسول الله ، ما شككت فى أبى ولا فى مصرعه، ولكننى كنت أعرف من أبى رأيا وحلما وفضلا، فكنت أرجو أن يهديه ذلك إلى الإسلام، فلما رأيت ما أصابه، وذكرت ما مات عليه من الكفر، بعد الذى كنت أرجو له، أحزننى ذلك، فدعا له رسول الله ﷺ بخير. وقال له خيرا"[٢].

أما الموقف الثانى فلم يكن الرسول ﷺ متداخلا فيه، وإنما هو إزاحة لما فى النفوس التى تجمع بين عمر بن الخطاب وسعيد بن

(١) سورة الأنبياء ١٠٧ ٠
(٢) السيرة النبوية لابن هشام جـ٢ صـ٤٢٧ ٠

العاص، إذ ذكر أهل العلم بالمغازى "أن عمر بن الخطاب قال لسعيد بن العاص، ومر به: إنى أراك كأن فى نفسك شيئا، أراك تظن أنى قتلت اباك، إنى لو قتلته لم أعتذر إليك من قتله، ولكنى قتلت خالى العاص بن هشام بن مغيرة، فأما أبوك فإنى مررت به وهو يبحث بحث الثور بروقه فحدت عنه[١]، وقصد له ابن عمه على فقتله"[٢].

ويتضح من هذا الموقف طبع عمر بن الخطاب من حيث المواجهة والاعتراف وعدم الاعتذار حيث لا حاجة إليه، والإقرار بما شاهده، وليس ذلك بخاف على من يعرف سيرته من يوم أن أسلم وعند الهجرة، وفى هذا الموقف، وفى مناسبات أخرى.

وهكذا تمخضت الغزوة على هذا النصر الحاسم الذى أسفر عن عدد قليل من شهداء المسلمين وفرار من سلم من القتل والأسر من المشركين مخلفين وراءهم كل ما لديهم من متاع، وعتاد صار غنيمة للمسلمين، ثم أقام الرسول وأصحابه بعد اليوم السابع عشر (يوم النصر) ثلاثة أيام كانوا فيها يطمئنون على تمام النصر ويجمعون الغنائم، ويستريحون من عناء القتال، ويشكرون الله سبحانه وتعالى على ما تحقق فى هذه الغزوة الكبرى التى كانت فاتحة خير على الإسلام والمسلمين، ثم شرعوا فى العودة والرسول فى المقدمة وأمامه الأسرى، وفيهم العباس بن عبدالمطلب عم الرسول ﷺ ، وأبوالعاص

---

(١) بروقه : أى بقرنه، حدت عنه: أى ابتعدت عنه .
(٢) السابق جـ٢ صـ٤٢٣ .

ابن الربيع وهو صهر رسول الله ﷺ وزوج بنته زينب، وعقبة بن أبى معيط، والنضر بن الحارث.

وقد حمل الصحابة مجموع الغنائم فى هذا الموكب العظيم، أما الأسرى فقد كان البت فى أمرهم بين القتل أو الفداء أو الاسترفاق يحتاج إلى بعض الوقت للمراجعة والاستشارة، والذى لا يتسع الزمن له آنذاك فتم غض النظر مؤقتا فى أرض القتال ــ وأثناء العودة ــ عن هذا الموضوع إلى حين الوصول إلى الرأى الذى تم بمعرفة الصحابة عند الإقامة فى المدينة، وفى الطريق حدث ما لم يكن معدا فى الحسبان إلا أنه يقتضى الشرح والبيان لإيضاح الرأى فيه، وهو يتعلق بقتل رجلين من الأسرى أحدهما هو النضر بن الحارث والثانى هو عقبة بن أبى معيط وقد كان الرجلان شرا مستطيرا على المسلمين زمن إقامتهم بمكة ، وكانا لا يتوقفان عن إلحاق الضرر بهم بكل الوسائل التى يستطيعان أن يقوما بها، وقد عرض الدكتور/ محمد حسين هيكل فكتب عما يخص قتل الأسير الأول وهو النضر ما يلى : "قتل النضر حين عرض الأسرى على النبى عليه السلام عند بلوغهم الأثيل، فقد نظر إلى النضر نظرة ارتعد لها الأسير، وقال لرجل إلى جنبه: محمد والله قاتلى! لقد نظر إلى بعينين فيهما الموت. قال الذى إلى جنبه: ما هذا والله منك إلا رعب . وقال النضر لمصعب بن

عمير، وكان من هناك به رحما: كلم صاحبك أن يجعلنى كرجل من أصحابه، فهو والله قاتلى إن لم تفعل فكان جواب مصعب: إنك كنت تقول فى كتاب الله وفى نبيه كذا وكذا، وكنت تعذب أصحابه. قال النضر: لو أسرتك قريش ما قتلتك أبدا وأنا حى. قال مصعب والله إنى لا أراك صادقا، ثم إنى لست مثلك، فقد قطع الإسلام العهود. وكان النضر أسير المقداد، وكان يطمح أن ينال افتداء أهله إياه مالا كثيرا ، فلما رأى الحديث حول قتله صاح: النضر أسيرى قال النبى عليه السلام : اضرب عنقه ، واللهم أغن المقداد من فضلك، فقتله على بن أبى طالب ضربا بالسيف"[١].

لقد كان قتل النضر ردا على ما ألحقه بالرسول وأصحابه فى مكة، وتحسبا لخطر قد يهدد الإسلام به بعد فدائه، وليس لأنه أسير لا حول له ولا قوة.

ويروى أن قتيلة بنت النضر جاءت إلى الرسول ﷺ وعاتبته شعرا بقتله أباها وقالت: هل يسمعن النضر إن ناديته : أم كيف يسمع ميت لا ينطق :

هل يسمعنى النضر إن ناديتُه ∴ أم كيف يسمع مَيّت لا ينطق
أمحمدٌ يا خيرَ ضنْئ كريمةٍ ∴ فى قومها والفحل فَحلٌ معرق
ما كان ضَرَّك لو مننت وربما ∴ مَنّ الفتى وهو المغيظ المحنك

(١) حياة محمد صـ٢٨٢ .

وقد روى أن الرسول عليه الصلاة والسلام قال : لو بلغنى هـذا قبل قتله [١] لمننت عليه ٠

والمراد من قوله قتلته أى أمر ووافق على قتله٠

أما الأسير الثانى: فهو عقبة بن أبىمعيط، ويرجع أمر الموافقـة على قتله إلى مثل ما كان عليه حال الأسير الأول، وقد ذكر الـدكتور/ هيكل فقرة موجزة عن مقتله قال فيها : "ولما كانوا فى طريقهم بعـرق الظبية أمر النبى بقتل عقبة بن أبىمعيط ، فصاح عقبة : فمن للصـبية يا محمد؟! قال: النار. وقتله على بن أبى طالب أو قتله عاصم بن ثابت على اختلاف فى الرواية"[٢] ٠

ولا أعتقد أن هيكلا مختلق أو محرف لهذا الخبر، لكنى على يقين أن صنائع هذا الرجل ومعه سابقه كانت بالبشاعة مع المسلمين فى مكة بحيث اعتبر القتل هنا قصاصا عما كان منهما فى السابق، ثم إننا نحكم الآن بعد أن وضعت دساتير الأسرى ومنع الاسترقاق وتغيـرت نظـم الحرب وتوابعها ــ نحكم بهذا الفكر الجديد علـى مـا كـان يحيـاه المسلمون والمشركون فوق الصحراء منذ أكثر من أربعة عشر قرنـا، فإذا ما ليم الدين الإسلامى على هذا القتل فإن ذلك اللـوم علـى هـذا الصنيع لا قيمة له ولا يساوى شيئا أمام ما يصنعه أربـاب الحضـارة الغربية من مقاتل ومجازر بالجملة قامت بها جماعات منهم فـى دول البلقان وغيرها٠

---

(١) انظر السيرة النبوية لابن هشام جـ٣ صـ٢٩، ٣٠ ٠
(٢) السابق صـ٢٨٢ ٠

وقبل أن يصل الرسول ﷺ إلى المدينة بيوم واحد بعث اثنين من أصحابه يطمئنان أهلها على النصر وعلى سلامة الرسول والمسلمين، وما أظفر الله به رسوله من الأسرى والغنائم، وهما زيد بن حارثة وعبدالله بن رواحة، ودخل كل واحد منهم من ناحية فكان عبدالله ينادى على راحلته يبشر الأنصار بنصر رسول الله وأصحابه، ويخبرهم بمن قتل من المشركين، وكان مكلفا بإخبار أهل العالية بذلك، وهم جماعة من قبائل مكة، وأما زيد بن حارثة فكان راكبا بناقة النبى وقال لهم مثل ما قال زيد، فاجتمع المسلمون للتعبير عن سعادتهم بالنصر ، وخرجوا من دورهم وانطلقوا مهللين شاكرين الله سبحانه وتعالى على هذا الانتصار العظيم، وقد وصلت البشارة فى الوقت الذى كان الناس فيه يوارون رقية بنت رسول الله ﷺ التراب بالبقيع، وكان زوجها عثمان بن عفان [ذو النورين] قد احتبس عندها يمرضها بأمر رسول الله الذى حفظ له سهمه فى الغنائم وأجره فى النصر .

فلما علم المسلمون بالمدينة بما كان عليه الحال فى بدر خرجت جماعات منهم لمقابلة العائدين، وكانوا يهنئون إخوانهم على ما فتح الله به عليهم، وكانوا يعتذرون إلى رسول الله من تأخرهم عن المشاركة فى القتال، ثم صدقهم رسول الله وشكرهم، وتجاوز عما كان منهم ووصل عليه الصلاة والسلام إلى مدينته المنورة من ثنية الوداع فى اليوم الثانى والعشرين من رمضان، وتلقته القيان بنشيد الإسلام الذى استمع إليه، وسعد به يوم دخوله المدينة مهاجرا :

طلـــع البـــدر علينـــا ∴ مـــن ثنيـــات الـــوداعْ
وجـــب الشـــكر علينـــا ∴ مـــا دعـــا لله داع
أيهـــا المبعـــوثُ فينـــا ∴ جئـــت بـــالأمر المطـــاع
جئـــت شـــرفت المدينـــةْ ∴ مرحبـــا يـــا خيـــر داع

ثم وصل الأسرى إلى المدينة فى اليوم التالى من دخول النبى لها وفرقهم بين أصحابه – إلى حين – وقال لهم استوصوا بالأسارى خيرا، واستجاب الصحابة لقول الرسول، فأحسنوا إليهم وتكرموا معهم وتناسوا ما كان منهم فى مكة ثم خصوهم بأطيب ما لديهم من طعام وشراب، حتى قال أحد هؤلاء الأسرى: كنت فى رهط من الأنصار حين اقبلوا بى من "بدر" فكانوا إذا قدموا غداءهم وعشاءهم خصونى بالخبز وأكلوا التمر لوصية رسول الله إياهم، ما تقع فى يد رجل منهم كسرة خبز إلا نفحنى بها فكنت استحيى فأردها على أحدهم، فكان يردها على ما يمسها.

وأعتقد أن إشعار القرشيين بعدم الغربة والإيذاء، والتكرم معهم بالكلمة الطيبة والأسلوب الهادئ وتجاهل الماضى وتناسى الحديث عن وقائع القتال التى ربما تذكر فتثير كوامن النفوس، وكل ذلك فى معيار المعاملة مقدم على تخصيصهم بالخبز دون التمر، ثم إن محتملات المستقبل التى لازالت غير معروفة للجميع تجعل الأسرى فى حاجة إلى من يأخذ بأيديهم إلى الصبر والهدوء والأمل فى السلامة والعودة إلى مكة المكرمة، أما الغنائم فقد جعلها تحت رعاية عبدالله بن كعب

المازنى الأنصارى ثم قسمها رسول الله ﷺ بما رآه، وقد جاء فى الطبقات الكبرى لابن سعد أن التقسيم كان فى شعب بالصفراء وهى من المدينة على ثلاث ليال، وذكر أن الرسول ﷺ سلم الغنيمة كلها للمسلمين الذين حضروا بدرا، وللثمانية النفر الذين تخلفوا بإذنه، فضرب لهم بسهامهم وأجورهم، وأخذ رسول الله ﷺ سهمه مع المسلمين، وفيه جمل أبىجهل ــ وكان مهريا ــ فكان يغزو عليه ويضرب فى لقاحه[1].

أما أمر الفيئ والغنائم فقد تحدث الدكتور/ محمد حسين هيكل عن اختلاف محدود للمسلمين فى أرض بدر ، وهذا شأن بنى البشر جميعا خاصة فى هذه الغزوة الذى يريد كل مقاتل أن يأخذ منها ما يذكره بها، لكن الرسول أجل الفصل فى هذا الأمر حتى يصل إلى المدينة وتستقر النفوس وتهدأ القلوب، ويفصل فى ذلك بعد مشاورة أصحابه كما هو شأنه فى حياته، وفى هذه الغزوة بخاصة التى كان يستمع إلى كل ذى رأى قبل أن يصل إلى ما يصير أمرا واجب النفاذ ، فكان الذين جمعوا الغنائم يقولون هى لنا، وقال مثل ذلك الذين كانوا يطاردون العدو حتى الهزيمة، والفريق الثالث فى ترتيب المطالبة كان ممن يحرسون محمدا ﷺ مخافة أن يرتد إليه العدو، ولكن خوفهم على الرسول كان أهم ما يشغلهم، فأراد الرسول أن لا يفسد هذا الأمر بهجة النصر، فكان الأمر بحمل كل ما حصلوا عليه إلى المدينة ثم يفصل فيه بتؤدة وهدوء، وفى المدينة كانت القسمة على السواء حتى شملت من تخلف عن القتال

(١) انظر الطبقات الكبرى لابن سعد ــ المجلد الثانى صــ٢٣ .

لعذر قبله رسول الله ﷺ ، وقيل إن الرسول ﷺ قسم الغنائم كشأن أية غنيمة تمخضت عن الحرب بما فيها الانتصار فى بدر، وذلك بعد أن أخذ الخمس .

قال تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١).

أما أمر الاختلاف فى أرض القتال فقد ذكره ابن إسحاق فى السيرة النبوية لابن هشام حيث نزلت سورة الأنفال بهذا الأمر قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾(٢).

وذكر عبادة بن الصامت أنه إذا سئل عن الأنفال قال : "فينا معشر أهل بدر نزلت، حين اختلفنا فى النفل يوم بدر، فانتزعه الله من أيدينا حين ساءت فيه أخلاقنا، فرده على رسول الله ﷺ فقسمه بيننا عن بواء؟ ـ يقول: على السواء ـ وكان فى ذلك تقوى الله وطاعته، وطاعة رسول الله ﷺ وصلاح ذات البين"(٣).

---

(١) الأنفال ٤١ .
(٢) الأنفال ١ .
(٣) السيرة النبوية جـ٢ صـ٤٤٧ .

ولقد كان خروج المسلمين لبدر بحالة يبدو عليها العوز والحاجة، ولذلك قال رسول الله ﷺ بعد وصوله إلى بدر : "اللهم إنهم جياع فأشبعهم، اللهم إنهم حفاة فأحملهم، اللهم إنهم عراة فاكسهم، ففتح الله له يوم بدر ، فانقلبوا حين انقلبوا وما منهم إلا رجل قد رجع بحمل او حملين واكتسبوا وشبعوا".

فهذه الحالة التى كانوا عليها جعلتهم بعد النصر يسعون إلى البحث عن الغنائم والتسابق حولها لكى يأخذوا منها ما يعينهم على تصاريف الدهر فى قابل الأيام ذلك أن الرسول قد تصرف بما يهدئ النفوس حفاظا على الصورة التى ينبغى أن ترسم للعائدين، والأسرى والغنائم فى حوزتهم، كما أن الغنيمة التى كانت نتيجة للقتال تختلف عن الفيئ الذى يحصل عليه المسلم أو المسلمون بلا قتال، أما السلب فهو خاص بمن تحصل عليه الشخص من قتاله لعدوه ،وكل ذلك مقرر وواضح فى كتب التفسير والحديث والأحكام.

آثار النصر فى المدينة:

لقد هدأت نفوس المسلمين بعد أن من الله عليهم بالنصر المبين الذى رد إليهم اعتبارهم، وأشعرهم بقيمة إيمانهم بالله، والتفافهم حول الرسول، لكن ساكنى المدينة لم يكونوا فى درجة واحدة عند استقبالهم لنتائج الغزوة البدرية، فإذا كان المسلمون قد عبروا عن بهجتهم باستقبال الرسول وأصحابه بعد النصر ، فإن الأمر كان مختلفا مع المنافقين واليهود.

فأما المنافقون وعلى رأسهم عبدالله بن أبى بن سلول، فقد أظهروا أنهم فرحوا بهذا النصر، لكن الحقيقة أنهم كانوا فى غاية التعاسة لـــه، حتى أشاعوا ومعهم طائفة من المشركين أن ناقة الرسول التى دخل بها زيد بن حارثة فكانت تكئة اختلقوا منها موقفا حـــاولوا بـــه أن يقنعـــوا أنفسهم، ويشيعوا للمسلمين الذين لم يقاتلوا أن محمدا قـــد قتـــل ، وأن أصحابه قد هزموا، وهذه هى ناقته التى جاءت بدونه، إذ أنه لو انتصر لبقيت معه، ولم يقتنع المسلمون بذلك، وإنما تثبتوا من الأمر واطمـــأنوا إلى صحة خبر النصر، وازداد يقينهم بكذب المنافقين، وكانـــت هـــذه الأحداث بما نتج عنها مدعاة لكل من كان يلتمس الغـــدر للمنـــافقين أن يوقن بأكاذيبهم، واشتعال نيران الحقد فى أعماقهم، ولذلك لمـــا جـــاؤوا إلى رسول الله يعلنون شهادتهم برسالته نزل الوحى فى مرحلة تاليـــة يكذبهم ويقرر مصيرهم ٠

قال تعـــالى : ﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَكَـٰذِبُونَ ﴾ [1].

أما اليهود :

فقد نسوا معاهدتهم مع الرسول ، وغفلوا عن حتمية المشاركة فى الدفاع عن المدينة، خاصة أن المكيين كانوا يستهدفونها؛ حتـــى تنفـــك عروة الإسلام، وتتمزق وحدة أهل يثرب٠

---

(١) المنافقون ١ ٠

ولم ينهجوا منهاج المنافقين، وإنما صرحوا بالشر والبغضاء، ولم يتكتموا حزنهم على قتلى بدر من سادة قريش ، فقد ذكر بعضهم بمـــا ينم عن ذلك فقال : "هؤلاء أشراف العرب، وملوك الناس ، والله لـــئن كان محمد قد قتل هؤلاء حقا ، لبطن الأرض خير من ظهرها، وهكـــذا اختلفت مشاعر أهل المدينة ــ لأول مرة بعد مجئ الرســـول إليهـــا ــ حول النصر فى يوم الفرقـــان، فالمنـــافقون كـــاذبون، والمشـــركون كارهون، واليهود فى غاية السوء، أما المسلمون فكانـــت ســـعادتهم لا حدود لها، ويبدو أن أحزانا كانت تظلل يثرب على شهداء بدر الأربعة عشر ، وعلى أحداث أخرى جرت والرسول ﷺ وأصـــحابه بعيـــدون عنها أو قريبون منها٠

المشاورة حول الأسرى :

استقر الرسول ﷺ فى المدينة وهدأت النفوس واتضحت الرؤيـــة فى الغنائم، فكان عليه أن يفصل فى أمر الأسرى فعمد إلى استشـــارة أصحابه حتى يمكن الوصول إلى رأى فى هذا الأمر، الذى لم يأته أمر صريح، ولم ينزل عليه نص قرآنى يحدد منهج الإسلام فى هذه القضية خاصة أن السنوات الأولى لم يكن المسلمون فى انتظار أن يأتى إلـــيهم هذا العدد من الأسارى فكان عليه أن يستشير أصحابه، ويعمـــل رأيـــه ويستخير ربه قبل الفصل فى هذا الأمر الجلل، قال لهم عليه الصـــلاة والسلام: ما تقولون فى هؤلاء الأسرى؟

قال أبوبكر: يا رسول الله قومك وأهلك، استبقهم واستأن بهم لعل الله يتوب عليهم، وخذ منهم فدية تقوى بها أصحابك.

وقال عمر: يا رسول الله، أخرجوك وكذبوك، اضرب أعناقهم فإن هؤلاء أئمة الكفر، وإن الله أغناك عن الفداء.

واستمع الرسول إلى غيرهما ودخل إلى فراشه دون أن يبدى رأيا أو يفصل فى الأمر ثم أخذ المسلمون يتحدثون عن توقعاتهم لرأيه وحكمه ﷺ فواحد يقول إنه سيأمر بقتلهم، وآخر يقول إنه سيفك إسارهم.

ثم طلع عليهم رسول الله ﷺ فقال: إن الله ليلين قلوب رجال فيه حتى يكونوا ألين من اللين، وإن الله ليشد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة، وإن مثلك يا أبابكر كمثل إبراهيم حين قال: ﴿فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (١) .

وإن مثلك يا أبا بكر كمثل عيسى حين قال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ (٢).

وإن مثلك يا عمر كمثل نوح حين قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ (٣).

---

(١) إبراهيم ٣٦ .
(٢) المائدة ١١٨ .
(٣) نوح ٢٦ .

وإن مثلك يا عمر كمثل موسى حين قــال : ﴿ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾[١].

وقال للأسرى أنتم عالة، فلا يبقين أحد إلا بفداء أو ضربة عنق، وأحب رسول الله رأى أبىبكر، وفتح الطريق أمام الأســرى للفــداء، ووصل ذلك الخبر إلى مكة فأسرعوا إلى المدينة، ودفعوا المال وفكــوا الأسرى من الأغلال.

وعوتب الرسول ﷺ من ربه على قبوله للفداء فقال تعــالى: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ [٢] فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [٣].

وبيان هذا الموقف أن هؤلاء الأسرى لم يكونوا بالمعيار الــدقيق للفظ أسرى، وإنما كانوا بمثابة مجرمى حرب، يستحقون العقاب علــى ما كان منهم فى حق الإسلام بمكة إلا من أكره على الخــروج، إذ أن هذا الماضى لا ينفصل عن الواقع الذى جمعهم فى حرب مع المسلمين ببدر، فإذا ما وقعوا فى الأسر فلم يكن هناك ما يدعوا إلى العفو عــنهم

---

(١) يونس ٨٨ .

(٢) يثخن : الإثخان كثرة القتل أى يبالغ فى قتل المشركين، وقيل: الإثخان القوة والشدة، وقيل: حتى يثخن أى يتمكن. وذكر القرطبــى والله أعلــم أن قتــل الأسرى الذين فودوا ببدر كان أولى من فدائهم .

(٣) الأنفال ٦٧ ، ٦٨ وقيل يثخن: أى يضعف.

والتسامح معهم، وتلك كانت جزءا من رؤية عمر بن الخطاب رضـــى الله عنه ٠

أما الميل إلى العفو وقبول الفداء فهو تغليب لجزء من مصـــلحة المسلمين الدنيوية، والسبق بالعفو أملا فى أن يكون مـــنهم مـــن يســـلم الأمر لله ويعتنق الإسلام ويعمل به لنشره بين الناس فى سائر البقاع٠

ومن نواتج الفداء أن زينب بنت الرسول ﷺ كانت مهمومة بفـــداء زوجها ومشغولة برؤية أبيها، وكان الإسلام قد فـــرق بينهمـــا لبقـــاء أبىالعاص على دينه، وكان رسول الله لا يقدر على أن يفرق بينهمـــا، فأقامت مع زوجها على إسلامها وهو على شركه، فلما كانـــت غـــزوة بدر كان أبوالعاص من الأسرى، وبعثت زينب للفداء مالا وقلادة كانت خديجة قد أدخلتها بها على أبىالعاص حين تزوجها فلما رآها رســـول الله رق لها رقة شديدة وقال: إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها، وتـــردوا عليها مالها فافعلوا، فقالوا: نعم يا رسول الله فأطلقوه وردوا عليها الذى لها، ووصل أبوالعاص إلى مكة، ثم بعث رسول الله مـــن يـــأتى لـــه بزينب، فلما قدم أبو العاص أمرها باللحوق بأبيها فخرجت تعد نفســـها لذلك، وارتحلت إلى المدينة، وأقامت عند رسول الله بينمـــا أقـــام أبـــو العاص بمكة، ثم تعاقبت الأيام فأسلم أبوالعاص فـــى أحـــداث طـــوال، كانت زينب قد أجارته وحمته من سرية إسلامية تجوب الصـــحراء ، فجمع الإسلام بينهما بعد افتراق طويل، وأمرها رســـول الله أن تكـــرم

مثواه وتخلص إليه، وكان ذلك بداية لعلاقة جديدة ربطت بين الاثنين في ظلال الإسلام.

حديث الشعر :

هتف حسان بن ثابت وغيره من شعراء الإسلام في المدينة بنماذج صادقة ومعبرة من هذا الفن عن أحداث بدر، مما يجعل مجموع ما قيل في هذه المناسبة سجلا خالدا يعضض حوادث التاريخ التي بقيت خالدة مع الزمن، ولا تتعارض مع وقائع السيرة التي شملت الرسول مبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا، واحتوته في علاقاته بأصحابه، وفي صلاته على شهداء بدر، وفي رحمته وعطفه على قتلى المشركين، وهي في مجموعها تتميز بصدق العاطفة والشعور، وجمال التعبير عن دقائق الأمور، وخصائص التجربة التي جمعت بين عدة معايير من حزن إلى فرح إلى شكر لله، وإلى أمل كبير في المستقبل، تلك القضايا التي يتسع المجال لها في الدراسات الأدبية والنقدية، ولكن التجربة الحسانية بخاصة والمواكبة لمسيرة الحرب كانت علامات بارزة في شعر الجهاد والمغازي، والذي كان قاعدة لما جاء بعد ذلك في سجل الفتوحات الإسلامية، ومما قاله حسان، عن هذه الغزوة :

فما نخشى بحول الله قوما ∴ وإن كثروا وأجمعتّ الزحوف
إذا ما ألبّـُوا جمعا علينا ∴ كفانا حدهم ربٌّ رؤوف
سَمَوْنا يوم بدر بالعوالي ∴ سراعا ما تضعضعنا الحتوف

فلم تر عصبةً فى الناس أنكــى ⁖ لمن عادوا إذا لقحــت كشــوف
ولكنـــــا توكلنـــــا وقلنـــــا ⁖ مآثرُنـــا ومعقلُنـــا الســـيوف
لقينـــاهم بهـــا لمـــا ســـمونا ⁖ ونحن عصابةٌ وهــمُ ألــوف[١]

وقال أيضا :

لقد علمتْ قــريشٌ يــوم بــدرٍ ⁖ غداة الأســرِ والقتــلِ الشــديدِ
بأنا حــين تشــتجر العــوالى ⁖ حماةُ الحرب يوم أبــى الوليــد
قتلنا ابنىْ ربيعة يــوم ســارا ⁖ إلينــا فــى مضــاعفة الحديــد
وفر بها حكــيم يــوم جالــت ⁖ بنوالنجــار تخطــر كالأســـود
وولتْ عند ذاك جمــوعُ فِهْــرٍ ⁖ وأسْلَمَهَا الحــويرث مــن بعيــد
لقـــد لاقيـــتم ذلا وقـــتلا ⁖ جهيـــزا نافـــذا تحــت الوريــد
وكلُّ القوم قــد ولــوا جميعــا ⁖ ولم يلووا على الحسب التليد[٢]

وقد وضح من الشعر صدق عاطفة حسان فى هذا اللــون الــذى أخلص فيه الرجل لفخره بنصر المســلمين وســخريته مــن هــروب المشركين، كما أن له نماذج أخرى تتجاوز الفخر إلى أغراض يضيق المكان عن استكمالها، ولم يقف الأمر عند حســان وســائر الشــعراء الإسلاميين بل امتدت أحداث الغزوة ونتائجها إلى شعراء الشرك أميــة ابن أبى الصلت الذى ذكر عدة نماذج رثى فى إحداها قتلى من قــريش

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام جـ٣ صـ١٦ ٠
(٢) السابق صـ١٤ ٠

يوم بدر، وكذلك الحارث بن هشام الذى بكى أخـاه أباجهـل وحـزن عليه.

أما طالب بن أبى طالب فقدم نموذجا يمدح فيه الرسول ﷺ ويبكى قتلى قريش، أى أن الطرح الشعرى يجمع بين مدح الرسـول تقـديرا لعلاقات القرابة والصلات الاجتماعية، ويبكى القتلى من قريش إجلالا وتقديسا للعلاقة الدينية التى جمعته بالقتلى بما لا يستطيع نسـيان هـذا الأمر ، خاصة أن عبادة الأصنام على اختلاف توجهاتهـا ونماذجهـا كانت ثابتة فى أفئدتهم بما يعجزون ـ حسب مفاهيمهم وإدراكـاتهم ـ عن نسيانها والغفلة عنها .

كلمة أخيرة :

١ - كان الرسول ﷺ موفقا غاية التوفيق فى قيادة المقاتلين، واستشارة أصحابه عند الخروج من المدينة، وفى مكان التمركـز ببـدر، وموضع القائد والحراسة، كما أن الاستشارة امتدت أيضا إلـى الأسرى الذين اختلف فيهم الصحابة، ثم عوتب الرسـول علـى ذلك، كما كان موفقا أيضا فى إخماد نار الفتنة التى كـان مـن الممكن أن تشتعل على أرض بدر بسبب السعى إلى الغنائم.

٢ - تملك الرسول وأصحابه شعور بالقوة مع قلة أعدادهم وضـعف إمكاناتهم مع عدم الخوف من الأعداء.

٣ - كان تقسيم الجيش تقسيما عسكريا ملائمـا للحالـة التـى كـان المسلمون عليها، ولم يقف الرسول عند ذلك التقسيم اقتناعا بأنـه

الفيصل فى النصر، وإنما كان يحض المقاتلين ويدعو لهم دعاء صادقا نابعا من إيمانه وحسن قيادته، لذلك كان المــدد الإلهــى المتمثل بالقوى العظيمة التى أسهمت بدرجة فاعلة فــى تحقيــق الفوز، أى أن النصر لم يكن منحصــرا فــى وســائل الحــرب وأدواتها الظاهرة.

٤ - كان الأمل فى النصر كبيرا، ولذلك لــم يتطــرق اليــأس إلــى النفوس، ولم يشغلوا بما خلفوه وراءهم فى المدينة أو بأقــاربهم الذين يلتقون معهم فى مواجهة حاسمة لابد أن تسفر عن نتــائج مؤثرة فى مسيرة الإسلام.

٥ - اكتساب الثقة بالنصر المبين، والتحول بالدين الجديد من مجــال الدعوة الهادئة بلا قتال إلى القدرة الفائقة على رد الظلم ودحــر العدوان حتى يتسنى التحرك الإيجابى فى حرية وأمن وأمان.

٦ - أفاد الكسب المادى من النصر القدرة علــى تحســين أوضــاع المسلمين خاصة أن ما كان منها لله والرسول ولبعض الأثريــاء تم استثماره بصورة جيدة فى التحرك بالسرايا لحماية المدينــة، والإعلان، عن الدين والدعوة لاعتناقه، والإشعار بالقوة الجديدة التى فرضت كلمتها وسلطانها على هذه المنطقة بعد الهجرة.

٧ - جمع النصر بين قلوب جميع المسلمين بالمدينة بصورة أكبر مما أشعرهم عمليا بتأثير التآلف على التقريب بين المشــاركين فــى الغزوة.

٨ - كشفت نتائج الغزوة عن مواقف كل من المشـــركين والمنـــافقين واليهود مما جعل الرسول وأصحابه يضعونهم فى الموضع الذى يتناسب مع توجهاتهم التى تجلت عنهم أو ظهرت بينهم بصورة قاطعة مما جعل النصر فى بدر مشتملا علـــى مجموعـــة مـــن الحوادث والمشاهد التى تعد نموذجا يحتـــذى فـــى كثيـــر مـــن الغزوات والحروب القديمة والحديثة على السواء.

دروس وأحداث من غزوة بنى المصطلق(*)

لم تكن غزوة بنى المصطلق ذات تأثير على ما يمكن أن يسمى بالساحة السياسية فى السنوات التى عاشها الرسول بين أصحابه المهاجرين والأنصار بالمدينة، وليست لها من الشهرة ما لغزوة أخرى مثل بدر أو أحد أو حنين ، لكنها تركت مجموعة من الدروس والعظات التى نطالعها فى صحائف السيرة النبوية ، فتمتلئ نفوسنا بالألم والضيق على تلك المكائد والدسائس والألاعيب الماكرة من جماعة المنافقين بقيادة عبدالله بن أبى بن سلول.

وإذا كان بعض المؤرخين قد ذكر هذه الغزوة ضمن أحداث السنة الخامسة من الهجرة — ومنهم ابن سعد فى الطبقات الكبرى إذ أرخ لها بشهر شعبان من تلك السنة — فإن جمهور المؤرخين يجعلونها بعد غزوة الأحزاب أى فى السنة السادسة ويراجع فى ذلك تاريخ الطبرى وغيره، وكان قد بلغ الرسولﷺ أن بنى المصطلق — وهم قوم من خزاعة ومن حلفاء بنى مدلج يجمعون له الرجال والعتاد ، ويتأهبون للسير إليه وقتاله فى المدينة، فلما سمع بمكرهم خرج إليهم حتى لقيهم فى موضع ماء لهم اسمه (المريسيع) من ناحية قديد إلى الساحل ، إذ كان الناس يلتقون حول آبار المياه، ويشربون منها، ويسقون بها الزروع والدواب ، فهذه المنابع ذات أهمية كبيرة لأهل الصحراء ، والناس يقتتلون بسببها، ويقال إن الرسول قد أعلمهم بقدومه إليهم

(*) نشر فى جريدة صوت الأزهر فى ٢٨/ ٣/ ٢٠٠٣ العدد ١٨٣ .

لعرض الإسلام عليهم،ويقال إن بنى المصطلق بزعامة قائدهم (الحارث ابن أبى ضرار) بيتوا النية على الانتقام من المسلمين ؛ لما حدث منهم فى اللقاءات السابقة مع العرب من أهل قريش وغيرها من القبائل فـــى أحد والأحزاب ٠

ولما سمع الرسول بمكرهم سار إليهم فى جيش بلغ عــدده ألــف مقاتل بين راجل وراكب، وارتحلت معه من نسائه عائشـــة وأم ســلمة رضى الله عنهما، قال ابن سعد فى الطبقات : " وخرج معه بشر كثير من المنافقين لم يخرجوا فى غزاة قط مثلها ويبدو أن المنافقين رأوا فى هذه الغزوة تباشير النصر وأمارات الكسب وتسجيل المواقف بقليل من التكلفة والتبعة ٠

ولقد دفع الرسول ﷺ راية المهاجرين إلى أبى بكر الصديق، بينما سلم راية الأنصار إلى سعد بن عبادة ٠

ورفض بنو المصطلق الاستسلام إلى أن شاهدوا المسلمين أمامهم فتراموا بالنبل ساعة، وحمل المسلمون عليهم حملة رجل واحد ، ولـــم يتركوا لهم فرصة للهرب، فقتل منهم عشرة رجال ، وأسر الباقون مع النساء والأطفال ، واستاق المسلمون الإبل والشياه، واستشـــهد رجــل واحد من المسلمين بطريق الخطأ ٠

وكانت جويرية بنت الحارث بن أبى ضرار من سبايا هذه الغزوة ولما قسمت الغنائم ، ووزعت الأسرى خرجت جويرية فى سهم ثابـــت ابن قيس ، فكاتبها على تسع أواق من الذهب، ولم يكن ذلك ميســورا

لها؛ لكى تفك أسرها ، فلجأت إلى رسول الله تستشيره وتستعين به، وكانت فى العشرين من عمرها، ومات عنها زوجها (مسافع بن صفوان المصطلقى)، وأصيبت بالقلق والذعر، لما لحق بها وبقومها ، وقالت للرسول ﷺ : " يا رسول الله : أنا بنت الحارث بن أبى ضرار سيد قومه، وقد أصابنى من البلاء ما لم يخف عليك ، فوقعت فى السهم لثابت بن قيس .. وكاتبته على نفسى فجئتك أستعينك على أمرى" ورق لها قلب الرسول، فأنقذها من محنتها ، وأجابها بما لم تكن تطمح فيه أو تسعى إليه ، وروت الأخبار أنه قال لها: "فهل لك فى خير من ذلك" ؟

سألت فى لهفة وحيرة : وما هو يا رسول الله ؟

أجاب : " أقضى عنك كتابك وأتزوجك " ؟

فتألق وجهها الجميل ، وهتفت وهى لا تكاد تصدق أنها قد نجت من الضياع والهوان "نعم يا رسول الله " قال : "قد فعلت"[١] .

وتدفقت أنهار الخير ، فأرسل الناس من بأيديهم من أسرى بنى المصطلق أحرارا، وهم يقولون : " أصهار رسول الله " .

وكانت جويرية من النساء الجميلات ، وقد نظر الرسول إليها عندما كانت مملوكة لثابت بن قيس ، أو لأنه رغب فى نكاحها بعد أن علم بقصة أسرها، وعجزها عن مفاداة نفسها .

---

(١) من السيرة النبوية لابن هشام حـ٣ ص ٢١٨ وكتاب : نساء النبى لبنت الشاطىء ص ١٨٤ .

وقد أسلمت وحسن إسـلامها، وصـارت واحـدة مـن أمهـات المسلمين، وجاء أبوها ليفك أسرها، فعلـم أن الرسـول قـد افتـداها، وتزوجها وأصدقها أربعمائة درهم، وقالت لأبيها:

" اخترت الله ورسوله"، فهدأت نفسه ، وشهد أن لا إلـه إلا الله ، وأن محمدا رسول الله .

وعاشت جويرية حتى انتصف القرن الهجـرى الأول ، وكـان قومها ــ بعد أن دخلوا فى الإسلام ــ قوة تحميه، وتدافع عنه .

ولعل هذا يؤكد الحكمة التشريعية التى اختص بها الرسولﷺ فى جمعه بين عدد من الزوجات؛ لأن الإصهار إلى القبائل يؤلف النفوس ، ويزيل الضغائن من النفوس، ويسهم فى تخفيف حدة الترمـل والحيـاة بدون زواج بسبب كثرة الحروب وانتشار السبايا ، وظهور أنواع مـن الجرائم الأخلاقية المتصلة بالنساء، كل ذلك جعل الرجال يجمعون بين الزوجات، كما لم تجد بعض الأسر شيئا من الحرج فى تزويج بنـاتهن ونسائهن لرجال يكبرونهن بكثير من السنين، ولهـذا وجـدت السـيدة جويرية بنت الحارث فى زواجها من الرسول فتحا جديدا لواقع حياتها ومستقبل أيامها فى ظلال الدعوة الإسلامية العظيمة .

النفاق والمنافقون(*)

النفاق هو الستر والتغطية والتلوى والتلــون وعــدم الاســتواء، والمنافق هو الذى يظهر شيئا ويبطن غيره، يظهر الإيمــان بلســانه، ويستر الكفر فى قلبه فهو إنسان مزدوج الشخصية يظــن أنــه خــدع الناس، ولكنه واهم وكاذب فى ظنه وخداعه قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ﴾ (١).

والمنافقون يعتمدون فى سلوكياتهم النفاقية على الخداع والريــاء ابتغاء الشيطان ، وتعبيرا عن الكراهية والحقد والبغضاء قال تعــالى : ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا ﴾ (٢).

فهذه المراءاة تضلل الناس فتجعل الكثيرين منهم يقعون فى شرك المراءاة، وتصرفات المنافقين التى يتضح فــى ظاهرهــا الســلوكيات الحسنة بينما هى تكشف عن عداء وسوء نية للإسلام والمسلمين ٠

(*) نشر فى جريدة اللواء الإسلامى فى العدد ٨٢ يوم ١٩٨٣/٨/١٨م ٠
(١) البقرة ١٤٢ ٠
(٢) النساء ١٤٢ ، ١٤٣ ٠

لقد عانى رسول الله ﷺ من مكرهم وخداعهم والتوائهم خاصة أن بروزهم فى الساحة الإسلامية كان مرتبطا بوجــود الرســول ﷺ فــى المدينة ، فكان يلاينهم ويلاطفهم، ويعاملهم بالحسنى اكتفاء بظــاهرهم تاركا باطنهم إلى الله، لكنهم خذلوه فى غزوتى أحد والأحــزاب ومــع ذلك كان يلتمس لهم العذر حرصا على وحدة الصف الإسلامى وعــدم تفتيت الجبهة الداخلية التى بدأت تتماسك وتقوى فى المدينة، فلما كانت غزوة بنى المصطلق أطلقوا الشائعات الضالة والأقوال المرجفة حــول زوجته السيدة عائشة فى قصة الإفك التى برأ القرآن فيها أم المــؤمنين رضى الله عنها، وكانت الأقوال تأتى إلى رسول الله شــاهدة بكــذبهم وسوء نيتهم، لكنه كان مستمرا فى حرصه على عودتهم إلى الإيمــان الصحيح، وإقلاعهم عن خصلة النفاق التى تقدح فى كمال الإيمان، لكن الأمر لم يلبث أن وضح فيه الصدق على أكمل صورة بشهادة القــرآن الكريم حيث سجل عنادهم وخداعهم وكذبهم فى سورة قرآنيــة كاملــة سميت باسمهم هى سورة [المنافقون] حتى تبقى هذه الأحــداث خالــدة خلود النص القرآنى وشاهدة على سوء هذه الصفة فى فريق من الناس كانوا بذورا للنفاق فى عهد رسول الله ﷺ .

وقد ذكرت كتب السيرة أن رجلين أحدهما من المهــاجرين هــو جهجاه بن مسعود [من بنى غفار] وهو أجير لعمــر بــن الخطــاب ، والآخر من الأنصار وهو وسنان بن وبر الجهنى حليف بنــى عــوف وقيل إنه أجير لعبدالله بن أبى بن سلول قد اقتتلا على مــاء المريســيع بعد انتصار الرسول فى غزوة بنى المصطلق فى السنة السادسة مــن

الهجرة فصرخ الجهنى يا معشر الأنصار ، وصرخ جهجاه يا معشــر المهاجرين، وهكذا بدت بذور الفتنة فى الإنبات بما كان يبثه عبدالله ابن أبى بن سلول فيمن حوله من فتن وأراجيف الذى استمع إلى ما هتــف به الأجيران فقال : أو قد فعلوها، قد نافرونا وكاثرونا فى بلادنا، والله ما وعدنا وجلابيب"(١) قريش إلا كما قال الأول : سمن كلبك يأكلك، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، وقيل إنه قال : (بنص القرآن الكريم) لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا٠

ثم تكتمل رواية الأحداث كما جاءت فى السيرة النبوية لابن هشام إذ جاء فيها : "ثم أقبل"(٢) على من حضره من قومه، فقال لهم : هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم، وقاسمتوهم أمــوالكم، أمــا والله لــو أسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم، فمشى به إلى رســول الله ﷺ ، وذلك عند فراغ رسول الله ﷺ من عــدوه، فــأخبره الخبــر، وعنده عمر بن الخطاب ، فقال : مر به [عباد بن بشر] فليقتله، فقال له رسول الله ﷺ : فكيف يا عمر إذا تحــدث النــاس أن محمــدا يقتــل أصحابه! لا ولكن أذن بالرحيل ، وذلك فى ساعة لم يكن رسول الله ﷺ يرتحل فيها، فارتحل الناس، وقد مشى عبدالله بن أبى بن ســلول إلــى رسول الله ﷺ ، حين بلغه أن زيد بن أرقم قد بلغه ما سمع منه، فحلف بالله: ما قلت ما قال ، ولا تكلمت به ــ وكان فى قومه شريفا عظيمــا فقال من حضر رسول الله ﷺ من الأنصار من أصحابه: يا رسول الله،

---

(١) جلابيب قريش : لقب من كان أسلم من المهاجرين، لقبهم بذلك المشركون٠
(٢) ثم أقبل : أى عبدالله بن أبى بن سلول ٠

عسى أن يكون الغلام قد أوهم فى حديثه، ولم يحفظ ما: قال الرجـل ، حدبا على بن أبى بن سلول ودفعا عنه"(١).

ثم نزلت السورة فأخذ رسول الله بأذن زيد بن أرقم وقال له: هذا الذى أوفى الله بإذنه، وبلغ الأمر إلى عبدالله بن عبدالله بـن أبـى بـن سلول ، فأتى رسول الله ﷺ فقال له بلغنى أنك تريد قتل عبدالله بن أبى ابن سلول فيما بلغنى عنه، فإن كنت لابد فاعلا فمرنى به ، فأنا أحمـل إليك رأسه، إنى أخشى أن تأمر به غيرى فيقتله، فلا تـدعنى نفسـى انظر إلى قاتل عبدالله بن أبى بن سلول يمشى فى الناس ، فأقتله فأقتل مؤمنا بكافر ، فأدخل النار ، فقال رسول الله ﷺ : بـل نترفـق بـه، ونحسن صحبته ما بقى معنا"(٢).

هذا وقد رجع ابن سلول إلى المدينة فلم يلبث إلا أياما حتى مات، أما مراعاة الرسول بالترفق به فى حياته فقد كان ذلك تعبيرا عن منهج الإسلام فى معاملة المخطئين أملا فى توبتهم ورجـوعهم إلـى الحـق والصواب، وقد سجلت سورة التوبة (براءة) كثيرا من سلوك المنافقين مع رسول الله ﷺ ، الذى ضرب المثل فى حسن الصحبة، وإبقاء الأمل فى عودتهم للصف الإسلامى، وقد بدأت سـورة المنـافقين بقـول الله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَكَـٰذِبُونَ﴾ (٣).

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام المجلد الثانى صـ٢١٥ .
(٢) انظر السابق صـ٢١٦ ، ٢١٧ .
(٣) المنافقون ١ .

وفى السورة نفسها قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١).

وقد عرضت السورة لمعظم صفات المنافقين كالتستر بالإيمان والإعراض عن سبيل الله، وجمال الهيئة والأشكال التى تغرى الناس بهم، فتعجب بكلامهم وتستمع إليهم كما أنهم يقتصرون فى معظم أفعالهم على السمع المجرد من تحكيم العقل، كما أنهم يحيون فى جبن وخور خوفا من نزول أمر إلهى تستباح به دماؤهم جزاء على ما اقترفوه وعلى ما ساروا فيه٠

لقد ذكر الرسول ﷺ علامات النفاق وحدد ملامحه؛ حتى يتجنبها المؤمنون، وذكر بعض الصفات التى لا يكون المؤمن كامل الإيمان لو اتصف بواحدة منها، وإنما تكون فيه خصلة من النفاق حتى يدعها ويبتعد عنها، وجمع هذه الخصال فى حديث رواه عبدالله بن عمرو أن النبى ﷺ قال : "أربع من كن فيه كان منافقا خالصا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا ائتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر"(٢)٠

وقد جاء فى تفسير القرطبى أن هذا القول من النبى على سبيل الإنذار للمسلمين والتحذير لهم أن يعتادوا هذه الخصال؛ شفقا أن تفضى

---

(١) المنافقون ٨ ٠
(٢) رواه البخارى ومسلم وأحمد وأصحاب السنن٠

بهم إلى النفاق: وليس المعنى أن من بدرت منه هذه الخصال من غير اختيار واعتياد أنه منافق[١].

وهذا الرأى يتناسب مع الشفقة والرحمة التى مارسها الرسول مع عبدالله بن أبى بن سلول ، كما أنه يشمل وقــوع الإنســان فىخصـــلة بهدف الإصلاح والقصد الحسن فى كثير من المواقف .

فخيانة الأمانة إحدى علامات النفاق ، قال تعــالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [٢].

وقد اتصف الرسول بالأمانة طوال حياته، وهى صفة واجبة لـــه مع الصدق والتبليغ والفطانة ، وعرف بالأمين بين خصومه وأعدائـــه، واقتدى به أصحابه والتابعون من بعدهم.

والكذب فى الحديث ضعف فى الشخصية ، وهروب من الواقـــع وخصلة من النفاق، وعيب أخلاقى شنيع .

قال الرسول ﷺ : "إياكم والكذب فإنه مـــع الفجـــور وهمـــا فـــى النار"[٣].

وقال الشاعر :

عَوِّدْ لسانَكَ قولَ الصدقِ وأرضَ به ∴ إن اللسانَ لمــا عــودت معتــادُ

---

(١) تفسير القرطبى جـ١٨ صـ١٢٢ .
(٢) الأنفال ٢٧ .
(٣) رواه البخارى وأحمد وابن حبان وفى مسند أبى يعلى.

ونأتى إلى الغدر فى المعاهدة، وهو سلوك سيىء للمنافقين الـــذين لا يلتزمون بعهد ولا يوفون بميثاق ويخالفون قول الله تبارك وتعالى : ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ ﴾ [١].

والصفة الرابعة من صفات المنافقين هى الفجور فى المخاصمة، فلا يحترمون مشاعر المسلمين ، ولا تعنيهم إلا مصـــلحتهم الخاصـــة قالﷺ : "لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال يلتقيان، فيعرض هذا، ويعرض هذا، وخيرهما الذى يبدأ بالسلام"[٢].

ويقترب مضمون هذا الحديث مع حديث آخر جاء فى الصحيحين عن أبى هريرة ﷺ أن النبى ﷺ قال : "آية المنافق ثـــلاث: إذا حـــدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان".[٣]

إن صور النفاق كلها تتلاقى حول الكذب والتهرب وعدم الالتزام، لكن الحديث الأول يشتمل على خصلة إضافية وزائـــدة عـــن الـــثلاث المذكورة فى الحديث الثانى وهى الغدر فى المعاهدة ، ويبدو أن هـــذه الصفة كانت فى حاجة إلى التنبيه بأهميتها ودورها فى بناء شخصـــية المسلم فى مرحلة الإقامة بالمدينة المنورة.

لقد تعددت صور النفاق فى العصر الحديث كالنفاق السياسى الذى تعمد فيه الحاشية إلى الحاكم أو ولى الأمر، فتزين له الباطل من خلال

---

(١) سورة النحل ٩١ .
(٢) رواه البخارى ومسلم .
(٣) السابق.

الكلمة المكتوبة، أو الحديث المذاع حيث تصور الحــق أو الصــواب تصويرا مخالفا للواقع، وكثير من الحكام يتنبهون إلــى هــذا الأمــر فيحمون أنفسهم منه، فلا يغلقون آذانهم أمام أى رأى بل يستمعون لكل راغب فى القول الذى يرى فيــه صــلاحا للأمــة ، وبتــرا للألســنة المخادعة٠

أما النفاق الوظيفة فيظهر فى مجالات العمل المختلفــة ، وهــو قريب من النفاق السياسى إذ عندما يعين رئيس جديد يفد إليه الكثيرون الذين يمدحونه ويبالغون فى الإشادة به، والتحدث عن علمه ومعارفه ثم ينصرف الجمع ويبقى القليل الذى يلتف به ويفرد حوله ما يشبه الطوق الأمنى، فلا تلبث هذه الأساليب أن تنكشف خاصة إذا كان الرئيس تقيا مخلصا٠

ونعوذ بالله من وقوع مثل هذا النموذج فى هذا الشرك واستسلامه لجماعات المنافقين، أما إذا ضعف الإيمان واتضحت المعــالم الســيئة ووقع فى حبائل المخادعين فهنا تكون الطامة الكبرى، ولــذلك يمثــل النفاق الوظيفى تجسيدا للعلاقة بين الحاكم والمحكــوم فــى صــورها القريبة من الأعين الواضحة لأعداد وفيرة من جماعات الموظفين٠

ونأتى إلى النفاق مع النفس، حيث ينــافق الإنســان نفســه، ولا يصدق مع واقعه فيصاب بجنون العظمة، وتضرب الأمور فى داخلــه، وتموج أعماقه بكره الآخرين وازدرائهم والنظر إليهم بنظرات متعالية، وهو فى الحقيقة أصغر بكثير مما يتصور ، أو يتخيل، أو يدعى غيــر الحقيقة ٠

ويجب على المسلم أن يكون أمينا صادقا مع الله وفيا مخلصا مع الناس ، واقعيا مع نفسه، حتى يحيا آمنا مطمئنا بعيـدا عـن النفـاق والمنافقين ، قريبا من المؤمنين المخلصين ، فلا يحمل حقدا لإنسـان، ولا يدبر مكيدة لصديق ، ولا يدعى الكبر والتعالى، بل يكـون مسـلما تقيا عارفا لحق الله، ولواجبات الأخوة، ولحدود النفس.

فالنفاق مظهر غير حضارى، وسلوك رجعى انهزامى، ورغبـة فى التخفى والتلون، وتوجه غير سوى يتناقض مع طبـائع الأشـياء، وحقائق الأمور، وخلق سيىء مناف لخصائص الدين الإسلامى بما فيه من مودة ورحمة وتعاون وشفقة فى الأمور الظاهرة وفـى الجوانـب المستترة التى لا يتنبه لها كثير من الناس.

حديث الإفك

كشف ما جرى فى حديث الإفك عن حلقة من حلقات كذب المنافقين وخداعهم بالمدينة، عندما تكرر منهم الكيد لرسول الله ولجماعة المسلمين، كما كشف من جانب آخر عن نوع مختلف من الإيذاء تم توجيهه إلى زوجة رسول الله ﷺ بنت أبى بكر رضى الله عنها ، ثم كان الوحى الإلهى كاشفا عما ذكرته السيرة النبوية فى موضوع الإفك إذ كان كلام الله سبحانه وتعالى فاصلا فى هذه المؤامرة، ومنيرا لجماعة المسلمين، عما ينبغى أن تكون عليه علاقاتهم برسول الله، وأهل بيته وذريته جميعا ٠

لقد خطبت السيدة عائشة للرسول ﷺ فى سن صغيرة على عادة العرب فى التبكير والإسراع فى زواج الفتيات، لأنهن سريعات فى النمو والنضج والبلوغ وزفت إليه فى المدينة فى سن لم يتفق علماء السيرة عليها، فقيل إن ذلك كان فى التاسعة[١] من عمرها وقيل إنها كانت أكبر من ذلك، وقد تم هذا الأمر فى شهر شوال من السنة الأولى من الهجرة[٢]٠

وكانت رضى الله عنها البكر الوحيدة التى تزوجها الرسول ﷺ ، وتوفى وعمرها ثمان عشرة سنة هجرية، وتوفيت سنة ثمان وخمسين عن ست وستين سنة، ودفنت بالبقيع؛ استجابة لوصيتها، وصلى عليها عبدالرحمن بن صخرة، "أبو هريرة ﷺ" ، ومع صغر سنها لم يكن

---

(١) انظر كتاب أعلام النساء لعمر رضا كحالة صـ١٠ ٠

(٢) وقيل فى السنة الثانية بعد النصر فى غزوة بدر الكبرى ٠

الرسول أول خاطب لها، إذ أنها خطبت قبله لجبير بن مطعم بن عدى، وأراد الله لها الخير فكانت واحدة من أمهات المؤمنين.

وتعد السيدة عائشة من كبار المحدثات فى عصرها وروى عنها جمع كبير من الصحابة الأجلاء والتابعين المجتهدين فى العلم، وكانت نابغة فى الذكاء والفصاحة والبلاغة، مما انعكس على الفهم الواعى لتعاليم الإسلام، وكان أكابر الصحابة يسألونها عن الفرائض، وقال عطاء بن رباح : كانت عائشة من أفقه الناس وأحسن الناس رأيا فى العامة.

وقال عروة: ما رأيت أحدا أعلم بفقه ولا بطب ولا بشعر من عائشة، ولو لم تكن لعائشة من الفضائل إلا قصة الإفك لكفى بها فضلا، وعلو مجد، فإنها نزل فيها من القرآن ما يتلى إلى يوم القيامة[١].

وقد عاشت رضوان الله عليها ؛ لتكون المرجع الأول فى الحديث والسنة وليأخذ المسلمون عنها نصف دينهم كما أمر الرسول ﷺ .

وكتبت عنها الدكتورة عائشة عبدالرحمن بنت الشاطئ فقالت: "عاشت عائشة لتصحح رأى الناس فى المرأة العربية المسلمة، وتعرض لها صورة أصيلة حية ستظل تبهر الدنيا ما أدبر ليل أو أقبل نهار"[٢].

---

(١) انظر كتاب أسد الغابة لابن الأثير جـ٧ صـ١٨٩ .
(٢) نساء النبى صـ١١٦ .

كما أسهمت فى الحياة السياسية فى مرحلة من عمرها خاصة بعد مقتل عثمان بن عفان [ذى النورين] مطالبة الإمام على كرم الله وجهه بسرعة القصاص من الجناه، وخرجت إلى العراق مع جيش طلحة بن عبيد الله ، والزبير بن العوام عند قتالهم لعلى كرم الله وجهه، إذ شهدت موقعة الجمل التى تحقق النصر فيها لعلى ﷺ ٠

وقد كتب إليها إمام المتقين على كرم الله وجهه خطابا فـــى هـــذا الموضوع فردت عليه ردا يكشف عن مدى ما تتمتع به من حس أدبى ولغوى، وجاءت رسالتها موجزة مركزة على هذا النحو : "جل الأمـــر عندى عن العتاب والسلام"[١]٠

أما حياتها فى عصمة الرسول ﷺ فلم يعكر صـــفوها إلا حـــديث الإفك ، كما أن ما جرى بين الرسول وزوجاته مما تحدثت عنه سورة التحريم أو ما ورد فى سورة الأحزاب بشأن رغبتهن فى زيادة النفقـــة فلم يكن إلا شيئا بسيطا بالنظر إلى ما لحق من ضرر دينـــى ونفســـى واجتماعى على الرسول ﷺ ، وأبى بكر الصديق، وســـائر آل بيتيهمـــا بسبب حديث الإفك ٠

كانت السيدة عائشة تطمح ــ كشأن النساء ــ فى ذريـــة خاصـــة بها، ولكن الحرمان منها أخذ يحاصرها ويحيط بها خاصة فى مؤامرة الإفك الدنيئة التى لم يرع فيها المنافقون والمرجفون بالمدينـــة حـــدود

(١) أعلام النساء لعمر رضا كحالة صــ٧٩ ٠

الأدب مع الرسول وزوجه عند العودة من غــزوة بنـــى المصـــطلق والاستقرار فى المدينة ٠

كان الرسول ﷺ إذا أراد السفر أقرع بين زوجاتـــه، فلمـــا كـــان الرحيل لغزوة بنى المصطلق خرج سهم عائشة رضى الله عنها ، كما يروى أن أم سلمة رضى الله عنها كانت من بين جماعـــة المجاهـــدين المرتحلين مع الرسول فى هذه الغزوة ٠

وجاءت فى كتب السيرة عدة روايات عن حديث الإفك ، لكنها لا تختلف حول بعض الثوابت فى هذا الأمر مثل أقوال المنافقين، ومـــن تابعهم من المسلمين، وكان الرسول فى قلق وحيرة وأنه قد استمع إلى حديث عائشة عن سبب تخلفها، إذ أنه لم ينكر منه حرفا واحدا٠

وقد أثرت هذه الأحداث على كثير من الناس كما سنوضح بعـــد عرض الأمر حسب رواية واحدة ٠

وذكر ابن هشام بعض الأحداث من هذا الابتلاء على لسان السيدة عائشة قالت : "... فلما فرغ رسول الله ﷺ من ســـفره ذلـــك[١] وجـــه قافلا[٢]، حتى إذا كان قريبا من المدينة نزل منزلا، فبات بـــه بعـــض الليل، ثم أذن فى الناس بالرحيل، فارتحل النـــاس، وخرجـــت لـــبعض حاجتى، وفى عنقى عقد لى، فيه جذع ظفار[٣]، فلما فرغت انسل مـــن

---

(١) فى غزوة بنى المصطلق ٠

(٢) قافلا : راجعا ٠

(٣) وقيل من جذع أظفار . الجذع : الخرز ، وظفار: مدينة باليمن قرب صنعاء (وهى الآن تابعة لسلطنة عمان) ٠

عنقى ولا أدرى، فلما رجعت إلى الرحل ذهبت ألتمسه فى عنقى، فلم أجده، وقد أخذ الناس فى الرحيل، فرجعت إلى مكانى الذى ذهبت إليه، فالتمسته حتى وجدته، وجاء القوم خلافى الذين كانوا يرحلون لى البعير ، وقد فرغوا من رحلته، فأخذوا الهودج، وهم يظنون أنى فيه، كما كنت أصنع، فاحتملوه فشدوه على البعير، ولم يشكو أنى فيه، ثم أخذوا برأس البعير، فانطلقوا به، فرجعت إلى العسكر، وما فيه من داع ولا مجيب، قد انطلق الناس.

قالت فتلففت بجلبابى، ثم اضجعت فى مكانى، وعرفت أن لو قد افتقدت لرجع إلى: قالت: فوالله إنى لمضطجعة إذ مر بى صفوان بن المعطل السلمى، وقد كان تخلف عن العسكر لبعض حاجته[١]، فلم يبت مع الناس ، فرأى سوادى، فأقبل حتى وقف على، وقد كان يرانى قبل أن يضرب علينا الحجاب، فلما رآنى قال : إن لله وإنا إليه راجعون ، ظعينة رسول الله ﷺ ! وأنا متلففة فى ثيابى، قال : ما خلفك يرحمك الله؟ قالت: فما كلمته، ثم قرب البعير، فقال: اركبى، واستأخر عنى. قالت: فركبت، وأخذ برأس البعير، فانطلق سريعا يطلب الناس، فوالله ما أدركنا الناس ، وما افتقدت حتى أصبحت ، ونزل الناس ، فلما اطمأنوا طلع الرجل يقود بى ، فقال أهل الإفك ما قالوا ، فارتعج[٢] أهل العسكر، ووالله ما أعلم بشىء من ذلك .

---

(١) جاء فى هامش السيرة النبوية لابن هشام أن ابن المعطل كان فى مؤخرة العسكر يلتقط ما يسقط من متاع المسلمين حتى يأتيهم به ، ولذلك كان تخلفه عنهم .

(٢) ارتعج : اضطرب وتحرك .

وتحدثت بنت الشاطئ عن عائشة فى أعقاب العودة فقالت: "وأوت [عائشة] إلى فراشها فنامت هادئة، والمدينة يقظـى لا تنـام! ذلـك أن اليهود وقوما من ذوى الضغن والنفاق على رأسهم (عبدالله بن أبى بن سلول) ــ الذى ما برئ من حقده على الرسول وما فتئ يكيـد لـه ــ تلقفوا الحادثة فنسجوا حولها ما ساؤوا من مفتريات؛ ليشـفوا وتـرهم وأحقادهم .

وانتقل حديث الإفك من أوكار اليهود، ودار [ابن سلول] ومن لف لفه إلى أحياء المدينة، وردده ناس من المسلمين، منهم [حسان بن ثابت] شاعر الرسول، و[مصطح بن أثاثة] ابن خالة أبىبكر وموضـع بـره، و[حمنة بنت جحش] ابنة عمة النبى، وأخت زوجه زينب .

عاشت السيدة عائشة رضوان الله عليها فى بيتها لا تدرى شـيئا عما يخوض الناس فيه، فلما زادت حدة المرض عليها التمسـت مـن الرسول ﷺ أن تنتقل إلى منزل أمها [أم رمان] [1]؛ لتمرضها.

وذات ليلة جاءت إليها أم مسطح بنت أبى رهم بن عبـدالمطلب؛ لتقضى معها بعضا من الوقت ولا علم للسيدة عائشة بما يتحدث الناس عنه، ثم خرجت ليلا لقضاء بعض حوائجها ومعها أم مسطح، وأثنـاء المسير تعثرت السيدة عائشة فى ثيابها فقالت أم مسطح تعس مسطح[2]، ثم استكمل الحوار بينهما كما ذكر ابن هشام على النحو التالى قالـت:

---

(١) أم رمان : هى زينب بنت عبد دهمان .
(٢) مسطح : اسمه عوف .

أى السيدة عائشة: بئس لعمر الله ما قلت لرجل من المهاجرين، قد شهد بدرا.

قالت: أو ما بلغك الخبر يا بنت أبى بكر؟

قالت: قلت: وما الخبر ؟

فأخبرتنى بالذى كان من قول أهل الإفك.

قالت : قلت: أو قد كان هذا ؟

قالت : نعم والله لقد كان .

قالت: فوالله ما قدرت على أن أقضى حاجتى، ورجعت، فوالله ما زلت أبكى حتى ظننت أن البكاء سيصدع كبدى.

قالت: وقلت لأمى: يغفر الله لكى، تحدث الناس بما تحدثوا بـــه، ولا تذكرين لى شيئا من ذلك !

قالت: أى بنيه، خفضى عليك الشأن ، فوالله لقلما كانـــت امـــرأة حسناء، عند رجل يحبها، لهـــا ضـــرائر، إلا كثـــرن، وكثـــر النـــاس عليها[١]".

كان الرسول فى هذه المرحلة الحرجة شديد الضيق والمعاناة لما يتحدث الناس فيه من أمر يمس السيدة عائشة التى كانت فـــى بـــواكير حياتها، ويساء إليها بالكيفية التى أخذ المنافقون يتقولون بألسنتهم فيهـــا، كما قضت الأحداث على ما ينبغى أن يكون عليه المسلمون من بهجـــة وفرح بالنصر على بنى المصطلق، كما كشفت هذه التفـــاعلات عـــن

(١) عن السيرة النبوية لابن هشام جـ٣ صـ٢٢٢ (وفى صحيح البخارى).

الشرر الذى يتطاير من ألسنة المنافقين ، وجماعة من اليهود، وبعـض المسلمين الذين لا يستوعبون الأحداث بصورة عميقة بمـا فيهـا مـن مردود سيىء على الرسول وأهل بيته فى الدرجة الأولى.

وقد شرع الرسول فى مصارحة أصحابه بما يموج فى أعماقـه حتى قبل أن تعلم السيدة عائشة بما يخوض الناس فيه، إذ قـام عليـه الصلاة والسلام خطيبا فى الناس، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال : "يـا أيها الناس ما بال رجال يؤذوننى فى أهلى، ويقولون عليهم غير الحق، والله ما علمت منهم إلا خيرا، ويقولون ذلك لرجل ، والله ما علمت منه إلا خيرا، وما يدخل بيتا من بيوتى إلا وهو معى"(١).

وقد أحدثت هذه الكلمة مع وجازتها تأثيرا كبيرا فـى أصـحابه، ودفاعا عن صفوان بن المعطل وهو من الأتقياء الأنقياء، حتى قيل إن قوما من الأوس قد ازداد حماسهم وعزموا على الفتك بمـن يتحـدث بالسوء عن السيدة عائشة، مما أغضب بعض الناس من الخزرج؛ لأن الذين كانوا يخوضون فى هذا الأمر من قومهم، ثم هدأ الخلاف واستقر الأمر بين جماعة المسلمين من الأوس والخزرج على السواء، إذ كان قذف المحصنات مخالفا لشريعة الإسلام.

وقد أراد الرسول ﷺ المعونة بالرأى من بعض أصحابه، فتوجـه إلى أسامة بن زيد، وعلى بن أبى طالب رضى الله عنهما؛ ليستشيرهما فى الأمر ، أما أولهما فهو أسامة بن زيد الذى سأله رسول الله ﷺ فرد

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام جـ٣ صـ٢٢٢ .

قائلا يا رسول الله : أهلك ولا نعلم منهم إلا خيرا، وهذا الكذب والباطل، وأما ثانيهما فهو على بن أبى طالب كرم الله وجهه فقال : يا رسول الله إن النساء لكثير، وإنك لقادر على أن تستخلف ، وطلب من الرسول ﷺ أن يسأل واحدة من الجوارى فى هذا الأمر، والتى أجابت بالخير والذكر الحسن على السيدة عائشة.

وهذا الخلاف بين أسامة وعلى فى الرأى يعطى انطباعا صادقا لمن تابع هذا الحديث الذى قامت به جماعة المنافقين، وكان عليه الصلاة والسلام مثقل التفكير محزون الفؤاد، كثير الضيق والمعاناة لهذا التمزق الذى اشتمله هو وأهل بيته وأهل بيت أبى بكر وجماعة المسلمين الذين ساءهم الأمر على إجماله.

أراد الرسول ﷺ أن يصارح عائشة بتفصيلات الأمر وأبعاده، فتعامل مع الموضوع بفطانة الأنبياء وذكاء المرسلين خاصة فى هذه المرحلة الخطيرة من عمر الدعوة الإسلامية فى مكة والمدينة.

فذهب ﷺ إلى دار أبى بكر ، حيث توجد عائشة ومعها امرأة من الأنصار فى حضور أبويها، وكانت تبكى والجو يخيم عليه غيوم داكنة من آثار ما قيل ، خاصة أن الرسول قد مكث شهرا لا يوحى إليه فى شأن عائشة، ثم جلس عليه الصلاة والسلام وحمد الله وأثنى عليه وقال: يا عائشة إنه قد كان ما بلغك من قول الناس فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت قد قارفتى سوءا مما يقول الناس فاستغفرى الله وتوبى إليه فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه.

وتركت هذه الكلمة أثرا مؤلما فى نفسها فزاد دمعها حتى أصبحت لا تدرى ما يتساقط منها، وانتظرت أن يجيب عنها أبواها رسول الله فقال أبوبكر: والله ما أدرى ما أقول لرسول الله وقالت أمها والله ما أدرى ما أقول لرسول الله، أى أنهما لم يأتيا بجديد يحسم الأمر، ثم تحدثت عائشة فقالت: إنى والله لقد علمت أنكم سمعتم ما يتحدث الناس به، ووقر فى أنفسكم، وصدقتم به، ولئن قلت لكم إنى بريئة والله يعلم إنى لبريئة لا تصدقونى بذلك ، ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم إنى بريئة لتصدقنى، والله ما أجد لى ولكم مثلا إلا أبا يوسف إذ قال : ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ [1] .

ويروى أن الرسول ﷺ بقى فى منزل أبىبكر فترة تحولت فيها السيدة عائشة إلى فراشها وهى ترجو من ربها أن يبرئها من التهمة التى ألقيت عليها،وكانت ترى أنها أقل من أن ينزل الله فى شأنها براءة فى القرآن الكريم، ولكنها كانت ترجو أن تكون البراءة من خلال رؤية يراها رسول الله ﷺ ، ولم يبرح الرسول مكانه إذ كان العرق يتصبب منه مع أن الجو كان شتاء وما هى إلا مدة حتى تغير وجه الرسول من الكآبة واليأس إلى الابتسام والضحك، ومن الضيق والمعاناة إلى الهدوء والاطمئنان، فكانت أول كلمة تكلم بها بعد الصمت والانتظار قال : أبشرى يا عائشة فقد أنزل الله براءتك، فقالت أمها لها: قومى إلى رسول الله ﷺ فقالت: لا والله لا أقوم إليه، ولا أحمد إلا الله، ونزل

---

(١) سورة يوسف آية ١٨ وانظر أعلام النساء صـ٢٦ .

القرآن بالبراءة بدءا من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۚ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[١].

وقام الرسول إلى الناس ، وقرأ لهم ما نزل عليه بشأن براءة زوجته، فأراح القلوب.

وقد جاء فى غرائب القرآن للنيسابورى أن الإفك : أبلغ ما يكون من الكذب والافتراء ، وقيل هو البهتان، والعصبة: الجماعة من العشرة إلى الأربعين ... قال المفسرون: هم عبدالله بن أبى رأس النفاق، وزيد ابن رفاعة، وحسان بن ثابت، ومسطح بن أثاثة، وحمنة بنت جحش ومعنى منكم : أنهم كانوا من جملة من حكم لهم بالإيمان ظاهرا، أما الخطاب فى قوله [لا تحسبوه شرا لكم] : فالصحيح أنه لمن ساءه ذلك من المؤمنين، وخاصة رسول الله ﷺ وأبى بكر وعائشة وصفوان.

ومعنى كونه خيرا لهم أنهم اكتسبوا فيه الثواب العظيم على قدر عظم البلاء ، وأنه نزلت فيه بضع عشرة آية فيها تعظيم شأن الرسول ﷺ ، وتسلية له، وتنزيه لأم المؤمنين، وتطهير لأهل البيت، وتهويل للطاعنين فيهم، إلى غير ذلك من الأحكام الشرعية والآداب العقلية[٢].

---

(١) سورة النور ١١ .
(٢) غرائب القرآن للنيسابورى جـ٨ صـ٢٦٠، ٢٦١ .

وجاء أن الخطاب لعائشة بأسلوب الجمع لتعظيمها، وقيل للقاذفين، وبيان الخيرية فى عدم الاستمرار فى هذا الحديث والتوبة منه ، ليكون ذلك عقوبة معجلة لهم، وكأنها كفارة عما ارتكبوه من قذف ورمى لشرف السيدة عائشة، وإن كان توجيه الخطاب إلى هؤلاء لا يناسب تسلية الرسول والمؤمنين.

وذكر ابن هشام أن الضرب حدا قد وقع على من أفصح بالفاحشة، وهم الثلاثة المشهورون بذلك مسطح بن أثاثة، وحسان بن ثابت ، وحمنة بنت جحش.

وقد نزلت فى معية الآية المذكورة مجموعة من الآيات الأخرى تعرض لبعض الأمور المتصلة بقذف المحصنات، وتنبيه خطورة ما تحدث الناس فيه مع العظة بألا يعودوا لمثله أبدا . كما جاء بالآيات المذكورة أيضا خطاب لمن يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا، وأن لهم العذاب الأليم فى الدنيا والآخرة كما حذرت الآيات من اتباع خطوات الشيطان والخضوع لغوائه ومفاسده[١].

وخرجت السيدة عائشة من محنتها بشهادة ربانية لا تمحوها الأيام مما زاد فى مكانتها عند رسول الله وأعلى من مقامها فى نفسه، وفى نفوس المؤمنين الصادقين إلى يوم الدين.

بعد البراءة :

قال أبو بكر الصديق ﷺ وكان ينفق على مسطح بن أثاثة، والله لا أنفق على مسطح شيئا أبدا بعد الذى قال لعائشة ما قال، فأنزل الله

(١) انظر النص القرآنى فى سورة النور من الآية ١٢ إلى الآية ٢١ .

تعالى قوله الكريم : ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (1).

لأنه لا ينبغى أن يقسم أهل الخير على عدم إيتاء أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله مما قد يتعارض مع سماحة الإسلام ودعوته إلى العفو والصفح على مسطح بخاصة، فتراجع أبوبكر عن مشروعه فى العقاب قائلا : بلى والله إنى لأحب أن يغفر الله لى فأعاد إلى مسطح ما كان قد منعه عنه.

وتواصلت الآيات المباركات من سورة النور بالحديث عن رمى المحصنات قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ ٱلْغَـٰفِلَـٰتِ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴾ (2).

---

(1) النور ٢٢ .

(2) النور ٢٣ إلى ٢٥ زعم قوم من الشيعة أن الآيات التى فى سورة النور نزلت فى مارية القبطية وليست فى عائشة ، وجاء فى بعض الروايات أن حسان بن ثابت لم يجلد ، ولكن الصحيح أنه خاض فى الإفك واستحق الجلد الذى نفذ فيه .

وقد اعتذر حسان عن الذى قاله فى شأن السيدة عائشة رضى الله عنها، وأورد ذلك فى شعر خالد يسجل له ولا ينازع فيه.

حصانٌ رزانٌ ما تُزَنُّ بريبةٍ ∴ وتصبح غَرْثى من لحومِ الغوافل

عقيلةُ حيٍّ من لؤى بن غالب ∴ كرام المساعى مجدهُم غير زائل

مهذبة قد طيّب الله خيمها ∴ وطهّرها من كل سوء وباطل

فإن كنتُ قد قلتُ الذى قد زعمتم ∴ فلا رفعت سوطى إلىّ أناملى

وكيف وودّى ما حييتُ ونُصْرتى ∴ لآل رسولِ الله زيْنِ المحافل

له رتبٌ عال على الناس كلهم ∴ تقاصر عنه سَوْرة المتطاول

فإن الذى قد قيل ليس بلائقٍ ∴ ولكنه قولُ امرئٍ بى ماحل(١)

١ـ اختار الله السيدة عائشة زوجا لرسول الله ؛ لتحافظ على تراثه من الأحاديث ، ولتسهم فى خدمة العقيدة وحراسة الدين، ولتشارك فى تبصير المسلمين بأمور الحياة بعد وفاة الحبيب المصطفى ﷺ ، ولذلك كان زواجها صغيرة، واستمرار حياتها بعد موته لفترة طويلة مما أسهم فى تحقيق هذه الأهداف، حتى روى أن الرسول ﷺ قال عنها : خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء" (٢).

٢ـ يجب المحافظة على أعراض الناس، ويحرم قذف النساء ورميهن بالباطل، وأن تنفيذ الحدود ليس إلا لردع الخارجين عن منهج

---

(١) حصان: عفيفة ـ ما تزن : ما تتهم ـ غرثى: جائعة ـ الغوافل: جمع غافلة وهى الغافلة القلب عن الشر، أى أنها لا تغتاب الناس ـ الخيم: الطبع ـ الرتب: ما ارتفع من الأرض وعلا ـ الثورة: الوثبة ـ ولائق : لاصق ـ الماحل: الماشى بالنميمة.

(٢) فى البداية والنهاية لابن الأثير.

الله فى خلقه، إذ يجب على كل مسلم أن يصون لسانه عــن المنكــر، ويطهر قلبه من الضغائن.

٣ــ يجب الاستعانة بالصبر والتأنى وضبط النفس عند المواقــف الصعبة التى يشعر الإنسان فيها بالضعف والهوان مما يجعل انتظـــار الفرج واليسر تشريعا إسلاميا محكما لمقاومة سوآت الآخرين.

فتح مكة المكرمة

كان الرسول وأصحابه ــ وهم فى المدينة بعد الهجرة ــ يحبــون مكة ، ويشتاقون للعودة إليها؛ لزيارة البيت الحرام ، ورؤية أهلها الذين لم تتيسر لهم سبل الارتحال، وبقوا فى مكة انتظارا لأمل قريــب فــى اللقاء·

وعندما اجتمع الرسول ﷺ بأصحابه فى المسجد النبوى من العــام السادس الهجرى أنبأهم بما رآه فى نومه، ورؤيا الأنبياء حق من أنــه دخل المسجد الحرام هو وأصــحابه محلقــين رؤوســهم ومقصــرين، وأخبرهم بأنه يريد العمرة تحقيقا لقــول الله تبــارك وتعــالى : ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ (١)·

وقد فرح المهاجرون والأنصار لذلك، واستبشــروا بــه خيــرا، واستعدوا للخروج منتظرين الأمر من نبيهم الكريم ﷺ ·

وخرج الرسول فى أول ذى القعدة من السنة السادسة ومعه قرابة ألف وخمسمائة من أصحابه، وليس معهــم ســلاح إلا الســيوف فــى أغمادها، لأنهم تهيأوا للعمرة، وليس فى نيتهم حرب أو قتال·

---

(١) الفتح ٢٧ ·

وعندما وصلوا إلى مشارف الحديبيــة بركــت ناقــة الرســول **(القصواء)**، فزجروها فلم تقم ، فقالوا: "خلأت القصواء" فقــال عليــه الصلاة والسلام : "ما خلأت وما هو لها بخلق، ولكن حبســها حــابس الفيل عن مكة، لا تدعونى قريش اليوم إلى خطة يسألوننى فيها صــلة الرحم إلا أعطيتهم إياها، ثم أمر الناس أن يحلوا حيث انتهــى بالناقــة المسير "(١).

وأرسلت قريش لرسول الله ﷺ الواحد تلو الآخر مــن رجالهــا؛ لشرح رغبتهم للمسلمين فى ألا يدخلوا مكة عنوة، فما كان منــه إلا أن بعث إليهم عثمان بن عفان؛ ليشرح لهم قصد الرسول، والغرض الذى خرج من أجله، وشاع بين الناس أن عثمان قتل، فعقد المســلمون مــع الرسول بيعة الرضوان التى ذكرها القرآن الكريم، قال تعــالى: ﴿ **لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا** ﴾ (٢).

وجاء سهيل بن عمرو إلى الرسول ﷺ نائبا عن قــريش، وعقــد معه صلح الحديبية الذى أقر رجوع الرسول والمسلمين إلى المدينة من غير عمرة، ثم يأتون فى العام القادم، فيدخلون مكة، ويقيمون فيها ثلاثة أيام تخرج قريش منها، وتتركها لهم، كما أقر الصلح وقف الحرب بين المسلمين وقريش عشرة أعوام، ومن شروط هذه المعاهدة أيضا أن من

---

(١) حديث صحيح من حديث الحديبية عند البخارى وغيره .
(٢) الفتح ١٨ .

أراد أن يدخل فى عهد محمد دخل فيه ، ومن أراد أن يدخل فى عهد قريش دخل فيه، وأن من جاء إلى المسلمين من قريش يردونه، ومن جاء قريشا من المسلمين لا تلزم قريش برده٠

وغضب الصحابة من بعض شروط هذا الصلح، ثم لم تلبث أن هدأت نفوسهم، واستراحت ضمائرهم، وعادوا مع الرسول إلى المدينة بعد أن تحللوا من إحرامهم ونحروا هديتهم، وحلقوا أو قصروا شعورهم ٠

وذكر القرآن هذا الصلح فى سورة الفتح، فقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ (١)٠

وبعد أن انصرف الرسول من الحديبية نزل عليه قول الله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾ (٢)٠

وبقى الرسول وأصحابه أوفياء للعهد ، أمناء على الوعد، وكانوا يتحرقون شوقا إلى مكة، ويرغبون فى دخولها فاتحين، وأن ينعموا فيها

---

(١) الفتح ٢٤ ٠
(٢) الفتح ١ ــ ٣ ٠

بالأمن والحياة زمنا طويلا، وليس ثلاثة أيام حسب الاتفاق على عمرة القضاء ٠

واستقر فى أعماق المسلمين أن دخولهم مكة صار قريبا خاصـــة بعد أن ترامى إلى أسماعهم تلك المخالفات التـــى مارســـتها قـــريش، وخرجت بها عن شروط الحديبية، ثم إن تلك الشـــروط التـــى ضـــج المسلمون منها، وأحسوا أنهم أهينوا بها لم تلبث قريش أن رغبت فـــى إلغائها فيما بعد٠

وقد أخل كفار مكة بالعهد، ونصروا قبيلة(بكر)، وهى من حلفائهم على قبيلة (خزاعة) وهى من حلفاء الرسول ﷺ ، وجاء عمرو بن سالم الخزاعى إلى المدينة، واشتكى إلى رسول الله ﷺ مما لحـــق بقومـــه، وأخبره الرسول بأنه وقبيلة خزاعة منتصرون إن شاء الله تعالى٠

ويبدو أن قريشا قد أحست بخطر قادم، فبعثت أبـــا ســـفيان إلـــى المدينة ليؤكد العهد مع الرسول ﷺ ، وحتى لا يكون أمر بكر وخزاعة سبيلا لغزو مكة وسببا لنقض العهد، وجعل من مهمته الثقيلة أن يزيـــد فى مدة الهدنة مع الرسول ﷺ ، ولم يصل أبوسفيان إلى ما كان يسعى إليه بعد أن بدأ قومه بنقض العهد، وخلف الوعد، وعاد إلـــى قـــريش ينذرها بأمر جد خطير، كشفت عنه الدلائل والعلامات ٠

بدأ الرسول فى الإعداد والتجهيز لدخول مكة، وأمر المسلمين أن يحفظوا الأسرار حتى يدخلوها على غير استعداد من أهلهـــا، فـــتحقن بذلك الدماء، ووفدت إليه بعض القبائل العربية التى أسلمت ورغبت فى

دخول مكة معه، لأن الإسلام قد صار قوة لا يستهان بها فـــى منطقـــة الحجاز ٠

خرج الرسول ﷺ لعشر مضين من رمضان فى السنة الثامنة من الهجرة، ومعه عشرة آلاف مقاتل من المسلمين، والتقى فـــى طريقـــه بعمه العباس بن عبدالمطلب، وكان قد أسلم فى مكة، وأراد الهجرة إلى المدينة بزوجه وأولاده، وتحدث الرسول إليه، ثم أبقاه معه، وارتحلـــت ذريته إلى المدينة ٠

وكانت بعض الأخبار قد وصلت إلى مكة فخرج أبوسفيان إلـــى الصحراء يتحسس أنباء القادمين، ويتطلع إلى منع الرســـول وجيشـــه بالحسنى، ثم التقى بالعباس الذى اصطحبه، وجعلـــه ينظـــر لكتائـــب المسلمين حيث عسكرت فى (مر الظهران) على مقربة مـــن مكـــة ، وذهب به إلى الرسول ﷺ ، وأعلن أبوسفيان إسلامه أمام جمـــع مـــن الصحابة الأجلاء ، واتجه العباس إلى الرسول ﷺ وقال له : "يا رسول الله إن أبا سفيان ـــ كما أعلمه ـــ رجل يحب الفخر، وتميل به الخيلاء، وإنه حتى هذه الساعة لا يزال الإسلام غريبا فى قلبه، والعقيـــدة غيـــر مستقرة فى نفسه، فاجعل له شيئا يقضى به حاجة نفســـه مـــن الزهـــو والمخيلة، ويجعله فى الإسلام أثبت قدما وأكبر يقينا"٠

فقال الرسول : "من دخل دار أبى سفيان فهو آمن، ومـــن دخـــل المسجد فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن"(١)٠

(١) حديث صحيح من عدة طرق، كما أخرجه مسلم من حديث أبىهريرة٠

وفيه : "ومن ألقى السلاح فهو آمن" بدل : "ومن دخل المسجد فهو آمن".

وسمع أبو سفيان كلام الرسول ، وشاهد القوى الزاحفة ، وأيقن أنها النبوة التى لا يمكن مقاومتها والتصدى لها، وسار إلى مكة خائفا مبهورا، وأخبر القوم بمن وراءه، فغضبوا منه، وثاروا عليه، ثم انصرفوا إلى المسجد والدور.

وقد قسم الرسول الجيش أربع فرق، وأمرها جميعا ألا تقاتل إلا إذا أكرهت على ذلك إكراها، وجعل خالد بن الوليد على الميمنة، وأمره أن يدخل من أسفل مكة ، وكان الزبير بن العوام على الجانب الأيسر من الجيش، وأمر الرسول أبا عبيدة أن يدخله مكة من أعلاها، ووجه سعد بن عبادة إلى الدخول من جانبها الغربى، ويروى أن سعدا قال عند الدخول: "اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرمة، اليوم أذل الله قريشا" وعلم الرسول بذلك، فأرسل على بن أبىطالب، وقال له : "أدركه فخذ الراية منه، فكن أنت الذى تدخل بها"[١] وأمره أن يقول عند الدخول: "اليوم يوم المرحمة، اليوم تصان الحرمة، اليوم أعز الله قريشا"، وقيل إن الراية قد سلمت إلى قيس بن سعد بن عبادة: ودخل الرسول ﷺ مكة فى يوم الجمعة للعشرين من رمضان فى العام المذكور وهو راكب راحلته فى تواضع جم، وكان يقرأ قول الله تعالى:

---

(١) سيرة ابن هشام جـ٤ صـ٣٠٩ .

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ (١).

ولم يقتل من قريش عند الفتح إلا عدد قليل بينما استشهد رجـــلان من المسلمين، ودخل الناس فى دين الله أفواجا ٠

اتجه الرسول ﷺ إلى البيت الحرام، وطاف به سبعا، ثم أشار إلى الأصنام بعود فى يده، وهو يقرأ : ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ (٢).

وتحطمت الأصنام ، وتطهرت الكعبة، ودخلها الرســـول ومعـــه بلال، وأمره أن يؤذن، ويجهر باسم الله، وكان بعض القرشـــيين فـــى حيرة واضطراب لما ستسفر عنه الأحداث، ثم شخصـــت أبصـــارهم عندما كانوا يشاهدون الرسول وهو يتجه إلى مكان عال فـــى المســـجد الحرام، ثم أخذهم العجب وهم يستمعون إليه وهو يقول :

"يا معشر قريش ما ترون أنى فاعل بكم؟"

قالوا: خيرا، أخ كريم وابن أخ كريم٠

قال : "فإنى أقول لكم ما قال يوسف لإخوته: لا تثريـــب علـــيكم اليوم، اذهبوا فأنتم الطلقاء" وتحقق نص الله المبين فى شهر رمضـــان الكريم٠

---

(١) الفتح ١ ــ ٢ ٠
(٢) الإسراء ٨١ ٠

من دروس الفتح المبين :

١ - لقد وضع فتح مكة نهاية للصراع بين قريش والمسلمين، ومهد الطريق لانتشار الإسلام فى الجزيرة العربية وفى مختلف النواحى من خارج تلك المنطقة التى احتدم الصراع بها طوال تلك السنين العديدة، كما عزت قريش منذ ذلك اليوم بالإسلام، ويروى أن الرسول ﷺ قال : "لا تغزى قريش بعد هذا اليوم إلى يوم القيامة"[١].

وكان الرسول كريما ومتسامحا معهم ، فلم ينتقم من أحد منهم، ولم يثأر لشرفه وكرامته، وعفا عنهم ، وتجاوز عن إساءتهم له، وجعل همه تحطيم الأصنام، والقضاء على الوثنية ، وإعلاء كلمة الله ، وإرساء المبادئ الإسلامية فى مكة المكرمة.

٢ - يكشف فتح مكة عن تواضع الرسول وحلمه، فقد دخل مكة باكيا ، ولم يدخلها مزهوا أو منتشيا كما يفعل بعض المنتصرين، وتجلت أخلاقه فى الحفاظ على العهد، والالتزام بالمواثيق التى أبرمها مع قريش فى الحديبية.

٣ - ظهرت فى شخصية الرسول ملامح القائد المحنك، فقد أعد للأمر عدته، وخطط للفتح تخطيطا سليما، ولم يشعر أهل مكة بقوة جيشه إلا عندما ألم بهم، ولم يعد فى مقدورهم أن يقاوموه أو يتصدوا له، ومع تلك القوة فهو يحرص على السلم، وينبذ القتال.

---

(١) طبقات ابن سعد جـ٢ صـ١٩٩ .

٤ – تتجلى فى أهداف الفتح بعض ملامح التيسير المستمدة من روح الإسلام، فقد نادى منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكـــان الناس فى رمضان قائلا : "من أحب أن يفطر فليفطر ، ومن أحـــب أن يصوم فليصم(١)، وكان منهم فى أثناء الزحف من صام، ومـــنهم مـــن أفطر، ولما أشرفوا على لقاء العدو عند مر الظهران أمرهم بالفطر"٠

٥ – لقد عفا الرسول ﷺ عن حاطب بن أبى بلتعة، وهـــو مـــن الصحابة الأجلاء، وقد هاجر إلى المدينة، وشهد بدرا، وعند الاستعداد للفتح بسرية وكتمان ،أرسل حاطب خطابا إلى قريش يخبرهم فيه بمـــا يعتزمه الرسول من السير إليهم، وجاء فيه "أن النبى ﷺ قد توجه إليكم بجيش كالليل، يسير كالسيل، وأقسم بالله لو سار إليكم وحده لنصره الله عليكم، فإنه منجز له ما وعده"(٢) وأعطاه لامرأة من مزينة، وجعل لها جعلا، على أن تبلغه لقريش، فوضعته فى شعرها، وفتلت عليه قرونها، وعلم الرسول ذلك بفضل مـــن الله، فبعـــث إليهـــا بعـــض أصـــحابه، واستردوا الكتاب منها، وواجه الرسول به حاطبا، وقال له: "ما حملـــك على هذا؟ فقال: يا رسول الله ، أما والله إنى لمؤمن بالله ورسوله، مـــا غيرت ولا بدلت، ولكنى كنت امرءا ليس لى فى القوم من أصـــل ولا عشيرة، وكان لى بين أظهرهم ولد وأهل، فصانعتهم عليه. فقال عمـــر ابن الخطاب: يا رسول الله، دعنى فلأضرب عنقه، فإن هذا الرجل قـــد نافق، فقال رسول الله ﷺ : وما يدريك يا عمر، لعل الله قد اطلع إلـــى

---

(١) الطبقات الكبرى ابن سعد جـــ٢ ص ١٩٥ ٠
(٢) الروض الأنف جـــ٢ ص٦٦٦ ٠

أصحاب بدر يوم بدر، فقل اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم، فأنزل الله تعالى فى حاطب : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ ...﴾ إلى قوله : ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ (١)

وقد تسامح الرسول معه إعمالا لقول الله تعالى: ﴿إن الحسنات يذهبن السيئات﴾ (٢) وقوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۞ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ (٣).

ولا ينبغى أن يمحى التاريخ الحافل للرجل بهذه الزلة التى سقط فيها واندفع إليها .

٦ - لقد زادت ثقة المسلمين فى أنفسهم، وانطلقوا من مكة للقضاء على الشرك والوثنية بين القبائل العربية، والتى لم تلبث أن دانت بالإسلام، ودخل الناس فى دين الله أفواجا، ولله عاقبة الأمور .

---

(١)(الممتحنة ١ ــ ٤) وإلى نهاية هذه الأحداث.
(٢) سورة هود ١١٤ .
(٣) الزلزلة ٧، ٨ .

الحج ركن من أركان الإسلام

الحج ركن من أركان الإسلام، وعبادة تصفو فيها القلـوب إلـى رب العالمين، ولقاء يجمع بين أجناس المسلمين، وتوبة صادقة إلى الله، وزيارة سامية للبيت الحرام، واستجابة مخلصة لنداء القـرآن الكـريم، وإحياء لسنة الأنبياء والمرسلين، وجهاد يتلاقى فيه المسلمون على كلمة التوحيد ، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (١).

وفى كل عام تهب على المسلمين نسمات المحبة والشـوق إلـى زيارة بيت الله الحرام، فيدخرون المال، ويجمعون الـزاد، ويلبسـون أثواب النقاء والصفاء، ويلهجون بالتلبية والدعاء، ويودعـون الأهـل والأصحاب، ويقطعون الفيافى والأجواء، ويسترجعون الماضى التليـد بما فيه من تضحية وفداء وبذل وعطاء.

فالحجاج والعمار يستحضرون قصة نبى الله إبراهيم يوم أن ذهب بولده إسماعيل وزوجته(هاجر) إلى مكة،وتركهما قافلا إلى الشام، وهو يدعو ربه أن يجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم، قال تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ (٢).

---

(١) سورة آل عمران ٩٧ .
(٢) سورة إبراهيم ٣٧ .

لقد اختار الله سبحانه وتعالى هذا البيت، ورزق أهله من الثمرات التى كانت ولازالت تجبى إليهم؛ حتى تعينهم على الطاعـة والعبـادة وخدمة الحجيج، وحماية البيت الحرام.

وأمر المولى سبحانه وتعالى سيدنا إبراهيم بإعداد بيت الله للـذكر والعبادة والطواف والصلاة، وأمره أن يدعو الناس إلى حجه والالتقـاء فيه، والالتفاف حوله، حتى يشهدوا على وحدانية الله، ويحققـوا منـافع وخيرات لهم ، ويذكروا اسم الله فى أيام معدودة معلومة ، قال تعالى :

﴿وأذن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴾ (١).

ومعنى : ﴿وأذن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ ﴾ أى "ناد فى الناس داعيا لهم إلى الحج إلى هذا البيت الذى أمرناك ببنائه، فذكر أنه قـال : يـا رب كيف أبلغ الناس وصوتى لا ينفذهم، فقال: ناد وعلينا البلاغ، فقام على مقامه، وقيل على الحجر، وقيل على الصفا، وقيل على أبـى قبـيس، وقال: يا أيها الناس إن ربكم قد اتخذ بيتا فحجوه، فيقـال: إن الجبـال

---

(١) سورة الحج ٢٧ ــ ٢٩ .

تواضعت حتى بلغ الصوت أرجاء الأرض، وأسمع من فــى الأرحــام والأصلاب، وأجابه كل شيء سمعه من حجر ومدر وشجر، ومن كتب الله أنه يحج إلى يوم القيامة"[١] ومدر: طين متماسك وقيل إن الله تعالى قال له: عليك الأذان وعلينا البلاغ وقيل إن الخطاب لمحمــد ــ ﷺ ــ مــــن قولــــه: ﴿أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [٢] فالمخاطب مشاهد وإبراهيم عليه السلام غائب قال القرطبى فى تفسيره : "وهذا قول أهــل النظــر؛ لأن القرآن أنزل على النبى ــ ﷺ ــ، فكل ما فيه من المخاطبة فهى له إلا أن يدل دليل قاطع على غير ذلك"[٣].

وعميق : بعيد .

ومعنى: ﴿لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ أى منافع الدنيا والآخرة.

وقوله : ﴿فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ﴾ أى أيام العشر أو النحر وثلاثة أيام بعده، وقيل غير ذلك.

وقوله : ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ أى قضاء إزالة الوسخ وقيــل: التفث: المناسك وقوله: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ المقصود طواف الإفاضة، أى الركن بالبيت القديم الذى أعتق من الجبابرة الذين رغبوا

---

(١) تفسير ابن كثير ج٣ ص٢١٦ .
(٢) سورة الحج ٢٦ .
(٣) الجامع لأحكام القرآن ج١٢ ص٣٨ .

فى هدمه وإزالته، أو أعتق من الغرق وقد صنع رسـول الله ـ ﷺ ـ فى حجة الوداع أنه رجع إلى منى يوم النحر، وبـدأ يرمـى الجمـرة فرماها بسبع حصيات، وثم نحر هديه، وحلق رأسه، ثم أفاض فطـاف بالبيت، وفى الصحيحين عن ابن عباس إنه قال أمر الناس أن يكـون آخر عهدهم بالبيت الطواف ، إلا أنه خفف عن المرأة الحائض.

ولقد شرع الحج على عهد إبراهيم وإسماعيل، وبقى معروفا فـى الجاهلية، وأقره الإسلام على جملته، وأبطل ما أحدثه الكفار من الشرك والمنكرات، وزاد فيه بعض النسك والعبادات، وعظمت منـافع الحـج عن تلك التى كانت فى زمن إبراهيم عليه السلام، وتوثقت صلة أهـل مكة ببيت الله الحرام خلال هذه الحقب الطويلة، ونقم البعض من أهـل الأديان والبلدان الأخرى لمكانة هـذا البيـت العظـيم، ورد الله كيـد المعتدين الذين أرادوا هدم الكعبة، ومسخ مكة وصرف الحجيج عنهـا، كأبرهة الحبشى (الأشرم) وأصحاب الفيل الذين جعل الله كيـدهم فـى تضليل، وأرسل عليهم الطير الأبابيل، فصـاروا كعصـف مـأكول ، وتوثقت صلة رسولنا بالبيت الحرام فكان إذا رآه رفع يديـه ، وقـال: "اللهم زد هذا البيت تشريفا وتعظيما وتكريما وبرا" [١].

وقد فرض الله الحج فى الإسلام فى السنة السادسة أو التاسعة من الهجرة وأقره الرسول ـ ﷺ ـ ركنا من الأركان الخمسة للإسلام.

---

(١) رواه الإمام الشافعى مرفوعا إلى النبى صلى الله عليه وسلم قاله عمر .

فعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسـول الله ـ ﷺ ـ : "بنى الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والحج وصوم رمضان"[١].

وفى رواية "وحج البيت لمن استطاع إليه سـبيلا" وفـى روايـة بتأخيره عن الصوم . والاستطاعة التى ذكرها القرآن الكريم، ووردت فى بعض روايات الحديث تتسع؛ لتشمل كل ما يتصـل بالسـفر لأداء الفريضة بمقدرة وأمان على الوجه الأكمل الذى يلائم هذه العبادة التى تؤدى مرة واحدة فى العمر على سبيل الوجوب من كل شخص قـادر مستطيع اجتمعت فيه الشروط الواجبة للأداء، ولهـذا لا يجـب علـى الإنسان أن يحج عن طريق الاستدانة أو عن طريـق مـال حـرام أو مشكوك فيه ، فالله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبا، ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها. ومن تزود للحج بمال حرام فلا ثواب له، وليس له من سـفره إلا التعب والمشقة؛ حتى وإن سقطت الفريضة عنه مـا دام قـد قـام بالأركان والواجبات من الناحية الشكلية الظاهرة، فالتزود للحـج أمـر ضرورى وهام خاصة فى هذه الأيام التى كثرت فيها تكـاليف السـفر والإقامة والتنقل بين المشاعر المقدسة وغيرها من المتطلبات الضـرورة. وقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال "كان أهل اليمن يحجون ، ولا يتزودون، ويقولون: نحن المتوكلون، فإذا قدموا مكة، سألوا الناس، فأنزل الله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾[٢].

(١) البخارى ومسلم .
(٢) سورة البقرة ١٩٧ .

إن التفكك الذى تعانى منه الأمة الإسلامية راجع إلى عدم تمسكهم بالمنهج الإسلامى فى عدله ورحمته، فهل هم كالبنيـان المرصـوص الذى يشد بعضه بعضا، وهل هم كالجسد الواحد الذى إذا اشتكى منـه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى؟ إن اختلافهم وتفرقهم أضعف قواهم واستهلك مواردهم، وتحكم فيهم خصـومهم وأعـداؤهم الطامعون فيهم والراغبون فى السيطرة عليهم .

فلنتخذ من رسولنا محمد ــ ﷺ ــ قدوة حسنة وأسـوة مباركـة، عندما التقى بالرجال والنساء من أهل الأوس والخزرج فى بيعتى القبة قبل الهجرة، فعاهدهم وعاهدوه، وارتحل إليهم فنصروه، واتبعوا النور الذى أنزل عليه . أو عندما التقى بخصومه الألداء فى مكـة المكرمـة بعد الفتح على مقربة من الكعبة الشريفة، فعفا عنهم، وتصالح معهـم، وقال لهم: "اذهبوا فأنتم الطلقاء" ودخل الناس فى دين الله أفواجا.

ليكن اجتماع المسلمين فى فريضة الحج على أرض مكة وسـائر الأماكن المقدسة مناسبة عظيمة يعود فيها كل مؤمن راغب فى التوبـة إلى الله، ويسهم ــ فى حدود طاقته ــ ويشارك إخوانه المسلمين فـى تحقيق المنافع العامة للمسلمين.

لقد جاء الإسلام بدستور إلهى، كانت دعوة إبراهيم عليه السـلام من صميمه ، وحمل الرسول هذا الميراث الدينى العظيم إلـى الأمـة، وجمع الناس حول الوحى الذى يتلقاه عن ربه، وكان البيـت الحـرام مركزا لهذا التجمع، وهاجر إلى المدينة وعينه على مكة، وعاد إليهـا فاتحا منتصرا فطاف بالبيت، وحطم الأصنام، وعفـا عـن خصـومه

ودخل الناس فى دين الله أفواجا ، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ (١).

ودعا الإسلام إلى وحدة الأمة،لا فرق بين عربى وأعجمى، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾ (٢) وقال : ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾(٣).

ففى هذه الرسالة الخاتمة تذوب الفوارق المصطنعة بين الناس، وينمحى التمييز السيىء فيما بينهم؛ بسبب لون البشرة أو جنس الخلقة أو موقع الإقامة.

إن الحج فريضة إسلامية تنمى مشاعر الإحساس بوحدة الأمة وتميزها واستقلالها، وتنبذ الفرقة والتعالى والغرور وعبادة الشيطان والمظاهر الكاذبة والرياء الخادع.

فما أحوج الناس إلى طلوع فجر اليقظة الإسلامية وشروق شمس الإسلام من جديد ، والله على كل شىء قدير.

---

(١) سورة الفتح ٢٧، ٢٨ .
(٢) سورة المؤمنون ٥٢ .
(٣) سورة الحجرات ١٠ .

من أهداف الحج

لقد شرع الله سبحانه وتعالى الحج لمنافع عظيمة، وحكم سـامية، ومعان روحية دقيقة لا يستشعرها إلا الصالحون المتقون، والزاهـدون الورعون الذين تعلقت قلوبهم بالكعبة المشرفة، واشتاقت نفوسهم إلـى زيارة الرسول ـ ﷺ ـ وإلى الصلاة فى الروضة المشرفة .

إن الأهداف الإيمانية لفريضة الحج كثيرة ومتعددة يرجع بعضها إلى الفرد، وبعضها إلى الجماعة، ولعل أهم منفعة للحج هى أن يجتمع المسلمون فى مظهر إيمانى فريد حول بيت الله الحرام، وفـوق ثـرى عرفات، تعبيرا عن قوة إيمانهم، واستجابة لدعوة خالقهم.

والحج هو الفريضة التى تجمع بين المسلمين من مشارق الأرض ومغاربها، ومن شمالها وجنوبها، لا يتميز أحدهم على الآخر بلـون أو غنى أو صحة أو مكانة أو أى غرض من أغراض الدنيا، حيث يقبلون جميعا على خالقهم متجردين من الزينة مستجيبين لـربهم، مهللـين ، وملبين بصوت راغب فى التوبة والمغفرة "لبيك اللهم لبيـك، لبيـك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لـك والملـك لا شـريك لـك ..." ويرددون مثل هذا الدعاء فى سفرهم وتنقلهم : "اللهم أنت الصاحب فى السفر، والخليفة فى الأهل ... اللهم إنى أعوذ بك من سوء الرفقة فـى السفر ، والكآبة فى المنقلب ... اللهم اطولنا الأرض، وهـون علينـا السفر".

ويعد الاجتماع فى الحج أعظم المنافع، وأجمع لأطـراف الخيـر حيث يتدارس الحجاج واقع الإسلام فى شتى ديـاره ومنـازل أهلـه، ويبحثون المشكلات ويضعون الحلول، وإنها لمناسبة جليلة لو أحسـن العالم الإسلامى توجيهها والاستفادة منها غير أن المنافع السامية التـى شرعها الله لهذه العبادة قد تقاصر المسلمون أمامها، ولم يرتقوا – فـى العصر الحاضر – إلى المستوى المأمول منها بسبب الفرقة التى عمت وانتشرت، واستشرت فى أرجاء كثيرة من المجتمعات الإسلامية٠

لقد عاشت منطقة الحجاز فقيرة معدمة مدة طويلة ، فلا ينـتعش لها كيان إلا فى مواسم الحج ، وكانت مكة ملتقى للتجارة فيمـا بـين الشام واليمن، وكان ذهاب الحجيج عاملا مهما وسـببا رئيسـيا فـى انتعاش التجارة فى هذه المنطقة الصحراوية المجدبة . ثم تآلفت الحجاز مع نجد، واستفادت الأولى من خيرات الثانية، وأصـبح الحـج أيسـر وأسهل مما كان عليه فى الماضى، فقد عبدت الطرق، وانتشر الأمـن، وعم الرخاء، وأقيمت المساكن الراقية، واتسـع الحرمـان فـى مكـة والمدينة، وزرع الشجر فى عرفات، وأقيمت المظلات فى منى، وشقت الإنفاق فى الجبال، ولم يعد الحجاج والزوار يلقـون مـا كـان يـئن ويضجر منه الناس إلى وقت قريب٠

وإذا كان أهل مكة قد استغنوا بفضل الله ، ولم تتوقـف حركـة الحياة عندهم على ثمار التجارة التى كانت موردا وأملا للقـدماء فـإن الهدف الأسمى يبقى مأمولا فى استثمار هذا اللقاء على مستوى العـالم الإسلامى، وفى دائرة أوسع تتجاوز الفرد إلى الجماعة٠

والحاج الذى تكبد المشاق وتحمل الصعاب يسعى إلى توبة نصوح يعود فيها إلى الله بالطاعة والذكر والعبادة إعمالا بآية الحج ... ﴿لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ﴾ (١) فالمنافع كثيرة منها المادى ومنها المعنوى، ومنها العاجل، ومنها الآجل ... وذكر القرطبى المنافع بأنها "المناسبات، كعرفات والمشعر الحرام، وقيل المغفرة، وقيل التجارة وقيل هو عموم، أى ليحضروا منافع لهم؛ أى ما يرضى الله تعالى من أمر الدنيا والآخرة، قاله مجاهد وعطاء، واختاره ابن العربى فإنه يجمع ذلك كله من نسك وتجارة ومغفرة ومنفعة دنيا وأخرى"(٢) وفى غمرة التوبة التى يسعى إليها الحاج يستشعر عظمة الأمة : ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾ (٣) ويدرك قدر وجوده ورفعة إسلامه، ومدى التئامه مع الآخرين، وكأنهم جميعا جسد واحد صحيح.

إن طبيعة هذه الفريضة تحتم على المسلمين أن يتحلوا لها بعظيم الشمائل ويترفعوا فيها عن الضغائن، ويبتعدوا عن الجدال فى القول، وسائر آفات اللسان، قال تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ

(١) سورة الحج ٢٨ .
(٢) الجامع لأحكام القرآن ج١٢ ص٤١ .
(٣) سورة الأنبياء ٩٢ .

فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [١].

والرفث: ما يتعلق بالأمور الجنسية، والفسوق: هو الضلال والعصيان، والجدال: هو المحاورة والمنازعة والرغبة في المغالبة والمفاخرة بالباطل.

وقد جاء النهى عن هذه الأمور تعظيما لفريضة الحج، وتحقيقا لبعض أهدافها التى تتمثل فى توطيد العلاقة بين ضيوف بيت الله، كما يجب أن يكون المسلم فى زيارته لبيت ربه على أكمل وجه ، وأفضل حال.

روى عن الرسول ـ ﷺ ـ أنه قال : "من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه"[٢].

ولا يجب أن يكون الهدف من الحج قاصرا على سعى الشخص لإسقاط ما عليه من ذنوب وسيئات اقترفها فى حياته، أو أن يقصد بحجه الشهرة والسمعة للظفر بلقب (حاج)؛ ليعرف به بين الناس، أو أن يذهب لأداء المناسك وهو فى حالة صحية لا تسمح له بأدائها على الوجه الكامل الصحيح ، بل لابد أن يسعى إلى الحج وهو قادر على

(١) سورة البقرة ١٩٧ .
(٢) متفق عليه .

أداء النسك، مشتاق إلى ربه، راغب فى التوبة، عازم على قطع صلته بكل المنكرات والذنوب والتوجه إلى الله بكل أفعاله وأقواله.

ما هو الحج المبرور؟

الحج المبرور هو الذى يقابله الله سبحانه وتعالى بالبر والثـواب، وذلك إذا لم يخالطه شيىء من الذنوب والآثام، وهذا الحج من أفضـل الأعمال التى يتقرب بها العبد المؤمن إلى مولاه وخالقه، وقـد سـئل النبى ـ ﷺ ـ فقيل له :

أى الأعمال أفضل؟

قال: إيمان بالله ورسوله .

قيل : ثم ماذا ؟

قال : جهاد فى سبيل الله .

قيل : ثم ماذا ؟

قال : حج مبرور[١].

وقد أكد الرسول فى العديد من الأحاديث الشـريفة ضـرورة أن يكون الحج خالصا لوجه الله، مشمولا بالبر والتقوى، قـال ـ ﷺ ـ : "العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة"[٢] والحج المبرور جهاد فى حق النساء اللاتى يعجزن عن حمل السلاح ومواجهة الأعداء، فعن عائشة رضى الله عنها قالت: "يا رسول

(١) البخارى .
(٢) البخارى ومسلم .

الله ترى الجهاد أفضل العمل أفلا نجاهد؟ قال : لكن أفضل الجهاد حج مبرور"[١].

وينبغى أن يكون الحج عن كل مسلم مبرورا، وذلك إذا كانت النفقة من حلال، والسفر خالصا لوجه الله، ومحررا من النفاق والرياء، وقد حرص الحاج قبل سفره على التوبة النصوح، ورد المظالم إلى أصحابها، وإرجاع الحقوق إلى ذويها.

وينبغى أن يحرص ـ الحاج ـ أثناء سفره على مراعاة شعور الرفقاء، وأن يكون لهم ناصحا عطوفا صادقا مخلصا، لين الجانب، وعليه أن يكثر من الدعاء والاستغفار فى أدب وخشوع، كما عليه ألا يقصر فى واجب من الواجبات، وأن يؤدى المناسك على الوجه الأكمل، وأن يلتزم بآداب الحج وسننه وأن يكون قدوة صالحة، ومثلا طيبا فى مكارم الأخلاق وأنبل الصفات، وأن يزهد فى شهوات الدنيا، وأن يتسامح مع الآخرين، وأن يصفح عمن أساء إليه، أو قصر فى حقه، وأن يبسط يده بالبر والإحسان، وأن يعين الضعفاء، وأن يكون سمحا إذا باع أو اشترى، وأن يتذرع بالحكمة والصبر، وأن يتناصح بالحق، فالسفر قطعة من العذاب ومنه تظهر معادن الرجال وطبائع الخلق وقوة الإيمان.

والحج مرة واحدة فى العمر على سبيل الوجوب وما زاد على ذلك فهو تطوع فعن أبى هريرة قال :

---

(١) البخارى ومسلم .

خطبنا رسول الله ــ ﷺ ــ فقال : يا أيها الناس إن الله كتب عليكم الحج فحجوا، فقال رجل: أكل عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثا ، فقال ــ ﷺ ــ : "لو قلت نعم لوجبت ، ولما استطعتم" ثم قال: ذرونى ما تركتكم فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه"(١).

فما أعظم هذه الفريضة، وما أعذب وقعها على النفوس المؤمنة الصابرة، إنها رحلة الحياة، وطريق النور، وأمل الكثيرين الذين تتوق نفوسهم إلى التوبة الصادقة، والتزود بالإيمان ، والإقبال على الله تعالى بالنية الصادقة والإيمان الصحيح .

وقال الشيخ محمد متولى الشعراوى : "والحج فريضة تقتضى أشياء كثيرة فى حركة الحياة ... فهى تقتضى مجهودا وطاقة وعونا من الله بالقوة والقدرة والعافية وتقتضى حركة؛ لأن الإنسان عليه أن يعمل أكثر من حاجته المعيشية ليدخر مصاريف الحج، فلو عمل على قدر حاجته لكسب وأنفق ما يكفى يومه وما ادخر شيئا ليحج به، ولذلك فإن المؤمن يطلب من الله طاقة عمل تتسع له ولمن يعول، ولما سينفقه بعد ذلك عندما يكون حاجا(٢).

والمبرور أى الذى لا يرتكب صاحبه فيه معصية، وينبغى أن يكون كل حج مبرورا ليتحقق فيه كمال العبادة لله، ولا شيء فى أن

---

(١) البخارى ومسلم .
(٢) الحج المبرور ص١٣ .

يعمل المسافر فى حجه عملا يتكسب منه كالتجارة مــثلا، فعــن ابــن عباس رضى الله عنهما قال :

"كانت عكاظ ومجنة وذو المجاز أسواقا فى الجاهلية ، فتأثموا أن يتجروا فى المواسم، فنزلت : ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [١].

والحج المبرور يقطع به المسلم حاضر توبته، بماضـــى ســيآته، ويعيش بمقتضاه مستقبل أيامه فى عبادة وذكر وصلة قوية بالله تعالى ، فعن عمرو بن العاص قال : لما جعل الله الإسلام فى قلبى أتيت رسول الله ــ ﷺ ــ فقلت : ابسط يدك فلأبايعك، قال: فبسط، فقبضت يــدى، فقال : "مالك يا عمرو" قلت: اشترط، قال: تشترط ماذا؟ قلت أن يغفــر لى، قال : "أما علمت أن الإسلام يهدم ما قبله، وأن الهجرة تهــدم مـــا قبلها، وأن الحج يهدم ما قبله"[٢].

فالحج المبرور إخلاص فى النية وصدق فى العزيمة وطاعة لله، وأداء للنسك، وإنفاق من حلال ، والتزام بما أمر به، والله يقول الحــق وهو الهادى إلى سواء السبيل ٠

---

(١) البخارى ٠
(٢) مسلم ٠

من مناسك الحج والعمرة(*)
الإحرام

الإحرام هو نية الدخول فى الحج أو العمرة أو فيهما معا مع التلبية قال تعالى:﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾(١)، والإنسان عندما يدخل فى الإحرام، يحرم على نفسه ما كان مباحا لــه من قبل؛ تقديسا وإجلالا للحرم الشريف الذى سيدخل فى رحابه.

ويكون الإحرام بالنية الخالصة الصــادقة، وبالطهــارة الكاملــة، وبتغيير الملابس عند الرجال، وباستعداد خاص عند الرجال والنســاء جميعا فى مواقيت زمانية ومكانية محددة؛ استعدادا لدخول البيت الحرام الذى جعله الله مثابة للناس وأمنا .

والإحرام ركن فى الحج والعمرة حيث يتجرد الإنسان مــن كــل منصب وجاه، ويتحلل من ملابس الدنيا وزخارف الحياة ، ويأتى إلــى الله بملابس الزهد والتقوى والورع ؛ فتذوب الفــوارق الدنيويــة بــين الناس، ويتساوى الغنى والفقير، والصحيح والسقيم، والعربى والعجمى، والشامى والحجازى، ويدركون جميعا أن الله سبحانه وتعالى قد ساوى بينهم ، ووحد بين قلوبهم، وجعلهم شعوبا وقبائل؛ ليتعارفوا ويتحــابوا، ويتلاقوا على عبادة الله ومحبته، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ

(*) نشر فى جريدة اللواء الإسلامى بالعدد ١٨٣ فى ١٩٨٥/٧/٢٥م.
(١) البينة ٥ .

أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (١) وبذلك يموت الزهو والغرور من كل نفس ثابت إلى الله، وتزين بملابس الإحرام، بعد أن كانت تختال غرورا وبطرا، وإعجابا وصلفا، وهكذا وحد الله بين القلوب الظامئة إلى رحماته ونفحاته، وجمعها فى تلك الفريضة الواجبة، التى قال فيها رسول الله ﷺ : "من حج هذا لبيت فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه"(٢).

وينبغى لمن نوى الحج أو العمرة أن يتأدب بآداب الإحرام، وأن يحرص على الالتزام بسنة رسول الله ﷺ ، وأن يقبل على الله إقبالا حسنا، ويتطهر ويتنظف، إجلالا لبيت الله، فيحلق شعره، ويقص أظافره ويتطيب، ويرتدى ملابس الإحرام، بينما تبقى المرأة فى ملابسها المعتادة، وينوى المحرم ما يقصده من حج أو عمرة ، ويبدأ الإحرام بالنية وصلاة ركعتين سنة للإحرام ويشرع المحرم فى التلبية. وتلبية رسول الله ﷺ هى : "لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك" ويرفع الرجل بها صوته عند الركوب وعند النزول، وفى معظم الأحوال، ويلتزم بها إلى رمى جمرة العقبة يوم النحر، والإكثار من الدعاء والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ ، أما المرأة فلا ترفع صوتها بالتلبية وإنما تسمع بها نفسها فقط .

---

(١) الحجرات ١٣ .
(٢) متفق عليه .

وملابس الإحرام للرجال رداء للف النصف الأعلى من الجسم وإزار للف النصف الأسفل منه، وينبغى أن يكونا من اللون الأبيض.

ويكون الإحرام بالحج فى أحد الأشهر الثلاثة وهى شوال وذو القعدة وذو الحجة لقوله تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾ (١).

ولذلك لا يجوز الإحرام بالحج قبل هذه الأشهر.

واجبات الإحرام :

ويجب الإحرام من الميقات المكانى المحدد لكل بلد من بلاد المسلمين، فعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : "وقت رسول الله ﷺ لأهل المدينة ذا الحليفة، ولأهل الشام الجحفة، ولأهل نجد قرن المنازل، ولأهل اليمن يلملم، فهى لهن، ولمن أتى عليهن من غير أهلهن، لمن كان يريد الحج والعمرة، فمن كان دونهن فَمَهَلُّهُ من أهله، وحتى أهل مكة يهلون منها"(٢).

وتبقى مواضع هذه الأمكنة ميقاتا لأهل البلاد التى يمرون عليها حتى لو تغيرت أسماؤها، أو أقيم غيرها مكانها فإن الحكم لا يتغير، فصارت (رابغ) الآن ميقاتا لأهل مصر والشام والمغرب، و(آبار على) أو ذو الحليفة الميقات المكانى لأهل المدينة، أما العراق فميقاتهم (ذات عرق).

---

(١) الآية ١٩٧ من سورة البقرة.
(٢) رواه البخارى ومسلم.

ولو مر الشخص على ميقاته ولم يحرم منه بدون عذر، عد آثما، ويلزمه ذبح هدى فى منى يوم النحر، ولـذلك يجـوز الإحـرام قبـل الميقات؛ حتى يأمن الحاج أو المعتمر التأخير عن الميقات.

وتكتمل واجبات الإحرام بالتجرد من المخيط وما أحاط بالجسـم كالحذاء مع والنية والتلبية.

والحاج (المتمتع) هو الذى يبدأ بالعمرة وبعد الانتهاء منها يحـرم مرة ثانية بالحج فى اليوم الثامن من ذى الحجة (يوم التروية) من مكة المكرمة أو قربها فى عام عمرته، ثم يستمر فى مناسك الحج إلـى أن يتحلل من الإحرام يوم النحر بعد رمـى جمـرة العقبـة والحلـق أو التقصير، ويلزم من فعل ذلك هدى (ذبح) فى حرم مكة (ومنـى مـن الحرم) لقوله تعـالى: ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ [(١)] .

والحاج (المقرن) هو من نوى عند إحرامه الحج والعمرة معـا، ويبقى على إحرامه إلى أن يتحلل منه يوم النحر، ويلزم من فعل ذلـك هدى أيضا.

أما الحاج (المفرد) فهو من أحرم بالحج فقط مـن الميقـات، ولا يلزمه هدى ويبقى على إحرامه حتى يتحلل منه مع الحجاج فـى يـوم

---

(١) البقرة ١٩٦ .

العيد، وسمى المتمتع بذلك للانتفاع بأداء الحج والعمرة فى أشهر الحج، وللتمتع بالتحلل من الإحرام بعد أداء العمرة.

محظورات الإحرام :

والإحرام ركن من أركان الحج والعمرة، ويلزم من قام به الكثير من الآداب التى يجب أن يتحلى بها فى تأدية المناسك، ويحظر عليه أن يقع فى بعض المنهيات التى يلزمه فدى بسببها، وله أن يختار الأيسر له من بين ثلاثة أمور وهى صيام ثلاثة أيام أو إطعام ستة مساكين أو ذبح شاة، ويجوز للمحرم أن يتحلل من إحرامه بسبب المرض، كما أن له حلق رأسه ، قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [١].

كما أنه لا يليق بالمحرم أن ينصرف عن التلبية، وينشغل بأمور الدنيا، أو يضيق صدره بمشقات السفر، فيحادث رفاقه بكلمة نابية، أو لفظة جارحة، ولا يضعف كل من الرجل والمرأة، ويلين بالقول أمام الآخر، فينصرف الذهن عن العبادة والتلبية، وذلك حتى يكون الحج مبرورا والعمرة مقبولة.

ويحظر أيضا لبس المخيط وكل ما أحيط بالجسم ، وعقد النكاح من المحرم لنفسه، أو لغيره،وتقليم الأظافر،وحلق الرأس وإزالة الشعر،

---

(١) البقرة / ١٩٦ .

والتطيب فى الثوب والبدن، والتعرض للصيد ، قـال تعـالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞ...﴾ [١].

ويمتنع الزوجان عن اللقاء الجنسى، وهو أشد أنواع المحظورات، ويفسد به الحج والعمرة، غير أنه يجب الاستمرار فـى أداء النسـك، ويلزم من وقع منه أن يذبح بدنه (بعيرا) حسب رأى جمهور الفقهاء.

أما المرأة إذا حاضت بعد إحرامها، فإنها تمضى فى أعمال الحج غير أنها لا تطوف بالبيت الحرام، فعن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال : "إن النفساء والحائض تغتسل وتحرم، وتقضى المناسك كلها غير أنها لا تطوف بالبيت حتى تطهر"[٢].

إن الإحرام بالحج أو العمرة يقتضى من المسلم أن يكـون قـدوة صالحة للمسلمين فى ذهابه وإيابه، وألا يغضب أحدا من النـاس، وألا يشغل نفسه إلا بالعبادة والتلبية والذكر وتلاوة القرآن والعمل الشريف؛ حتى يكون سفره ميمونا وحجه مبرورا.

---

(١) المائدة / ٩٥ .
(٢) رواه أحمد وأبو داود والترمذى وحسنه.

الطواف بالكعبة المشرفة(*)

لقد حدد الله سبحانه وتعالى مكان البيت الحرام، ووضعه للناس من عهد آدم إلى أن تقوم الساعة، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾ (١) .

وجاء إبراهيم فأسكن زوجته وابنه إسماعيل عند البيت الحرام، قال تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ ... ﴾ (٢).

ثم أمره الله سبحانه وتعالى — ومعه ابنه إسماعيل — برفع قواعد الكعبة المشرفة فى تلك البقعة المقدسة، وبقى الحجر والمقام والحجر الأسود ميراثا عظيما لأمة الإسلام إلى أن جاء محمد ﷺ ، وتعلق قلبه بالبيت العتيق، وطاف حوله، وأمر المسلمين أن يحجوا — كما علمهم — وأن يأخذوا عنه مناسك الحج والعمرة؛ ولتعظيم البيت وإجلاله وتقديره شرع الطواف عند القدوم، وعند الوداع، وطواف الإفاضة وهو ركن فى الحج ، قال تعالى: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴾ (٣) ، ويدخل وقته من منتصف ليلة النحر، وأفضله بعد رمى جمرة العقبة

(*) نشر بجريدة اللواء الإسلامى بالعدد ١٨٣ فى ١٩٨٥/٧/٢٥م.
(١) آل عمران ٩٦ .
(٢) إبراهيم من الآية ٣٧ .
(٣) الحج ٢٩ .

وذبح الهدى، والحلق يوم العاشر من ذى الحجة، أما طواف القدوم فهو لمن نوى الحج فقط.

وروى البخارى ومسلم من حديث أبى ذر قال : "سألت رسول الله ﷺ عن أول مسجد وضع للناس قال : المسجد الحرام ، قلت: ثـم أى؟ قال: بيت المقدس، قلت: كم بينهما، قال : أربعون عاما" .

وقال الشيخ محمد متولى الشعراوى :

"بعض الناس يعتقد أن البيت الحرام هو الكعبـة .. وهـذا غيـر صحيح ، فالبيت الحرام هو المكان الذى بنيت فيه الكعبـة .. وهنـاك فرق بين المكان والعلامة الدالة على المكان وهى المكين ... إذن فمـا فعله إبراهيم هو أنه رفع القواعد ، والارتفاع كما نعلم هو البعد الثالث ... فهناك الطول والعرض لكل مساحة، ثم يأتى بعد ذلك البعد الثالـث وهو الارتفاع ... أما مكان البيت نفسه فهو الذى أسكن فيـه زوجتـه هاجر، وطفلهما الرضيع إسماعيل"(١).

ويشترط للطواف أن يكون على طهارة مع سـتر العـورة، وأن يكون سبعة أشواط كاملة حول الكعبة، وأن تكون المرأة طـاهرة مـن الحيض والنفاس، وعن السيدة عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ دخل عليها وهى تبكى فقال: أنفست؟ قالت: نعم، قال: إن هـذا شـىء كتبه الله على بنات آدم ، فاقضى ما يقضى الحاج غير أن لا تطـوفى بالبيت حتى تغتسلى"(٢).

---

(١) الحج المبرور صـ٢٨ .
(٢) رواه مسلم .

كما يشترط أن يبدأ الطواف من الحجر الأسود، وهو يمين الله فى الأرض وعندما يستلمه الحاج أو المعتمر، أو يشير إليــه عنــد بــدء الطواف، فإنه يسترجع الماضى التليد بكل ما يحمل من دروس وعبر، ويتزاحم كثير من الناس على ملامسته وتقبيله ــ خلافا للسنة ــ ولقــد قال الرسول ﷺ لعمر بن الخطاب ﷺ : "يا أبا حفص : إنك رجل قوى فلا تزاحم على الركن، فإنك تؤذى الضعيف، ولكن إن وجــدت خلــوة فاستقم، وإلا فكبر وامض"(١).

ومن سنن الطواف تقبيل الحجر الأسود أو الإشارة إليــه، فعــن عمر ﷺ "أنه جاء إلى الحجر الأسود ، فقبله، فقال : إنى أعلــم أنــك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا إنى رأيت النبى ﷺ يقبلك ما قبلتك"(٢).

ومن السنة أيضا فى الطواف أن يكثر الطائف من الذكر والدعاء وقراءة القرآن والصلاة على الرسول ﷺ وترك الكلام فى أمور الدنيا، وأن يدعو ــ فى الأشواط السبعة ــ بما شاء الله له وفتح عليــه مــن الدعاء مع كثرة الاستغفار ، وتأكيد العزم على التوبة والرجــوع إلــى الله، وأفضل الدعاء عموما ما جاء بالقرآن الكريم وبسنة الرسول ﷺ ٠

ومن سنن الطواف "الرمل" فى الأشواط الثلاثة الأولــى، وهــو الإسراع فى المشى مع تقارب الخطا وهز الكتفين، فعــن ابــن عمــر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ رمل من الحجر الأسود إلى الحجر

---

(١) رواه الشافعى فى سننه ٠
(٢) البخارى ٠

الأسود ثلاثا، ثم مشى أربعا"[١] ، وقد شرع فى عمرة القضاء فى السنة السابعة من الهجرة ؛ ليرى المشركون قوة المسلمين وشدتهم، إذ أنهم قالوا: إن حمى يثرب قد وهنتهم وأضعفتهم، وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنهم قالوا: "يقدم عليكم غدا قوم قد وهنتهم الحمى، ولقوا منها شدة، فاطلع الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ على ما قالوا، فأمرهم أن يرملوا الأشواط الثلاثة، وأن يمشوا بين الركنين. وقال ابن عباس : ولم يمنعه أن يأمرهم أن يرملوا الأشواط كلها إلا الإبقاء عليهم"[٢].

ومن السنة أيضا الاضطباع؛ لأنه يعين على الرمل فى الطواف وهو كما ذكره رسول الله ﷺ فى حديث عن ابن عباس رضى الله عنهما : "إن النبى ﷺ وأصحابه اعتمروا من الجعرانة، فاضطبعوا أرديتهم تحت آباطهم، وقذفوها على عواتقهم اليسرى"[٣].

أى أن يكون طرف الرداء تحت الإبط الأيمن، ويلقى الطرف الآخر على الكتف الأيسر، والرمل والاضطباع للرجال دون النساء، ويكونان فى كل طواف بعده سعى بين الصفا والمروة ٠

وفى حديث عمر ﷺ أنه قال للركن : أما والله إنى لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أنى رأيت النبى ﷺ استلمك ما استلمتك، فاستلمه ثم قال :

---

(١) رواه أحمد ومسلم ٠
(٢) البخارى ومسلم وأبو داود ٠
(٣) رواه أحمد وأبو داود ٠

ما لنا وللرمل؟ إنما كنا رآينا المشركين، وقد أهلكهم الله، ثم قال : شيء صنعه النبى ﷺ فلا نحب أن نتركه"[١]٠

كأنه قد بدا له أن يترك الرمل بعدما انتهت الحكمة منه إلا أنه ﷺ رأى أن يلتزم المسلمون به اقتداء بالنبى ﷺ فحكمه قائم، وإن زال سببه٠

كما تسن الموالاة فى الطواف، ولا يفصل الطائف بين الأشواط إلا بالصلاة المفروضة التى حان وقتها٠

ويجوز للشخص أن يطوف بالبيت راكبا أو محمولا عند الضرورة ٠

ومن السنة بعد الانتهاء من الطواف صلاة ركعتين بنية سنة الطواف فى مقام إبراهيم عليه السلام إن تيسر ذلك ، وإلا ففى أى مكان آخر من المسجد الحرام، والسنة فيهما قراءة سورة (الكافرون) بعد الفاتحة فى الركعة الأولى، وقراءة سورة (الإخلاص) بعد الفاتحة فى الركعة الثانية، كما يستحب بعد ذلك الشرب من مياه زمزم حتى تتم الفائدة ويعم الخير وتكثر الحسنات المرجوة ٠

ومن الدعاء المأثور عند الشرب من مياه زمزم : "اللهم إنى أسألك رزقا واسعا، وعلما نافعا، وشفاء من كل داء"٠

---

(١) رواه البخارى ٠

وطواف الوداع واجب عند أكثر الفقهاء وسنة عند البعض، وهو مطلوب لما رواه مسلم وأبوداود عن ابن عباس رضـــى الله عنهمـــا : قال: "كان الناس ينصرفون فى كل وجه" فقال النبى: "لا ينفر أحـــدكم حتى يكون آخر عهده بالبيت"٠

وفى الطواف وغيره من المناسك تنساب التقوى فـــى القلـــوب، وتتعطر الأبدان بأريج الإيمان، وتذوب الفوارق بين الناس، ويتســـاوى الجميع فى طهر ونقاء عند طوافهم ببيت الله، وعند تعلقهـــم بـــالملتزم، وعند استلامهم للحجر الأسود والركن اليمانى، وعند صلاتهم فى حجر إسماعيل وفى مقام إبراهيم فلقد وحد الإيمان بـــين القلـــوب، وجعلهـــا متلهفة لرحمة الله، والكل يدعو ويلح فى دعائه طلبا للرحمة والمغفـــرة والرضوان ٠

السعى بين الصفا والمروة

الحج فريضة إسلامية سامية، وعبادة قديمة تلتقى حولها الأديـان والرسالات السماوية الصحيحة، فهى توطد الوحدة الإنسانية، وتقـرب بين الشعوب،وتهدف إلى إزالة الفوارق على اختلاف أنواعها بين الناس ما داموا يدينون بدين إلهى، فرسل الله وأنبياؤه يأخذون من معين واحد، ويتلقون وحى السماء عن إله لا شريك له،فهم جميعا إخوة وإن اختلفت أزمانهم، وتباعدت أوطانهم،وقد قال ابن عباس رضى الله عنهما عندما رأى قوما يسعون بين الصفا والمروءة:"هذا ما أورثتكم أمكم أم إسماعيل".

ويبدأ السعى بالصعود فوق جبل الصفا، والدعاء بما كان يدعو به محمد ﷺ ، ويسير الحاج أو المعتمر ساعيا أو راكبا حتى يصـل إلـى جبل المروة، ويكتمل السعى بسبعة أشواط مـا بـين هـذين الجبلـين العظيمين ، مستحضرا الماضى العظيم بصورته المتمثلة فى إبـراهيم الخليل، وابنه إسماعيل والد العرب، وزوجه هـاجر المصـرية تلـك الزوجة والأم الصابرة المحتسبة التى كانت تهرول بين الصفا والمروة باحثة عن قليل من الماء تبل به ظمأها وتسقى وليدها بعد أن تركهمـا إبراهيم لرب العالمين عند بيت الله المحرم .

قال تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ (١) .

---

(١) إبراهيم ٣٧ .

والصفا: العريض من الحجارة الملس، وهو مكان مرتفع من جبل أبى قبيس وبينه وبين المسجد الحرام عرض الوادى الذى هو طريــق وسوق[١].

والمروة: جبل بمكة يعطف على الصفا وهو مائل إلى الحمرة[٢].

لقد ترك إبراهيم عليه السلام زوجه هاجر وابنه إسماعيل علــيهم السلام عند زمزم، ومكة يومئذ خالية من وسائل الحياة وليس بها مــن أحد، ووضع عندهما جرابا فيه تمر، وسقاء به ماء، أى زاد قليل، لكن إيمانه القوى بالله جعله يتوقف عند الثنية؟ حيث لا يرونه، ويدعو ربــه بما جاء فى الآية السابقة ويمضى إلى حال سبيله .

أما هاجر .. " فقد انقطع درها، واشتد جوع ابنها، حتى نظــرت إليه يتشحط، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فقامت على الصفا ــ وهو أقرب جبل يليها ــ ثم استقبلت الوادى تنظر ، هل ترى أحدا ؟ فلم تر أحدا، فهبطت من الصفا، حتى إذا بلغت الوادى رفعت طرف درعهــا، ثم سعت سعى إنسان مجهود، حتى جاوزت الوادى، ثم أتت المــروة، فقامت عليها، ونظرت، هل ترى أحدا ؟ فلم تر أحدا، ففعلت ذلك ســبع مرات. قال ابن عباس رضى الله عنهما: قال النبى ﷺ : "فلذلك ســعى الناس بينهما"[٣].

---

(١) انظر معجم البلدان جــ٣ صــ٤١١ وهذا التحديد ــ فيما أعتقد ــ فى عهد ياقوت الحموى صاحب الكتاب المذكور .

(٢) السابق جــ٥ صــ١١٦ .

(٣) فقه السنة لسيد سابق جــ١ صــ٥٩٩ .

والسعى ركن عند الأكثرين، مثل الشافعى ومالك وأحمد، وابــن عمر وجابر وعائشة وغيرهم، ولو تركه الحاج بطل حجه، ولا يجبــر بدم.

وهو سنة عند ابن عباس ، وأنس وابن الزبير وغيرهم، ولا يجب بتركه شيىء.

وهو واجب عند أبىحنيفة وغيره، ومن تركـــه وجـــب عليـــه دم (هدى) وقد تفجر الماء من تحت قدمى إسماعيل، وارتوت هاجر وشبع الصبى، وحفظهما الله، فهما وديعة عنده، أبقاهمـــا الله تعميـــرا لأرض الحرم وبيت الله فى هذه البقاع المقدسة، وقد ذكر الله هـــذه الشـــعيرة فقال: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [1] .

فالسعى مأخوذ من طواف هاجر بين هذين الجبلين بعـــد أن نفـــد الماء والزاد، وتعرضا للهلاك.

وقد نزلت هذه الآية لما تحرج بعض المسلمين من الســـعى بـــين هذين الجبلين، إذ كان الناس فى الجاهلية يسعون بينهما، لأجل صنمين كانا على الصفا والمروة هما (أساف ونائلة) فكره المسلمون أن يطوفوا كما كانوا يطوفون فى الجاهلية، خاصة بعد أن ذكر الله تعالى الطواف

---

(١) البقرة ١٥٨ .

بالبيت، ولم يذكر الطواف أو السعى بين الصفا والمروة، فامتنع المسلمون عن الطواف بين هذين الجبلين، فنزلت هذه الآية الكريمة.

وقال الشعبى: كان أساف على الصفا، وكانت نائلة على المروة، وكانوا يستلمونهما فتحرجوا بعد الإسلام من الطواف بينهما وأبيح السعى بقوله : ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ﴾ .

أما قوله : ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ أى فى سائر العبادات.

وقوله ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ أى يثيب على القليل بالكثير ، عليم بقدر الجزاء فلا يبخس أحدا ثوابه"[١].

وقال أنس بن مالك (فى حق الصفا والمروة) : كنا نرى أنهما من أمر الجاهلية ، فلما كان الإسلام أمسكنا عنهما ، فأنزل الله عزوجل : ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ﴾ [٢].

ومن شروط صحة السعى بين الصفا والمروة[٣] كما جاء فى فقه السنة لسيد سابق : أن يكون السعى بعد طواف ، وأن يكون سبعة أشواط، وأن تكون البداية بالصفا، والنهاية بالمروة، وأن يكون السعى فى المسعى وهو الطريق الممتد بين الصفا والمروة، قال ﷺ : "خذوا عنى مناسككم"[٤].

---

(١) فى ظلال القرآن جـ١ صـ١٤٨ .
(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ٢ صـ١٧٨ .
(٣) فقه السنة جـ١ صـ٦٠١ .
(٤) رواه مسلم .

ويجوز السعى راكبا وماشيا، والمشى أفضل.

ويسن الرمل فى بطن الوادى بين الميلين الأخضرين، والمشى فيما سواه، والرمل: الإسراع فى المشى مع تقارب الخطا وهز الكتفين، وهو للرجال دون النساء، مثلما يسن الرمل فى الأشواط الثلاثة الأولى عند الطواف بالبيت.

ويسن أن يكون الساعى على طهارة إلا لضرورة، فقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال : "إن النفساء والحائض تغتسل وتحرم وتقضى المناسك كلها (أى كل أعمال الحج) غير أنها لا تطوف بالبيت حتى تطهر".(١)

وبعد الانتهاء من السعى يبدأ التحلل من الإحرام بالحلق أو التقصير، ويكون المعتمر قد انتهى من عمرته ، ويكون الحاج قد تحلل أيضا من عمرته، إذا كان متمتعا أى مبتدئا بالعمرة خاتما بالحج، ويحل له كل شىء كان محظورا عليه، وقد بين كتاب الله التمتع فقال: ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ (٢).

---

(١) متفق عليه.
(٢) البقرة ١٩٦ .

وإن كان الحاج (قارنا) أى جامعا بين الحج والعمرة فـــى وقـــت واحد فلا يحتاج إلى سعى آخر، ويبقى على إحرامه؛ حتى يتحلل منـــه يوم النحر٠

والسعى بين الصفا والمروة ــ لغيره من مناسك الحج والعمرة ــ مظهر من مظاهر الوحدة، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾ [1] حيث تتحد فيه القلوب علـــى طاعـــة الله، وتتبارى فيه النفوس؛ للفوز برضا الرحمن، وتلهج الألســـنة بالأدعيـــة والأذكار فى خشوع وتأمل، وصبر وتحمل؛ وثقة بالله لا تزعزع إلـــى أن ينتهى الساعون من سعيهم، وهم يتطلعون إلى نسك جديد يـــذكرون فيه إله الكون ورب الأرض وقيوم السماء٠

---

(١) المؤمنون ٥٢ ٠

الوقوف بعرفة

يوم عرفة من أيام الله المشهودة، حيث يلتقـي حجـاج بيـت الله الحرام فى التاسع من ذى الحجة على أرض عرفات الطاهرة، بعد أن جاءوا من كل فج عميق، طالبين رحمة الله ومغفرته، دون أن يشـعر الواحد منهم بتميز له على غيره من وفد الله، إذ يقبل الجميع علـى الله فيتجلى عليهم ويباهى بهم ملائكته الكرام فى هذا الموقف العظيم، الذى جمع بين دعوة إبراهيم، ورسالة محمـد عليهمـا الصـلاة والسـلام، فالوقوف بعرفة تجسيد واضح لحقيقة التوحيـد الـذى أكدتـه العقيـدة الإسلامية.

ولقد أجمع العلماء على أن الوقوف بعرفة هو الركن الأعظم فى الحج لقول الرسول ﷺ : "الحج عرفة"[١].

ويبدأ من زوال اليوم التاسع من ذى الحجـة إلـى فجـر اليـوم العاشر، قال أحمد بن حنبل: إن الوقوف من فجر اليوم التاسع إلى فجر اليوم العاشر.

وأرض عرفة كلها موقف بمعنى جواز الوقوف فى أى مكان بهذا الجبل، وإن كان من المستحب الوقوف عند الصخرات، أو قريبا منهـا فى حدود الاستطاعة.

---

(١) رواه الترمذى والنسائى وابن ماجة.

ويأتى تميز الوقوف عن بقية الأركان؛ لمـــا يمثلـــه مـــن دلالات رائعة على وحدة الأمة، وضرورة التآلف والتكاتف والتعـــارف بـــين وفود الرحمن إلى الحج .

لماذا التسمية؟

قيل: برجوع أصل هذه التسمية إلى سيدنا إبراهيم، عندما رأ فـــى المنام أنه يذبح ابنه إسماعيل، وكان ذلك فى الثامن مـــن ذى الحجـــة، فتروى فى ذلك الأمر، فسميت ليلة التروية، ولما رأ نفس الرؤيا فـــى اليوم التالى عرف أنها رؤيا حق، فسميت ليلة عرفة.

وقيل: إن آدم وحواء لما هبطا من الجنة إلى الأرض ضـــل كـــل واحد منهما طريق الآخر، وأخذ كل واحد منهما يبحث عـــن الآخـــر، فتعارفا فوق هذا الجبل .

وقيل: إن جبريل عليه السلام هو الذى بـــين لإبـــراهيم منطقـــة الحرم، فلما وصل إلى هذا الجبل قال إبراهيم عليه الســـلام: عرفـــت، فسميت عرفة.

وقيل: إن الحجيج يتعارفون فى هذا المكان، ولأن العرب تســـمى الشىء المرتفع عرفة.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ (١) .

---

(١) الحجرات ١٣ .

وقيل: لأن كل مؤمن يعرف قوة إيمانه عند الجبل، ولا مانع من أن تكون كل هذه المعانى محققة فى هذا الموقف.

فالوقوف على ثرى عرفات تأكيد على عالمية الإسلام، وشمول دعوته لسائر الموحدين بالله، ودلالة على كل معانى الإخاء الإنسانى بين البشر، وأن الأجناس والألوان وكل المعايير الأخرى سوى التقوى، لا قيمة لها عند الإقبال على الله فوق الجبل، أو أمام الكعبة، أو بين الصفا والمروة، أو فى غيرها من الشعائر الدينية .

فالوقوف بملابس الإحرام وبالتلبية والإقبال على الله بالشكر والثناء على تمام التوفيق فى مواصلة النسك وتأكيد وحدة المسلمين تعد أهم المنافع التى يشهدها الحاج،قال تعالى:﴿لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ ﴾ [١].

فمنذ أن لبى الله دعوة إبراهيم حينما اتجه إلى ربه، وأسكن ذريته بالأرض التى لا زرع فيها ولا دماء عند بيت الله الحرام، ودعوة خليل الرحمن تجرى فى أعماق البشر إلى عهد رسالة سيدنا محمد ومن سار على هديه إلى يوم الدين .

واكتملت نعمة الله بهذه الفريضة ومن واقع ما نزل على الرسول ﷺ فى حجة الوداع : ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ...﴾ [٢] .

---

(١) الحج ٢٨ .
(٢) المائدة ٣ .

وعن أنس بن مالك ﷺ قال : "وقف النبى ﷺ بعرفات، وقد كادت الشمس أن تثوب فقال يا بلال أنصت لى الناس ، فقام بلال فقال: أنصتوا لرسول الله ﷺ ، فأنصت الناس، فقال : معاشر الناس أتانى جبريل عليه السلام آنفا، فأقرأنى من ربى السلام، وقال إن الله عزوجل غفر لأهل عرفات، وأهل المشعر الحرام، وضمن عنهم التبعات [أى المظالم] فقام عمر بن الخطاب ﷺ ، قال: يا رسول الله : هذا لنا خاصة؟ قال: هذا لكم، ولمن أتى من بعدكم إلى يوم القيامة فقال عمر ﷺ : كثر خير الله وطاب"(١).

إن يوم عرفة بما تشهده ساحاته من وقوف وعبادة وتضرع إلى الله يؤكد جوهر العلاقات الإنسانية التى تؤلف بين المسلمين فى الدنيا، ويذكرهم بيوم الحشر الذى يبعث الناس فيه للقاء رب العالمين، والعرض عليه، والحساب على كل صغيرة وكبيرة، حيث يجد كل إنسان ما عمله من خير أو شر حاضرا واضحا جليا أمامه، ولا يظلم ربك أحدا فعن أبى هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : "رب أشعث أغبر مدفوع الأبواب، لو أقسم على الله لأبره"(٢).

وفى حديث قدسى قال الله تعالى للملائكة بعد إخبارهم بخلق الإنسان : "انظروا إلى عبادى جاءونى شعثا غبرا ألم أقل لكم إنى أعلم ما لا تعلمون"(٣).

---

(١) رواه البخارى٠
(٢) رواه مسلم ٠
(٣) رواه ابن حبان فى صحيحه والطبرانى فى الأوسط وأحمد٠

فهذا التجلى الذى يثيره الوقوف بعرفة يشمل الحجيج بعظمة الرحمة والمغفرة؛ جزاء إخلاصهم فى العبادة وإقبالهم على الله، ومن السنة التى ينبغى الحرص عليها للمقيمين الذين لا يشهدون الوقوف صيام هذا اليوم قال رسول الله ﷺ : "صيام يوم عرفة إنى أحتسبه على الله أن يكفر السنة التى بعده، والسنة التى قبله"(١).

فصيام هذا اليوم يكفر ذنوب السنة الماضية، ويحول دون ارتكاب الذنوب [الصغائر] فى السنة الآتية، أما الكبائر فلا يكفرها إلا التوبة الصادقة.

وعرفات سهل مرتفع به مكان عال يسمى جبل الرحمة، وبعد الانتهاء من الوقوف بجزء من النهار وبجزء من الليل تبدأ الإفاضة إلى منى، حيث يرجم الحجر الذى يرمز إلى الشر كما يقبل الحجر الأسود وهو رمز للتوحيد تأكيدا فى كل النسك موقف سيدنا إبراهيم من الأصنام وامتحان الله له بالأمر بذبح ابنه إسماعيل، لكن عناية الله أثلجت صدر الخليل وزوجه بالقربان الذى تقبله الله سبحانه وتعالى : ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾(٢).

وقد خاطب التشريع الإسلامى عقول البشر بضرورة التسليم للإله الحق فى التقبيل والطواف، والسعى والوقوف، والإفاضة والرجم، وسائر النسك التى يتصل بعضها بالأحجار فى تلك البقاع التى جفت

---

(١) رواه مسلم والترمذى.
(٢) الصافات ١٠٧ .

الحياة فيها، ونضب منها الماء فى الوادى الخالى من الزرع عند بيــت الله المحرم۰

الوقوف فى حجة الوداع :

لقد حج أبوبكر بالناس فى السنة التاسعة من الهجرة، وكان معــه ثلاثمائة رجل يمثلون المسلمين فى شبه الجزيرة العربية وكانــت أول حجة بعد فتح مكة والقضاء على الشرك وتحطيم الأصنام ۰

وأرسل الرسول ﷺ عليا كرم الله وجهه إلى الحجاج فــى مكــة؛ ليبلغهم ما نزل على الرسول بحق المشركين والقضايا الأخــرى التــى جاءت فى سورة التوبــة: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [1].

وإذا كانت عبادة الأصنام قد اختفت من هذه البقاع فــإن ألوانــا أخرى قد تكون مستحدثة، باتت تشكل خطرا داهما على الأمة، ويمثــل هذا فى الذين يعبدون الأفراد من ذوى السلطان، ولا يرفضون لهم أمرا مهما خالف التشريع، أو يتعصبون لأرائهم تعصــبا مقيتــا، ويعطــون لأنفسهم من الآراء والهوى ما يستشعرون به تميزا على الآخرين، قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [2].

---

(١) التوبة ١ ۰
(٢) الجاثية ٢٣ ۰

أما فى السنة العاشرة من الهجرة فقد خرج الرسول لخمس ليال بقيت من ذى القعدة وأراد من هذه الحجة أن تكون بلاغا للناس، وإحاطة لهم بكل المناسك إذ قال : "خذوا عنى مناسككم"(١) وطاف على نسائه فى الليلة التى خرج فيها، وأمرهن أن يرتحلن معه، ولم يقرع بينهن، كما كان يفعل عند سفره خلال إقامته بالمدينة، ونبه إلى أن الحج فريضة من فرائض الإسلام ينبغى أن تؤديها كل نسائه فى حياته، وكأنه قد ألهم أن الله سبحانه وتعالى لن يبقيه إلى السنة القادمة فاصطحبهن معه؛ حتى يكون حجهن بيانا ومنهاجا لسائر نساء المسلمين .

وعندما سار موكب الحجيج ووصل إلى مكان يقال له [سرف] (٢) نزل دم الحيض من عائشة، فبكت لذلك بكاء شديدا كأنها ظنت أن الله سبحانه وتعالى قد حرمها من الحج! إذ كيف تؤدى المناسك وهى حائض؟ قالت: "وحضت ذلك اليوم، فدخل على أى [النبى ﷺ] وأنا أبكى، فقال: "مالك يا عائشة؟ لعلك نفست"؟ [أى جاءك الحيض] قالت: قلت: نعم، والله لوددت أنى لم أخرج معكم عامى فى هذا السفر، فقال: لا تقولين ذلك فإنك تقضين كل ما يقضى الحاج إلا أنك لا تطوفين بالبيت"(٣).

---

(١) رواه البيهقى .
(٢) موضع على ستة أو سبعة أو تسعة أو اثنى عشر ميلا من مكة. معجم البلدان جـ٣ صـ٢١٢ .
(٣) من السيرة النبوية لابن هشام .

وفى رواية لمسلم قال : "هذا شىء قد كتبه الله علـــى بنـــات آدم، افعلى ما يفعل الحاج غير ألا تطوفى بالبيت"٠

فالحائض تسعى بين الصفا والمروة، وتقــف بعرفـــة، وترمـــى الجمار، وتفعل كل النسك إلا الطواف بالكعبة المشرفة وما يلزمه مـــن دخول المسجد الحرام٠

والمراد من الطواف هنا هو طواف الإفاضة والمسمى بطـــواف الركن أو بطواف الزيارة، وتستطيع المرأة أن تؤخره حتى تنتهى مـــن كل أعمال الحج، وفى هذه المدة يكون دمها قد انقطع ويمكنها بعد ذلك أن تطوف، وتتم أعمال الحج ٠

وفى رواية لأحمد وغيره عن ابن عباس رضــــى الله عنهمـــا أن النبى ﷺ قال: "إن النفساء والحائض تغتسل وتحرم وتقضى المناســك كلها غير أنها لا تطوف بالبيت" وإلى هذا الرأى ذهب أكثر أهل العلم٠

ومنهم من أباح للحائض دخول المسجد لتأديــة الطـــواف عنـــد الضرورة، كأن يفوتها ركب الحجيج فتتخلف عن الســفر وتتعــرض للضرر، واعتمد أهل هذا الرأى على قول الرســـول ﷺ : "إذا أمـــرتكم بأمر فاتوا منه ما استطعتم"[١] وأن الضرورات تبيح المحظورات، كما يذكر علماء الفقه والأصول، وإن كان الاستمساك بالصريح المباشر من أحاديث الرسول ﷺ هو الأحق بالقبول٠

---

(١) رواه البخارى٠

وقد سئل ابن عمر رضى الله عنهما عن المرأة تشترى الـدواء؛ ليرتفع حيضها؛ لتنفر من منى، فلم ير به بأسا ، ووصف لـذلك مـاء الأراك.

وقد بلغ الحجيج مكة فى تلك السنة فى اليـوم الرابـع مـن ذى الحجة، وروت السيدة عائشة عن الرسول ﷺ أحاديث كثيرة فى هـذه الحجة قد كثرت عنه: "إن أول شيىء بدأ به النبى حين قـدم مكـة أن توضأ ثم طاف بالبيت، وقد أحلت نساء الرسول بالعمرة بعـد دخـول مكة، وكان عليه الصلاة والسلام قارنا بين الحج والعمرة ، وذبح عنهن البقر، ولم يحل حتى نحر هديه، وبعد الحج أحرمت السيدة عائشة مـن التنعيم، واعتمرت مكان عمرتها التى فاتتها بالحيض؛ فالعمرة طـواف وسعى، ولم تتمكن من الطواف لها؛ لنزول الدم عليها.

وفى يوم عرفة الخالد المخلد ألقى الرسول ﷺ خطبة جامعة نصح فيها الناس، ودعاهم إلى التمسك بكتاب الله وسنة رسوله، وحدد أصول الدين وفروعه ومبادئه وآدابه وأوضح منهاج العلاقة بين النـاس فـى المعاملات والدماء والنساء، وهى النواحى التى كانـت مترسـبة فـى أخلاق الجاهليين، ثم غيرها الإسلام، واقتلعها مـن رؤوس أصـحابها الذين دخلوا فى الدين الجديد.

ومن على جبل الرحمة وضع الرسول أعظم دستور إنسانى لقيادة البشرية بعقيدة التوحيد ونبذ الشرك وعبادة الذات وأكد عالمية الإسـلام وسيادته على قوانين الأرض ودعا إلى حماية حقوق البشر فى الـنفس

والعرض والمال، ووضع أساسا متينا لنظام الاقتصادى السليم والإطار الاجتماعى الذى يحفظ للمرأة المسلمة كل حقوقها ويدعوها إلى الالتزام بكل واجباتها ·

قال ﷺ :

أما بعد : أيها الناس اسمعوا منى أبين لكم فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا فى موقفى هذا·

أيها الناس : إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد·

فمن كانت عنده أمانة فليؤها إلى من ائتمنه عليها ... إن ربا الجاهلية موضوع، وإن أول ما أبدأ به عمى العباس بن عبدالمطلب، وإن دماء الجاهلية موضوعة ، وإن مآثر الجاهلية موضوعة غير السدانة والسقاية. والعمد قود وشبه العمد مقاتل بالعصا والحجر، وفيه مائة بعير، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية·

أيها الناس : إن الشيطان قد يئس أن يعبد فى أرضكم هذه ، ولكنه قد رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم ·

أيها الناس : إنما النسيىء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا، يحلونه عاما ويحرمونه عاما ؛ ليواطئوا عدة ما حرم الله، وإن الزمان قد أستدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها

أربعة حرم، ثلاث متواليات، وواحد فـرد : ذو القعـدة وذو الحجـة والمحرم ورجب الذى بين جمادى وشعبان ، ألا هـل بلغـت؟ اللهـم فاشهد.

أيها الناس: إن لنسائكم عليكم حقا، ولكم عليهن حق، ألا يـوطئن فرشكم غيركم، ولا يدخلن أحدا تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم، ولا يـأتين بفاحشة، فإن فعلن فإن الله أذن لكم أن تعضـلوهن، وتهجـروهن فـى المضاجع، وتضربوهن ضربا غير مبرح، فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف، وإنما النساء عندكم عـوان، ولا يملكـن لأنفسهن شيئا ... أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمـة الله فاتقوا الله فى النساء، واستوصوا بهن خيرا. ألا هـل بلغـت؟ اللهـم فاشهد.

أيها الناس: إنما المؤمنون إخوة، ولا يحل لامرئ مال أخيـه إلا عن طيب نفس منه، ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد . فلا تـرجعن بعـدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض، فإنى قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعدى كتاب الله وسنتى، ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد.

أيها الناس: إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم مـن تراب [إن] أكرمكم عند الله أتقاكم، ليس لعربى فضل على أعجمـى إلا بالتقوى، ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد، فليبلغ الشاهد منكم الغائب.

أيها الناس : إن الله قد قسم لكم لكل وارث نصيبه فى الميـراث، ولا تجوز لوارث وصية ، ولا تجوز وصية فى أكثر من الثلث، والولد

للفراش، وللعاهر الحجر، من أدعى لغير أبيه، أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه صرف ولا عدل، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته •

إن هذا الدستور النبوى الذى ختم به الرسول منهاجه فى الدعوة الإسلامية واضح جلى تتحقق به وحدة الأمة ، وتبرز من خلاله معالم هذا الدين الجديد الذى ترك الرسول المسلمين فيه على المحجة البيضاء، والطريق السوى المستقيم •

فلقد نبه ﷺ إلى ضرورة الاستماع إليه وأهمية العمل بما جاء فى خطبته؛ لإحساسه بقرب وفاته وعدم التقائه بالمؤمنين بعرفات فى حجة قادمة•

وتحدث عن الجانب الاقتصادى فى السلام ونبه إلى ضرورة الحرص على أداء الأمانة إلى أصحابها، ودعى إلى ترك التعامل بالربا وأن ما يكتسب منها حرام ينبغى رده إلى أصحابه، وتحدث عن ربا عمه العباس ؛ حتى تتحقق المساواة فى الحكم الشرعى بلا تفرقة بين قريب وبعيد •

وأن كل شىء مرتبط بالحرم المكى لا قيمة له سوى السقاية والسدانة لأهميتها للمسجد الحرام، وأن القتل حرام، وأن القصاص واجب شرعى ؛ حتى يتحقق الأمان للمجتمع، ولابد من الالتزام بالدية فى القتل الخطأ ؛ كما أن الإخلاص فى عبادة الله وترك عبادة الشيطان أيا كانت صورته يحقق الاقتراب من رب العزة والجلال سبحانه وتعالى•

مقاومة خليل الرحمن لمكائد الشيطان

١- رمى الجمرات :

إن كثيرا من أفعال الحج والعمرة تعيدنا إلى سيرة سيدنا إبـراهيم خليل الرحمن فى آذانه للناس بالحج بما فيه من طواف وصلاة وسعى بين الصفا والمروة ورجم للشيطان بمنى فى يوم النحر وأيام التشريق.

إن هذا الرجم يذكرنا بسيرة سيدنا إبراهيم وابنه إسـماعيل فـى الابتلاء المبين الذين اختبر الله فيه خليل الرحمن اختبارا صعبا عسيرا عندما رأى فى المنام أنه يذبح ولده إسماعيل وهو ابنـه الوحيـد قـال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَـٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَـٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ (١) .

ويقال إن إبراهيم بعد أن شاهد الرؤيا تروى فى الموضوع ولـم يسرع فى التنفيذ وجاء يوم التاسع وعرف أن رؤيته لا مجـال للشـك فيها، وأنها حق مستمد من وحى الله، ولما أخبر ابنه واتجه إلى منـى ظهر الشيطان لهما ووسوس للسيدة هاجر، ولكـن الأسـرة تصـدت للغواية وقاومت الوساوس؛ لأن أمر الله حق، والتقط إبراهيم الحصوات من المزدلفة التى رجم بها الشيطان ثلاث مرات وفشل إبليس فى إفساد طاعة إبراهيم لربه التى تحصن بها هو وذريته وكان فشـل الشـيطان

---

(١) الصافات ١٠٢ .

دلالة على قدرة البشر فى التصدى لغوايات إبليس ورهطــه، فالــذى يرجم جمرة العقبة الكبرى بسبع حصيات يوم النحر، ثم يأتى فـــى أول أيام التشريق فيرجم الصغرى والوسطى والكبرى بإحــدى وعشـــرين حصاة لكل واحدة سبع حصيات متفرقات؛ ويكرر الـــرجم فـــى اليـــوم الثانى ثم إذا شاء رمى الجمرات الثلاث فى اليوم الثالث، فالذى يفعـــل ذلك يستحضر مقاومة إبراهيم عليه السلام والمغزى هو رجم الشيطان من نفوسنا وطرده من أعماقنا، فلا نجعل له ســـبيلا علينـــا، ونرجمـــه برفضنا لإغوائه ونزعاته؛ حتى يبتعد عنها ولا يلجـــأ إلينـــا فينتصـــر علينا٠

والرمى واجب من واجبات الحج روى أحمد ومسلم والنسائى عن جابر ﷺ قال : رأيت النبى ﷺ يرمى الجمرة على راحلته يوم النحـــر ويقول : "لتأخذوا عنى مناسككم فإنى لا أدرى لعلى لا أحج بعد حجتى هذه"٠

والوقت المختار للرمى من الزوال إلى الغروب وجاء فى كتـــاب [الحج على المذاهب الأربعة] للدكتور/ عبدالوهاب خلاف : "ولابد من الترتيب بين الجمرات الثلاث التى يرميها أيام التشريق، فيبدأ بـــالجمرة التى تلى مسجد الخيف ثم الوسطى، ثم العقبة فلا ينتقل إلى واحـــدة إلا بعد تمام ما قبلها"٠

٢ - رؤية إبراهيم بذبح إسماعيل عليهما السلام :

لقد تهيأت كل الأسباب إلى ذبح إسماعيل من الاستعداد الأبــوى والرضا القدرى والإحماء للسكين، لكن الله سبحانه وتعالى كافأ إبراهيم وذريته بالفداء الذى تحقق تنفيذا لأمر الله سبحانه وتعالى قال تعــالى : ﴿ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ (١) وجاء ذلك انتصــارا علــى الشــيطان ومكافأة على الطاعة، وتشريعا محكما لا محل للجدال فيه، وفى كلمــة للشيخ محمد متولى الشعراوى فى كتابه الحج المبرور قال : "إن هــذا يلفتنا إلى أننا لو استقبلنا كل حكم من الله بالرضا نأخذ ثواب الطاعــة لأمر الله ... وفى نفس الوقف فإن الله تبارك وتعالى يرفع عنا القضاء وهذا ما حدث بالفعل بالنسبة لسيدنا إبراهيم وسيدنا إســماعيل عليهمــا السلام وقال :

"إنك حينما تأتى لترجم الشيطان فأنت فى الواقع تريــد أن تســد عليه المداخل التى يدخل منها إلى نفسك .. سواء فى قمة عقيدتك برجم الشيطان الأكبر، أو فى فروع عقيدتك برجم الشياطين الصغار" وقــال: الشيخ الشعراوى أيضا : "وقد قدم إبراهيم حب الله وطاعته على حــب ولده ورضا زوجته" قال رسول الله ﷺ : "لا يؤمن أحدكم حتى أكــون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين"(٢) .

---

(١) الصافات ١٠٧ .

(٢) من كتاب الحج المبرور ، وروى الحديث البخارى وأحمد .

إن حياة سيدنا إبراهيم نموذج عظيم في مقاومة الشيطان؛ للتصدى للوثنية وعبادة غير الله ، إنه منهج تميز به خليل الرحمن في مقاومة كل انحراف عن طاعة الله، وهو أصل لمنهج الإسلام الذى بعث به سيدنا محمد ﷺ إذ كانت عبادة رسولنا قبل الإسلام على ما تبقى من ديانة سيدنا إبراهيم فى جبال [فاران] موضع مكة المكرمة، وهو رأى له سنده من التاريخ.

٣ ـ مقاومة الخليل للإشراك بالله فى أرض العراق :

كان إبراهيم عليه السلام فى أوائل حياته يعمل بصناعة الأصنام والأوثان ، وكم جاور أباه فى هذه المهنة وكم ناقشه فى عبادتها، ولكن والده لم يغير موقفه،ولم يبدل عبادته،قال تعالى:﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[1].

وأخذ الخليل يجادل قومه فى عبادتهم فاتجه إلى فريق منهم يعبد الكواكب والنجوم وخاطبهم ساخرا من عبادتهم، ومستهزءا من ديانتهم، وقد صور القرآن ذلك فقال : ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾[2] .

---

(١) الأنعام ٧٤ .
(٢) الأنعام ٧٦ ، ٧٧ .

وتبرأ من هذه الفئة الضالة ومما يعبدون من دون الله، واتجه إلى ربه الذى فطر السموات والأرض قال تعالى: ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[1].

ثم اتجه إلى قومه بعد مخاطبته لأبيه فى عبادة الأصنام وسألهم عن جدوى العبادة لأحجار وأخشاب لا تضر ولا تنفع وليست لها بصيرة أو إرادة، وتحدث القرآن عن ذلك أيضا قال : ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَـٰلِمِينَ ۝ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَـٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَـٰكِفُونَ ۝ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَـٰبِدِينَ ۝ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾[2].

وبالغ فى سخريته منهم وتحديه لهم فجاء إلى الأصنام ساخرا حيث قال القرآن الكريم على لسانه: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ۝ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾ [3] .

ثم اتجه بمزيد من السخرية فحطم الأصنام، ما عدا كبير الآلهة إذ تركه؛ ليكون أداة أخرى للاستهزاء قال تعالى: ﴿فجعلهم جُذَٰذًا إِلَّا

---

(١) الأنعام ٧٩ .
(٢) الأنبياء ٥١ ـ ٥٤ .
(٣) الصافات ٩١، ٩٢ .

كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴾ (١) ويتجلى فى هذا الحوار مخاطبة إبراهيم للمشركين بلغة مليئة بالسخرية والاستهزاء ومعبرة عن قدرته عليه السلام فى بيان الفساد والإضلال فى توجه قومه إلى عبادة الأحجار .

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد إذ لما فاض بهم الكيل، ورأوا أن آلهتهم قد أسيىء إليها، وأن عبادتهم التى يحبونها صارت محلا للقيل والقال، والتندر والسخرية قرروا إعدامه والقضاء عليه بالإحراق ، فحفروا حفرة كبيرة وأشعلوها بالنيران وانتظروا حتى زادت قوة الإحراق فيها جاءوا به وألقوه فيها، وإذ به لا يجد نارا ولا إحراقا وإنما وجد البرد الآمن والسلام الهادئ والراحة وقوة الإيمان، قال تعالى: ﴿ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴾ (٢) .

---

(١) الأنبياء ٥٨ ــ ٦٣ .

(٢) الأنبياء ٦٨ ــ ٧٠ .

وهم الذين ضلوا فى عبادتهم، وفسدوا فى توجهاتهم، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا.

ثم تصدى إلى نوع ثالث من الإشراك وهو عبادة الملك الذى يعتقد أنه إله وسط كثير من المشركين الضالين، وعبر القرآن الكريم عن الجدال والمحاورة بين إبراهيم ومليكه فقال تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [١].

وزادة شهرة إبراهيم وسط هذه البيئة الضالة المليئة بنماذج من البشر يختلفون فى عقائدهم ودياناتهم، كما لم تتوقف مسيرة حياته فتزوج سارة، وآمنت به ، وآمن به لوط ... ورغب إبراهيم فى إيمان أبيه فدعا له، لكن هذه الرغبة قد عورضت بموقف والده الذى تجلت عداوته لله سبحانه وتعالى قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾[٢] وأراد يوما أن يزداد اطمئنانه على قدرة

---

(١) البقرة ٢٥٨ .
(٢) التوبة ١١٤ .

الله فى خلقه، وسلطانه عليهم فى إحيائهم ومماتهم وبعثهم، فجاء الخطاب على لسانه فى سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (١) .

٤ـ مشاهد من حياة إبراهيم عليه السلام فى الشام وبلاد الحجاز:

ترك إبراهيم العراق واتجه إلى الشام ومعه سارة ثم ذهب هو وزوجته إلى مصر ، وأهديت هاجر إلى سارة فوهبتها لإبراهيم فأنجب منها إسماعيل عليه السلام، وتتواصل رحلة حياته فينتقل إلى أرض مكة ومعه هاجر وإسماعيل، ثم تركهما فى مكان لا زرع فيه ولا ماء ولم يكن مع الأم إلا القليل من الماء والطعام، وقفل عائدا إلى الشام بعد أن توجه إلى ربه بالدعاء، وطيب خاطر زوجته واطمأن إلى رعاية الله لهما ثم وصل إلى الشام وعاد إلى هاجر وإسماعيل فى مكة، وكان ابنه قد كبر ونما عوده وارتوى من زمزم والتأم شمل الخليل وزوجته هاجر وابنه إسماعيل، فكان الشيطان صورة متجسدة فى الإضلال بعد رؤيا الذبح والفداء، ولكن إبراهيم كان له راجما ومتصديا؛ ليبقى هذا الحدث مستقرا فى أعماق كل مؤمن وهو يؤدى فرائض الحج.

---

(١) البقرة ٢٦٠ .

وفى منازله بالشام جاءته الملائكة وبشرته بإسحاق ، وبولد من إسحاق هو يعقوب فكانت البشارة للابن والحفيد •

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَاهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ (1) .

ذلك هو جانب عظيم من ميراث رسولنا ﷺ عن جده إبراهيم عليه السلام، حيث استقبله عن ربه وبعث به إلى الناس، وكان مما أسهم فى تكوينه الإيمانى بقاء أصل ثابت من ديانة سيدنا إبراهيم اعتمد عليه وتغذى به إلى أن كان نبأ الوحى فى زمن جماعة من المتنسكين الذين عرفوا بالحنفاء فى مكة وحول الأرض التى أقيمت عليها قواعد البيت الحرام•

وأمر إبراهيم بأن يؤذن فى الناس بالحج حيث كان ذلك توثيقا لعلاقة البشر بالله، إذ تم رفع القواعد وتوحد الناس فى التوجه إلى هذا

---

(١) هود ٦٩ ــ ٧٢ •

المكان الذى اختاره الله لهذه العبادة فى شريعة الإسلام، حيث تتجلى فى أركانه وواجباته كل الشعائر التى تتوحد بها ديانة إبراهيم وديانة الإسلام مع تصفية ما يمكن أن يكون قد لحق بنسك الحج من مخالفات وخروجات فى زمن إبراهيم والمراحل التالية إلى أن أقر الإسلام الصحيح منها وقضى على الأباطيل والضلالات٠

فإبراهيم وإسماعيل قد رفعا قواعد البيت، واتخذ المسلمون بعد ذلك من مقام إبراهيم مصلى بعد أن يكونوا قد طافوا بالبيت وشربوا من مياه زمزم التى تفجرت من بين أرجل إسماعيل فى زمن مهده ويسعى المسلمون بين الصفا والمروة كما فعلت هاجر، وهى تبحث عن الكلأ والماء، ويقفون بعرفة حيث عرف الخليل أن رؤيته فى الذبح حق، ويرجمون الشيطان فى منى كما رجمه وحاربه وتصدى له من قبل سيدنا إبراهيم ٠

والشيطان لم يترك وسيلة للغواية والإفساد بحق أبى الأنبياء إلا مارسه واستعان به، لكن قوة الإيمان كانت لها الغلبة والنفوذ ودحر الشيطان وغوايته٠

٤٠

لقد كانت حياة سيدنا إبراهيم عليه السلام مليئة بالمقاومة والتصدى لعبدة الأوثان والكواكب والبشر، وكانت حافلة بالطاعة والرضا بحكم الله وقضائه، ثم حفلت بالإيمان والتقوى وانتهت بالمكافأة والبشرى، فإذا كانت رؤيته فى ذبح ابنه الوحيد ، صادقة فقد كانت أليمة الوقع على نفسه شديدة التأثير على زوجته لكن التزامه بقضاء الله والرضا به والثقة فيه حقق له النجاة لإسماعيل والبشارة بإسحاق والحفيد يعقوب عليهم جميعا الصلاة والسلام٠

زوجات الرسول ﷺ

كانت حياة الرسول فى بيته نموذجا وقدوة لكل مسلم يريد التمسك والتطبيق للمنهج الإسلامى فى الحياة، وكان زواجه لعـدد كبيـر مـن النساء مدعاة للتفكير والبحث عن الدوافع لذلك من علمـاء المسـلمين، ولكل قارئ منصف من غير المسلمين، كما كان مدعاة للاتهام وسـوء الظن من بعض العلماء الذين لا علاقة بينهم وبين العروبة والإسـلام، ولا هم لهم إلا توجيه السهام المسمومة لسيرة الإسلام ورسوله العظيم.

١ـ لقد تزوج ﷺ **خديجة بنـت خويلـد** وهـو فـى الخامسـة والعشرين، ولم يستسلم ولم يضعف فى هذه المرحلة من حياتـه أمـام المرأة، إذ كان مختلفا عن شباب مكة فلا يسلك مسـالكهم ، ولا يلهـو مثلهم، إذ كانت العناية الإلهية تشمله حتى يتحمل الرسالة ، وليس فـى تاريخه ما يشينه ويشوه صورته.

وكانت خديجة عند زواجها من رسول الله فى حوالى الأربعـين سنة، وعاشت معه إلى أن توفيت فى عام الحزن، وكان عمـره ثلاثـا وخمسين سنة، أو أكثر منها أو أقل، وعاش حياته معها وفيا مخلصـا لها، كما قضى بقية عمره بعدها يثنى عليها ثناء عطرا مما يحفظ لهـا تاريخها فى بدايات الإسلام إلى أن ودعت الدنيا تاركـة الرسـول ﷺ يواجه مرحلة جديدة، وهى التى شهدت زواجه بأكثر من واحدة، حتـى روى أن الغيرة قد تسللت إلى قلب عائشة بنت أبى بكر مع ما كانـت تتمتع به من شباب وجمال، وحسب مشهود له بالمكانة العالية والمنزلة

الرفيعة ، فقالت كسائر النساء فى أمثال هذه المواقف فى شأن السيدة خديجة: "ما تذكر من عجوز من عجائز قريش حمراء الشدقين، هلكت فى الدهر، أبدلك الله خيرا منها"[١] ، فقال ﷺ : "... والله ما أبدلنى الله خيرا منها، آمنت بى حين كفر الناس، وصدقتنى إذ كذبنى الناس، وواستنى بما لها إذ حرمنى الناس، ورزقنى منها الله الولد دون غيرها من النساء".

فسكتت السيدة عائشة ... ثم قالت: "والله لا أذكرها بعدها أبدا"[٢].

٢ـ وتزوج الرسول ﷺ **سودة بنت زمعة** ، وهى التى يروى عنها قولها: ".. والله ما لى على الأزواج من حرص، ولكن أحب أن يبعثنى الله يوم القيامة زوجا للرسول عليه الصلاة والسلام، وكان الرسول قد خطبها فى مكة بعد موت أم المؤمنين خديجة، وحدث ذلك فى أعقاب وفاة زوجها (السكران بن عمرو) فى أثناء هجرته إلى الحبشة ، أو فى مكة قبل الهجرة، أو غير ذلك .

وكانت سودة طيبة القلب خفيفة الروح، مريحة العبارة، وقد عكفت على خدمة الرسول حتى جاءت عائشة ، فصار كل همها أن تمهد البيت للعروس الشابة ، وأن تعمل على راحتها، وكذلك كان سلوكها مع الزوجات الأخريات اللاتى جئن إلى منزل الرسول ﷺ وقد فكر أكثر من مرة فى تسريحها؛ حرصا عليها، وخشية من عدم قدرته

(١) وروى أنها قالت : "هل كانت إلا عجوزا أبدلك الله خيرا منها" .
(٢) عن الاستيعاب لابن عبد البر .

على التحكم فى الميل القلبى؛ وقالت إنها تهب ليلتها لعائشة، ولا تريــد ما تريده النساء.

وقضت بقية عمرها فى صلاة وخشوع وتبتل إلى الله ، وكانــت عائشة تذكرها بالخير، وقيل إنها توفيت فى آخر خلافــة عمــر بــن الخطاب رضى الله عنها ، جزاء إخلاصها للرسول والإسلام.

٣ــ ثم تزوج الرسول ﷺ **عائشة بنت أبى بكر الصــديق** التــى كانت بكرا لطيفة مرحة، لم تثقل الرسول بأعباء الزوجية ومســئوليات الحياة، فارتاح إليها، وأنس بها، ووجد فى عالمها مــا يجذبــه إليهــا ويحببه فيها، وحياتها الزوجية مليئة بالمواقف والدروس التى يعتد بها، ويحتكم إليها فى سائر تصاريف الحياة.

إن حياة عائشة فى عهد الرسول ، وفى عهد الصحابة الأجــلاء صفحات مشرقة، وعلامات مضيئة لم تتوقف فيها عن رواية الحديث، والفصل فى الأحكام، والجهر بالحق، وكان الرسول عندما أحس بقرب نهايته اجتمع بأمهات المسلمين، وقال لهن : إنــى لا أســتطع أن أدور بينكن فإن رأيتن أن تأذن لى أن أكون عند عائشة "فأذن لى" حتى تسهر على راحته وتمرضه إلى أن ينتقل إلى دار الحق.

وروى أن السيدة عائشة وصفت نهاية حيــاة الرســول فقالــت: "وجدت رسول الله ﷺ يثقل فى حجرى، فذهبت أنظر إلى وجهه فــإذا بصره قد شخص وهو يقول :

بل الرفيق الأعلى من الجنة قلت: خيرت فاخترت والذى بعثـك بالحق.

وقبض رسول الله بين سحرى ونحرى .. فمن سـفهى وحداثـة سنى أنه ﷺ قبض وهو فى حجرى، ثم وضعت رأسه علـى وسـادة، وقمت ألتدم مع النساء وأضرب وجهى"[١] ودفن ﷺ فى بيتها رضى الله عنها.

٤ ـ وتزوج الرسول ﷺ الأرملة الشابة **حفصة بنت عمر** حافظة المصحف الشريف، التى ترملت وهى فى الثامنة عشر من عمرها بعد وفاة زوجها صاحب الهجرتين الحبشة والمدينة، ثم مات شهيدا فى دار الهجرة بعد إصابته بجرح فى غزوة أحد، وتزوجها رسول الله ﷺ بعـد أن أعرض عنها أبوبكر وعثمان، وسار الخبر فى المدينة فارتاح الناس لهذه الخطبة المباركة، ولذلك روى أن عمر قال لابنته: "يـا بنيـة، لا يغرنك هذه التى أعجبها حسنها وحب الرسول ﷺ لها ، والله لقد علمت أن رسول الله لا يحبك، ولولا أنا لطلقكى".

وكان ذلك الزواج فى شهر شعبان من السنة الثالثة من الهجـرة تقول الدكتورة: عائشة عبدالرحمن: جاءت العروس وفى البيت سـودة وعائشة ، أما سودة فرحبت بها راضية، وأما عائشة (فغاظها أن يأتيها

---

(١) انظر تاريخ الطبرى وكتاب نساء النبى للدكتورة بنـت الشـاطئ واللـدم : صوت الحجر أو الشيىء يقع بالأرض، وليس بالصوت الشديد (أى أنها كانت تصوت مع النساء).

زوجها بضرة، وما فعل ذلك قط مع خديجة، وضايقها ألا تجد فى حفصة مغمزا، فهى من هى شبابا وتقى وعزت نسب)٠

ويروى أن الرسول ﷺ قد طلقها واضعا حدا لغيرتها من عائشة، كما يروى أن جبريل نزل عليه وقال له "إن الله يأمرك أن تراجع حفصة رحمة بعمر"، وفى رواية أخرى أنه قال له : "ارجع حفصة فإنها صوامة قوامة، وأنها زوجتك فى الجنة"[1].

وكان الرسول ﷺ قد أسر إليها بحديث يخص مارية فنقلته إلى عائشة التى كانت تغار من مارية، فكأن حفصة قد أشعلت فتنة لا تقدر عواقبها، فاعتزل الرسول نساءه؛ هجرا ومقاطعة؛ حتى يرعوين، ثم هدأت الفتنة التى أظهرت زوجاته وهن شديدات الحب له، تريد كل واحدة أن تقترب منه دون أن تتخلى عن غريزة المرأة، ومن غير أن تتحصن بالقدر الكافى من تجارب السنين، وماتت حفصة بنت عمر أم المؤمنين فى عام واحد وأربعين من الهجرة أو فى غيرها ، ودفنت بالبقيع، وخلدها التاريخ الإسلامى حيث كانت الحافظة لأول نسخة من القرآن الكريم رضى الله عنها ورحمها رحمة واسعة٠

٥ ــ وتزوج ﷺ **زينب بنت خزيمة** بعد زواج حفصة بوقت قصير، كما كانت هى الأخرى أرملة لشهيد من شهداء غزوة أحد المجاهدين، وقيل إن ذلك كان فى السنة الرابعة وقيل فى الثالثة، وكان أمر زواجها بيدها، وأعطاها الرسول حقها الشرعى من صداق، وتقدير

---

(١) عن كتاب الاستيعاب لابن عبد البر ٠

لمكانتها، وجبرا لخاطرها بعد استشهاد زوجها، ثم بقيت فــى منــزل الرسول شهرين أو ثلاثة وماتــت، وربمــا يختلــف الكثيــرون مــن المؤرخين فى كثير من تفصيلات حياتها، لكنهم اتفقوا جميعا كما تقول ـــ الدكتورة عائشة عبدالرحمن ـــ على شيىء واحد، ذلك هو وصــفها بالطيبة والكرم والعطف على الفقراء ، ولا يكاد يعرض اسمها فى أى كتاب إلا مقرونا بلقبها الكريم وهو أنها أم المساكين٠

٦ ـــ ثم تزوج ﷺ **أم سلمة** التى شغلت جانبا من بيت النبى خــلا بوفاة أم المساكين، وأم سلمة هى هند بنت أبى أميــة بــن المغيــرة، وتزوجها الرسول فى شوال من السنة الرابعة من الهجــرة، وكانــت متزوجة أبا سلمة، واسمه عبدالله بن عبد الأسد بن هــلال مــن بنــى مخزوم فهى ابنة عمه من بنى مخزوم، وقد أسلما (أبو سلمة وأم سلمة) فى أول الإسلام بمكة، ثم هاجرا معا إلى الحبشة، وعــادا إلــى مكــة ليستأنفا هجرتهما إلى المدينة المنورة[١]٠

وقد مات أبو سلمة لتداعيات جرح أصيب به فى غــزوة أحــد ، ودعا الرجل زوجته وقال لها إذا مت فتزوجى وقال: اللهــم ارزق أم سلمة بعدى رجلا خيرا منى لا يحزنها ولا يؤذيها، وروت أم سلمة عن زوجها أنه حدثها بما سمعه عن النبى ﷺ حيث قال : "مــا مــن عبــد يصاب بمصيبة فيفزع إلى ما أمره الله به من قول إنــا لله وإنــا إليــه راجعون، اللهم أجرنى فى مصيبتى هذه، وعوضنى خيــرا منهــا إلا آجره الله فى مصيبته وكان قمنا[٢] أن يعوضه الله منها خيرا منها"[٣]٠

---

(١) انظر حياة الصحابيات للدكتور حمزة النشرتى وغيره ٠
(٢) أى جديرا ٠
(٣) رواه أحمد وابن ماجه٠

وأم سلمة عاقلة لبيبة ذات رأى ناضج وفكر ثاقب ، وكان فكرها محل تقدير عند رسول الله ﷺ فى كثير من المواقف منها ما أشارت به على النبى يوم الحديبية ذلك أن الصحابة غضبوا من الصلح وظنوه أنه ماس بكرامتهم، وأنهم قد جاءوه؛ ليدخلوا مكة ولـم يـدخلوها ، فلمـا أمرهم النبى ﷺ أن ينحروا هديهم، ويحلقوا تقاعسوا، فما قـام رجـل منهم، فعل ذلك ثلاث مرات وما منهم من يستجيب، فـدخل النبـى ﷺ على زوجه أم سلمة حيث كانت معه فى السفر إلى الحديبية، وحضور الصلح فذكر لها ما لقيا من النـاس فقالـت: يـا نبـى الله أتحـب أن يستجيبوا؟ أخرج ثم لا تكلم أحدا منهم كلمة؛ حتى تنحر بدنتك، وتـدعو حالقك فيحلقك .

وأصغى النبى ﷺ لمشورتها، فخرج فلم يكلم أحدا منهم كلمة حتى نحر وحلق، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضـا حتى كاد بعضهم يقتل غما وندما"(١).

وكانت رضى الله عنها جميلة مما أوقع زوجتى الرسول عائشـة وحفصة فى الغيرة منها بسبب ما تتمتع به من حسن وجمـال ، وقـد نزلت فى بيتها آيات مباركات على رسول الله، كما رأت جبريل فـى صورة دحية الكلبى، إذ كان جبريل قد جاء يتحدث مع النبى ثـم قـام فظنته أم سلمة دحية الكلبى، وشاركت أم سـلمة فـى مـآزرة أميـر المؤمنين على بن أبى طالب فى أحداث الفتنة الكبرى مع أنهـا كانـت

---

(١) حياة الصحابيات صـ٣٨ .

تتجنب الخوض فى الحياة العامة، وروت عن الرسـول ﷺ ثلاثمائـة وثمانية وعشرين حديثا على أن توفيت سنة ٥٩هـ وقيل سنة ٦١هـ من الهجرة، وبقيت سيرتها العطرة زادا للرجال والنساء على السواء.

٧ ـ وتزوج رسول الله ﷺ أم المؤمنين **زينب بنت جحش** ، وهى أخت عبدالله بن جحش أحد السابقين إلى الإسلام وشهيد أحد، وهى ابنة عمة النبى؛ لأن أمها هى أميمة بنت عبدالمطلب بن هاشم، وأسلمت فى بواكير الدعوة مع أخيها وهاجرت إلى المدينة، وزوجها الرسول ﷺ من مولاه زيد بن حارثة لدواع وأسباب متعددة منها قدرة زيد على تعليمها كتاب الله وسنة رسول الله، وإبطال ما وضعه الناس فى الجاهلية مـن فوارق بين البشر، وقد كرهت زينب هذا الزواج للعديد مـن الفـوارق التى تفضلها، وقد تميزها عن زيد، ثم طلقت منه، وهدأت قضية هـذا الزواج فكان الشروع فى إقبال الرسول عليها وفق مقتضيات التشـريع والوحى الإلهى ، فطلب الرسول من زيد أن يخطبها له، وكان زيد نعم الأصحاب طاعة واستجابة لرسول الله مما جعله الصحابى الوحيد الذى ذكر اسمه فى القرآن الكريم.

قـال تعـالى : ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا

فَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولاً ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾ (١) .

ومن أفضال زينب فى حياة الرسول نزول آية الحجاب فى شأنها وهى قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِۦ مِنكُمْ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴾ (٢) .

وقد أحدث زواج الرسول من زينب شيئا من الغيرة عند زوجاته الأخريات، ومنهن عائشة وأم سلمة خاصة أن زينب كانت أكثر جمالا وصالحة تقية صادقة فى حديثها واصلة لرحمها كريمة فى تصـــدقها،

---

(١) الأحزاب ٣٧ ــ ٣٩ .
(٢) الأحزاب ٥٣ .

وكانت تفتخر وتعتز بقرابتها من الرسول وبأشياء أخرى تميزت بهـا دونهن وذكر بن سعد فى طبقاته أنها قالت : "أنا أكرمكن وليا وأكرمكن سفيرا: زوجكن أهلكن ، وزوجنى الله من فوق سبع سماوات"٠

وقد روى عنها فى كتب السنة أحد عشر حديثا ومـن الأحاديـث التى رويت عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : "لولا أن أشـق على أمتى لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة كما يتوضؤون"(١)٠

وكان الرسول قد تزوجها سنة خمس مـن الهجـرة، واسـتمرت ترعى الرسول وتحفظ عهده من بعده إلى أن توفيت سنة عشرين مـن الهجرة ودفنت فى البقيع وكان عمر بن الخطاب فى مقدمـة مشـيعها، وأمر أن ينادى فى الناس أخرجوا على أمكم، لكن السيدة عائشـة لـم تنس كرمها وورعها وتقواها فقالت عنها بعد وفاتها: ذهبت من كانـت ترعى اليتامى والأرامل رضى الله عنها، وغفر لها وجعلها فى أعلـى منازل الصديقين والشهداء٠

٨ ـ أما زواج الرسول من **جويرية بنت الحارث** فقد كان مرتبطا بما جرى فى غزوة بنى المصطلق ، ذلك بأنه فى أعقاب هذه الغـزوة قسم الرسول السبايا، فكانت فى سهم ثابت ابن قيس أو لابن عـم لـه فكاتبته على نفسها، وكانت تتميز بحلاوة وملاحة لا يراهـا أحـد إلا أخذت بنفسه ، وتأثر الرسول لطلبها وهى تحاول أن تنجوا بنفسها مـن مهانة السبى وعار الرق، وكلمها الرسول عن حاضرها ومستقبلها فقال

---

(١) رواه أحمد فى مسنده ٠

لها: هل لك فى خير من ذلك فقالت ما هو يا رسول الله؟ قال أقضـــى عنك كتابتك، وأتزوجك فتألق وجهها وهى لا تكاد تصدق أنها قد نجت من الذل والهوان فقالت: نعم يا رسول الله قال : "قد فعلت".

وأعتق الرسول بعد زواجها أهل مائة بيـت مـن بيـوت بنـى المصطلق، وكان الرسول ﷺ حريصا على تعليمهـا وإرشـادها إلـى أفضل الطرق فى التقرب إلى الله خاصة أنها كانت لديها رغبـة فـى الهداية والمعرفة، وأنها صارت زوجة للرسول بعد الانتصـار علـى قومها بنى المصطلق، فربما بقيت بعض الحزازات فى نفوسهم، وقـد جاء أبوها الحارث بن أبى ضرار لفدائها، فلما التقى بالرسـول دخـل الإسلام قلبه، وأسلم مع ابنين له وناس من قومه، ثم أسـلمت جوريـة وحسن إسلامها فخطبها النبى من أبيها فزوجه إياها وأصدقها أربعمائة درهم، وكانت قبل رسول الله عند ابن عم لها له لها يقال له عبـدالله، ولعل هذه الرواية تختلف بعض الشيء عما سبق ذكره حيث اشـتراها الرسول من ثابت بن قيس ،وأعتقها وتزوجها، وعلى كل فقـد كانـت زوجة حريصة على العبادة راغبة فى الإكثار منها وتنقيتها من التكلف والابتعاد بها عن العسر والتشدد، ولما تزوجها الرسول كـان عمرهـا عشرين سنة وبقيت تؤدى دورها ورسالتها على أفضل ما يكون الأداء إلى أن توفيت سنة ست وخمسين وقيل سنة خمسين من الهجرة عليهـا سحائب الرحمة والرضوان .

٩ ــ وتزوج رسول الله ﷺ **صفية بنت حيى بن أخطــب** ، وكانت من سبايا غزوة خيبر ، فاصطفاها النبى لنفسه، وكانت قبلــه زوجــة لكنانة بن الربيع بن أبى الحقيق، وبعد حصار الرسول وجيشه ليهــود خيبر، وانتصاره عليهم جئ بها إلى رسول الله فى حزنهــا الصــامت وجزعها المكبوت تحاول أن تتماسك فى ترفع وكبرياء وما مــن أحــد يعرف فيم كانت تفكر، وإن بدا أنها تلوذ أمام القائد المنتصر بآخر مــا كان لها من عزة وجلال"(١).

أما ما روى عن زواجها فقد جاء فى حديث عــن أنــس ﷺ أن رسول الله ﷺ لما أخذ صفية بنت حيى قال لها هل لك فى ؟ قالت : يا رسول الله ... قد كنت أتمنى ذلك من قبل فكيف إذا أمكننى الله منه فى الإسلام، فأعتقها عليه الصلاة والسلام وتزوجها سنة ست من الهجرة.

تقول صفية كما جاء فى كتب السيرة(٢) : انتهيت إلى رســول الله وما من الناس أحد أكره إلى منه .

فقال يا صفية إن ما حدث لقومك هو الجزاء العادل لما فعلوه وما قالوه، إنهم قالوا لى كذا وكذا، وفعلوا كذا وكذا ، وما زال يتحدث حتى أذهب ذلك ما كان فى نفسى، فما قمت من مقعدى إلا وهو أحب الناس إلى، وبعد النصر على خيبر وهم قومها اليهود خيرها رسول الله بــين الإسلام وبين أن تختار ديانة قومها فيعتقها وتلحــق بهــم ، فاختــارت

---

(١) انظر كتاب نساء النبى للدكتورة بنت الشاطئ صـــ١٩٢ .
(٢) منها السيرة الحلبية وانظر كتاب حياة الصحابيات الجليلات صـــ٧٢ .

الإسلام فأمسكها رسول الله وتزوجها ، وكانت حريصة على مكانتها من رسول الله وعلى تعاليم الإسلام، وكانت تسأل عما يغيب عنها.

وتحركت الغيرة من نساء النبى مفتخرات بأنسابهن العربية المشهورة، فشكت ذلك إلى النبى ﷺ وهى تبكى فقال لها : ألا قلت: وكيف تكونن خيرا منى، وزوجى محمد وأبى هارون وعمى موسى؟

وبعد وفاة الرسول افتقدت صفية حمايته الطيبة لها إذ أن الناس لم ينسوا انحدارها من سلالة اليهود، وما أنفوا من مهاجمتها من تلك الثغرة التى كان يكفى لسدها حسن إسلامها وزواجها من النبى ﷺ .

جاء فى الخبر كما تقول الدكتورة بنت الشاطئ أن جارية لها أتت أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فقالت: "يا أمير المؤمنين، إن صفية تحب السبت وتصل اليهود" فبعث عمر إلى صفية يسألها عن ذلك فأجابت: أما السبت فإنى لم أحبه منذ أن أبدلنى الله به الجمعة، وأما اليهود فإن لى فيهم رحما فأنا أصلها".

ثم انثنت إلى جاريتها، فسألتها عما حملها على مثل ذلك الافتراء فأجابت الجارية: الشيطان!

وردت أم المؤمنين: اذهبى فأنت حرة، وتوفيت سنة ست وثلاثين وقيل سنة خمسين وقيل سنة اثنتين وخمسين، ودفنت بالبقيع مع أمهات المؤمنين.

١٠ ــ وتزوج رسول الله ﷺ **أم حبيبة بنت أبى سفيان** من بنى هلال التى أسلمت قديما، وهاجرت إلى الحبشة فى صحبة زوجها عبيد

الله بن جحش الذى اختلط بالنصارى وزاغ عن العقيدة فمـات علـى نصرانيته بالحبشة، بينما ثبتت أم حبيبة على دينها وعقيدتها ، واسـمها رملة ولكنها كنيت بابنتها حبيبة التى صحبتها إلى الحبشة، أو سـافرت وهى حامل بها فولدتها فى مهجرها، وعرف الرسول بقصتها إلى وفاة زوجها فدعاها إلى الزواج فأسرعت بالموافقة، وهى شـديدة السـرور والفرح بهذا الطلب العظيم، وأرسلت إلى خالد بن سعيد بـن العـاص ليكون وكيلا عنها، وكان من مهاجرى الحبشة فوكلته عنها فى ذلك٠

أى أن الرسول ﷺ تزوجها وهو فى المدينة بينما كانت هى فـى الحبشة، ثم جاءت إلى حيث يوجد الرسول وزفت إليه بعد غزوة خيبر أى بعد بدر بحوالى خمس سنوات، واحتفلت المدينة بـدخولها، وأولـم عثمان بن عفان وليمة حافلة نحر فيها الذبائح وأطعم الناس، واستقبلت نساء النبى أم حبيبة بشىء من المجاملة إذ لم يكن فيها من الأمـر مـا يشعل الغيرة٠

كانت (أم حبيبة) تدنو من عامها الأربعين وليس فيها سحر صفية ولا ملاحة جويرية ولا حسن أم سلمة ولا جمال زينب، وهكـذا كـان طلب الرسول من النجاشى لهذا الزواج بينما كان خالد بن سعيد وكيلا عن رملة، وقبلت جزءا من الصداق، وردت بعضه، كما قبلت هـدايا نساء النجاشى، وعاشت فى بيت الرسول ذهاء أربع سنوات وشـهدت معه فتح مكة، كما فرحت بإسـلام أبيهـا، وروت عـن الرسـول ﷺ مجموعة من الأحاديث، لكن حياتها فى معيته ﷺ كانت قصيرة، وبقيت

على إخلاصها ودينها تعبد الله على أفضل ما تكون العبادة طالبة من ربها المغفرة والمسامحة على ما كان بينها وبين زوجات الرسول ما يحدث أحيانا بين الضرائر ٠

وتوفيت سنة أربع وأربعين من الهجرة فى عهد أخيها معاوية بن أبى سفيان، وأودع جثمانها ثرى البقيع الطاهر إلى جوار من مات من أمهات المؤمنين فى المدينة المنورة٠

١١ ــ وتزوج رسول الله ﷺ **مارية القبطية** أم إبراهيم بن محمد ﷺ تقول الدكتورة عائشة:"وهى لم تقم فى دور النبى الملحقة بالمسجد إلا أن آثرها فى هذه الدور وساكناتها كان جد بعيد، وحسبنا أن نذكر أنها وحدها التى تظاهرت عليها أزواج النبى جميعا، فكدن يظفرن بتحريمها على زوجها المصطفى، لولا أن نزلت فيها آيات التحريم: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَـٰنِكُمْ ۚ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ (١)

وتستكمل سورة التحريم بالنص الكريم حكاية المظاهرة من زوجات الرسول حول مارية وموقفهن منها ٠

ولدت مارية بنت شمعون لأب قبطى وأم مسيحية رومية فى قرية تدعى "حفن" قريبة من بلدة أنصنا الواقعة على الضفة الشرقية للنيل وقد أمضت حداثتها الأولى وشبابها المبكر مع أختها سيرين فى قصر المقوقس، وفى القصر سمعت عن ظهور النبى ﷺ بدين جديد، وكانت

(١) التحريم ١، ٢ ٠

قريبة من مجريات الأحداث عندما وفد حاطب بن أبى بلتعـــة حـــاملا رسالة من النبى إلى المقوقس ، فأدى الرسالة التى جاء فيها :

بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن عبدالله إلى المقوقس عظيم القبط سلام على من اتبع الهدى.

أما بعد : فإنى أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإنما عليك إثم القبط : ﴿**يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألانعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأنا مسلمون**﴾ .

وأكرم المقوقس وفادة حاطب، ورد على النبـــى ﷺ ردا حســـنا، وأمر كاتبه أن يكتب للنبى ﷺ :

أما بعد، فقد قرأت كتابك، وفهمت ما ذكرت فيه، وما تدعو إليه، وقد علمت أن نبيا قد بقى، كنت أظن أنه يخرج بالشام.

وقد أكرمت رسولك، وبعثت لك بجاريتين لهما مكان من القــبط عظيم، وبكسوة ومطية لتركبها، والسلام عليك.

وقد أوصى المقوقس حاطب بن أبى بلتعة بأن يكتم ما دار بينهما من حوار، فلا يسمع منه القبط شيئا، واعتذر إليه بما يعلم من تمســك القبط بدينهم ؛ وعاد حاطب إلى المدينـــة ومعـــه الجاريتـــان، وهديـــة المقوقس[1].

---

(١) انظر كتاب حياة الصحابيات الجليلات صـ٨٥ ، وقد جاء أن الهدية كـــان فيها عبد خصى، وألف مثقال من الذهب، وعشرون ثوبا لينا من نسيج مصر، وبغلة سوداء اسمها (دلدل)، وجانب من عسل بنها، وبعــض العــود والنــد والمسك، وقيل إن فى الهدية أيضا بغسل سرج ملجم، وحمار أشهب، وقيــل كان منها غير ذلك .

وفى الطريق كانت مهمة حاطب كبيرة فى تخفيف وحشة الفراق على الأختين مارية وسيرين.

ووصل الركب الميمون إلى المدينة سنة سبع من الهجرة، وأعجبت مارية الرسول فاكتفى بها، ووهب أختها سيرين لشاعره حسان بن ثابت .

وكان ﷺ يهتم بمارية مما أثار حفيظة عائشة، وأقلقها أن ترى زوجها الرسول يكثر من التردد على مارية ويمكث عندها وقتا طويلا، لكن فتاة مصر ، وحفيدة هاجر القبطية التى أخذت موقعها فى بيت الرسول كانت سعيدة أيما سعادة بحظوظها عند محمد ﷺ ، كما فرحت بفرض الحجاب عليها شأن زوجاته أمهات المؤمنين، كما كان يسعدها أن تسمع حديث المصطفى ﷺ عن هاجر المصرية التى تحولت الجزيرة العربية معها إلى حياة جديدة بنبع ماء زمزم، وكانت مارية تحدث نفسها فى بيئتها الجديدة عن هاجر التى كانت أما لولد إبراهيم، فهل يحدث أن تكون مارية أما لولد من محمد ﷺ .

تقول الدكتورة/ عائشة عبدالرحمن : "لقد تزوج محمد عليه الصلاة والسلام بعد وفاة السيدة خديجة عشر أزواج، منهن الشابة الفتية، والمرأة الناضجة، ومنهن من كانت ذات ولد ، ولكن أرحامهن جميعا أمسكت فما تجود بولد واحد للمصطفى الذى تخطف الموت أبناءه من السيدة خديجة ، فلم يدع له سوى بنت واحدة هى السيدة فاطمة الزهراء .

وقد شارف السيد الرسول سن الستين من عمره وبدا أنه كف عن تمنى الولد ٠

فأنى لمارية أن يكون لها مثل ما كان لهاجر من أمومتها إسماعيل؟ يا لها من أمنية أبعد من الوهم، ويا له من أمل أوهى إلى السراب ! [١].

وبدأت مارية تحس ببوادر الحمل من الرسول فى عامها الثانى بالمدينة، وأفضت بذلك إلى أختها، كما أفضت به إلى الرسول ﷺ ٠

وسرت البشرى فى أنحاء المدينة، كما أحدث ذلك وقعا أليما على نساء النبى إذ هاجت الغيرة فى نفوسهن من مارية، وتحركت عليها الألسنة بما يسوء، ولكن براءتها كانت من الواقع، إذ أن من اتهمت به كان قبطيا مجبونا[٢].

ونقلها الرسول إلى العالية فى ضواحى المدينة حيث الهدوء والراحة حتى ولادة إبراهيم فى شهر ذى الحجة سنة ثمان من الهجرة٠

ولكن السعادة لم تطل، فقد مرض إبراهيم ومات فى السنة العاشرة قبل أن يتم عامه الثانى، وقد حدث أن كسفت الشمس يوم وفاته فقال قوم إن الشمس قد كسفت لموته فخاطبهم قائلا : "إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا تخسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتم

---

(١) نساء النبى صـ ٢٢٨ ٠
(٢) أى لا يصلح ،للزواج لأنه مقطوع عضو الذكورة ٠

ذلك فافزعوا إلى الصلاة، [١] وصلى النبى عليه وكبر أربعا وأودعه قبره ودفنه بالبقيع، ورش على قبره ماء، وعلم القبر بعلامة، وكان أول قبر رش عليه ماء، وبقى الرسول بعد وفاة ابنه عدة أشهر، ثم لحق بالرفيق الأعلى".

وعاشت مارية بعد وفاة الرسول خمس سنوات فى عزلة تامة لا تخرج إلا لزيارة قبر الرسول بالمسجد ، وقبر ابنها فى البقيع، وأختها سيرين حيث توجد ، ثم ماتت مارية فى السنة الثالثة عشرة ، ودفنت بالبقيع، وصلى عليها أمير الممؤنين عمر بن الخطاب.

وكان الرسول قد ترك وصية لأمته بقوم جارية جاء فيها : "(استوصوا بالقبط خيرا فإن لهم ذمة ورحما)" [٢] وفى رواية أخرى لحديث : "استوصوا بأهل مصر خيرا فإن لهم نسبا وصهرا" .

١٢ ــ وتزوج الرسول ﷺ : **ميمونة بنت الحارث** واسمها برة بنت الحارث بن حزن الهلالية، وكان زواجها من الرسول سنة سبع من الهجرة فى عمرة القضاء، حيث ذهب معتمرا بعد غزوة خيبر ، وحسب اتفاق صلح الحديبية، ومعه ألفا راكب يتلهفون شوقا إلى بيت الله الحرام فى مكة المكرمة، وقد خطبها للرسول جعفر بن أبى طالب زوج أختها من الأم أسماء بنت عنيس ذلك أنها قد أفضت إلى أختها بما يموج فى أعماقها من حب وإقبال على الرسول فجعلت أمرها إلى العباس بن عبدالمطلب زوج أختها أم الفضل لبابة الكبرى بنت

(١) ذكر فى الموطأ والصحيحين والإصابة والاستيعاب.
(٢) رواه مسلم .

الحارث، وكانت ميمونة فى السادسة والعشرين من عمرها، وترملـت بعد موت زوجها أبو رهم بن عبدالعزى، وقيل إن الخطوبة كانت قبـل العمرة ولكن الرسول بنى بها بعد العمرة٠

أما موقع دخول الرسول بها فيرجع إلى ما كان فى عمرة القضاء عندما انتهت الأيام الثلاثة المحددة لإقامة الرسول واصحابه فى مكـة جاء إليه مبعوثان من أهل مكة يطلبان منه الخروج فاستسمحهما فـى البقاء، حتى يتم عرسه على ميمونة، ويصنع لهما طعاما، فأخبراه بأنه لا حاجة لهم فى طعامه، ثم خرج من مكة ولحقا به صاحبه أبو رافع، ومعه العروس حتى بنى بها الرسول فى مكان يقال له سرف٠

وكان فى هذا الزواج حكمة ومصلحة حيث تقرب الرسول ﷺ إلى الهلاليين قومها، إلى غير ذلك من الحكم التى لا تخفى علـى أحبـاب الإسلام، ويروى أنها خرجت مع الرسول إلى غزوة تبـوك وكـادت تموت بسهم من سهام الأعداء إلا أن الله حفظها وبقيت طوال حياتهـا فى ورع وتقوى وإيمان وإخلاص حتى توفيت سنة إحدى وستين مـن الهجرة عن إحدى وثمانين سنة، وقيل سنة سبع وخمسين، وقيل غيـر ذلك ، وكانت وفاتها أثناء عودتها إلى المدينة بعد أداء شعائر الحـج ، حيث شاءت إرادة الله أن تكون الوفاة فى المكان الذى يسمى سـرف، وهو الذى بنى بها فيه[1] الرسول ﷺ رضى الله عنها وأرضاها٠

---

(١) أى الدخول عليها زوجا ٠

كما ذكر أنها هى التى وهبت نفسها للنبى ﷺ إذ نزل فيهـا قولـه تعـالى: ﴿وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ﴾ (١) ويقال أن الهبة كانت من غيرها(٢) رضى الله عنهن جميعا .

وفيما يخص أمهات المؤمنين ومارية ، فقد ثبت أن الرسول ﷺ قد بنى بإحدى عشرة ومارية القبطية وهن: خديجة بنت خويلـد، وسـودة بنت زمعة، وعائشة بنت أبىبكر، وحفصة بنت عمر بن الخطاب، وأم سلمة بنت أبى أمية بن المغيرة، وزينب بنت جحش ، وجويرية بنـت الحارث، وصفية بنت حيى، وأم حبيبة بنت أبىسفيان، وميمونة بنـت الحارث، وزينب بنت خزيمة .

وتوفيت فى حياة الرسول ثنتان من هؤلاء وهمـا خديجـة بنـت خويلد، وزينب بنت خزيمة، وهؤلاء هن من اقتصر الحـديث علـيهن [إحدى عشرة أما للمؤمنين، ومارية القبطية] أما ما عدا ذلك فخـلاف بين المؤرخين، فقد روى أن من زوجاته ريحانة بنت شمعون بن زيـد التى كانت من سبى بنى قريظة فى السنة الخامسة من الهجـرة، وقـد عرض الرسول عليها الإسلام فأبت، ثم أسلمت وعرض الرسول عليها

(١) الأحزاب ٥٠ .

(٢) اعتمدنا فى كتابة هذا الموضوع على كثير من أمهات الكتب التـى أثبتتهـا الدكتورة عائشة عبدالرحمن فى هامش كتابها نساء النبى فضلا عما تيسر لنا من الكتب الأخرى ذلك أن الهدف من هذه الصفحات كان منحصرا بالتعريف بزوجات الرسول تعريفا موجزا أما ما عدا ذلك من تحليل واستقصاء فموجود فى مظانه من مؤلفات القدماء والمحدثين .

الزواج فقالت بل تتركنى فى ملكك فهو أخف على وعليك، فكانت فـــى عداد من وهبن أنفسهن للرسول ﷺ وقيل إن الرسول عليـــه الصـــلاة والسلام قد تزوجها، وبقيت عنده مدة وطلقها، ثم أرجعها إلى أن توفيت عنده٠

ومما قيل إن الرسول قد تزوجهن ولم يدخل بهن:

أسماء بنت النعمان الكندية حيث تزوجها الرســـول فوجـــد بهـــا بياضا، فلم يدخل بها، ومتعها وردها إلى أهلها٠

وعمرة بنت يزيد الكلابية، وكانت حديثة عهد بكفر، فلما قـــدمت على الرسول ﷺ استعاذت من رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ : منع عائذ الله ، فردها إلى أهلها[١] ٠

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام جـ٤ صـ٤٨٠ ٠

الرسول ﷺ زوجا(*)

كان النبى ﷺ خير نموذج للزوج الذى يقدر حق الزوجة فى الحوار، وإبداء الرأى، والنقاش الحر الأمين، وهذا بعض ما يفهم من قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (١) .

ولم يكن يسمح أن تتناول إحداهن الأخرى فى غيبتها بما يسوء، ولا يحسن، وإذا ما حدثت غيرة أو كلام من واحدة لأخرى فى غيبته فلا علاقة للرسول به، لأن هذه الأمور تحدث بين النساء الضرائر فى أمثال هذه الحالات، وهو يدرك أن كيد النساء عظيم ...

ففى ذات يوم ذكر زوجته صفية بنت حيى بخير، وكأنما مس الحديث من عائشة غيرة، فأثارها. فقالت: ماذا يعجبك منها؟ إنها قصيرة! لقد ألفت السيدة عائشة هذه العبارة ولم تزد عليها .. وإذا بالرسول ﷺ يعقب عليها قائلا : "ماذا يا عائشة؟ لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته".

كان النبى ﷺ يصدر فى معاملته لزوجاته عن إنسانية رحيمة، ومعرفة بصيرة بطبيعة المرأة وما يدور فى نفسها، وعدالة تصل إلى أقصى ما يستطيع الإنسان أن يعدل فيه .

(*) نشر بعضه فى جريدة اللواء الإسلامى العدد ١٥٥ فى ١٩٨٥/١/١٠ (بتصرف) تحت عنوان / الرسول فى بيته.

(١) النساء ١٩ .

فكان عليه الصلاة والسلام – مع مهامه فى الدعوة ودوره فى إيصال القرآن إلى القلوب – ينهض بمساعدة زوجاته فى خدمة البيت، إذ كان يخيط ثوبه ويصلح نعله ويخدم نفسه.

هذا النبى الذى تربى فى مكة بين الصحراء ، واجتمع حوله كثير من الرجال، وله هذا العدد من النساء لا يغفل عن مشاركة زوجاته فى العناية بنفسه مستغنيا عن خدمة زوجاته وأصحابه فى كثير من المواقف إذ كان يذهب إلى أبعد من ذلك مما يأنف منه كثير من الرجال قديما وحديثا إذ يتجلى بإنسانيته ورحمته فيخدمهن لا إعراضا عنهن وبغضا لهن، بل تعاونا معهن، وإحسانا إليهن، وقال فى ذلك الشأن: "خدمتك زوجتك صدقة"[١] وليس هذا ببعيد على رسول الإنسانية ومعلم البشرية بعد أن أدبه ربه فأحسن تأديبه، وأعده إعدادا كاملا لتحمل الرسالة وتبليغ الدعوة، وزكاه رب العزة فقال : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[٢] فكانت أخلاقه نبراسا يستضىء بها الناس، ومنهاجا وطريقا مستقيما يسلكونه إلى الإيمان والمحبة والخير والسلام، وإذا كان ﷺ قد أحسن معاملة زوجاته، فإنه أيضا قد أوصى رجال المسلمين بزوجاتهم اقتداء به ، واستمساكا بهديه فقال ﷺ : "أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم أخلاقا، وخيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلى .. وما أكرم النساء إلا كريم ولا أهانهن إلا لئيم"[٣].

---

(١) رواه الترمذى فى سننه .
(٢) سورة القلم ٤ .
(٣) رواه ابن ماجة فى سننه .

وكان فى منزله هادئا عفا متواضعا كريما يقبل من الطعـــام مـــا يشتهيه، ويترك ما يكرهه منه دون أن يبدو رافضا لما قدم إليه فيؤذى زوجة فى مشاعرها، أو يثير الأخريات ضدها.

فعن أبى هريرة ﷺ قال : "ما عاب النبى ﷺ طعاما قط إذ اشتهاه أكله وإن كرهه تركه"[١].

وكان حريصا على العدل بين زوجاته إلى حد جعله يســتغفر الله فيما لا يقدر عليه البشر وكان يقول : "اللهم هذا قسمى فيما أملك فــلا تلمنى فيما تملك ولا أملك"[٢]، وهو يقصد الميل القلبى الذى لا يستطيع دفعه وقعا ومنه، والقسمة بينهن تكون بالعدل فــى المبيــت، والنفقــة والملاطفة والتكريم وسائر علاقات الزوج بزوجته، وكان معهن سمحا لينا.

فقد روى عن السيدة عائشة قولها عنه ﷺ : "كــان ألــين النــاس وأكرم الناس ، وكان رجلا من رجالكم إلا أنه كان بساما"[٣].

وكان يقرع بينهن إذا أراد سفرا، وفى حجة الوداع أخذهن جميعا معه، ولم يقم فى مرضه الأخير بمنزل عائشة إلا بعد أذنت لــه كــل زوجاته، وكان يدعو أهله وذريته وزوجاته إلى العمل، ويحثهم علــى بذل الجهد حتى لا يتخذوا من صلتهم به وسيلة للتهاون والتكاسل وترك

---

(١) رواه البخارى .
(٢) رواه أحمد وأصحاب السنن.
(٣) رواه أبو داود فى سننه وفى المستدرك للحاكم.

العمل ، وخاطبهم قائلا : "لا يأتينى الناس بأعمالهم، وتأتونى بأحسابكم، اعملوا فإنى لا أغنى عنكم من الله شيئا"[١].

إن كثيرا من أقارب أصحاب النفوذ، وقادة الأمم والجماعات يتخذون من القرابة وسيلة إلى تحقيق أغراضهم، أو هدفا يتكاسلون بسببه أو يعتمدون عليه فى كثير من تصاريف الحياة، ولكن سيدنا محمدا ﷺ كان نبيا ولم يكن ملكا، وهو رسول ومبلغ لرسالة ربه ، ولهذا نبه إلى خطورة هذه السلوكيات المرفوضة فدعا أهل بيته إلى الصراط المستقيم قال ﷺ : "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"[٢].

وبذلك استقرت الدعوة فى النفوس ، واحتلت موقعها فى القلوب، وانصرف الناس إلى الجهاد وشاركت النساء فى كثير من الغزوات مما كان له أثر كبير فى تحقيق النصر وإعلاء كلمة الله فى الأرض والسماء.

ولم يكن ﷺ ضعيفا منهزما أمام زوجاته فقد شكون إليه ما هن فيه من خشونة العيش، وطالبن بالمزيد من النفقة أسوة بما كن يسمعن عنه من نعومة الحياة فى قصور الملوك فى الأمم المجاورة فحزن الرسول لذلك حزنا شديدا ، وهم بتسريحهن أو تخييرهن بين الصبر على الحياة معه والتسريح بالإحسان، واكتفى بهجرهن شهرا للتدبر والروية والعودة إلى القناعة والرضا، ونزلت فى هذا الشأن ما يبين هذا

---

(١) متفق عليه .
(٢) فى المستدرك وفى سنن البيهقى.

الموقف فقــال تعــالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ۝٢٨ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [1].

أما تعدد زوجات الرسول فهى قضية كبيرة تحدث عنها كثير من المستشرقين كما تحدث عنها غيرهم من علماء الإسلام.

ذلك أنه عاش مع خديجة وهو فى الخامسة والعشرين حتى نيــف على الخمسين ، ونزل عليه الوحى وقام بالدعوة ولــيس لــه زوجــة سواها، كما لم يرغب فى الزواج بأخرى مع أنها كانــت فــى نحــو الأربعين، وبقى وفيا لها بعد وفاتها ما بقى له مــن عمــر، وروى أن عائشة قالت له مرة هل كانت إلا عجوزا أبدلك الله خيرا منها فقال لها غاضبا لا والله ما أبدلنى الله خيرا منها ... الحديث.

ولم يتزوج بكرا سوى عائشة بنت أبىبكر، ولم يكن زواجه بهــا مقصودا فى بداية الأمر إذ كانت مخطوبة لواحد قبله، ولكنه رغب فيها وأقبل على زواجها لمصلحة أكبر مما يتصوره كثيــر مــن النــاس، وتزوج زينب بنت جحش ولزواجه منها قصة وموقف ســجله القــرآن الكريم وسبق الحديث عنه فى هذا الكتاب.

---

(١) الأحزاب ٢٨، ٢٩ .

يقول عباس محمود العقاد : "أما سائر زوجاته عليه السلام فما واحدة منهن رضى الله عنهن – إلا كان لزواجه بها سبب من المصلحة العامة أو المروءة والنخوة دون ما يهزر به المرجفون من لذات الحسن المزعومة"[١].

وقال: ولكن الذى حدث فعلا أن المتعة لم تكن قط مقدمة فى الاعتبار عند نظر النبى فى اختيار واحدة من زوجاته قبل الدعوة أو بعدها، وفى إبان الشباب أو بعد تجاوز الكهولة، ثم قال فأوجز ما نقول فى تعدد الزوجات من الوجهة الخلفية أو الأدبية أن النبى عليه السلام لم يجعله حسنة مطلوبة لذاتها أو مباحا يختاره، وله مندوحة عنه. وإنما جعله ضرورة يعترف بها الرجل، وتعترف بها الأمة فى بعض الأحوال[٢].

وقال : ولا شك أن تسهيل الزواج، وبخاصة فى أوقات الحروب التى ينتقص فيها الرجال أكرم للمجتمع الإنسانى وأصلح من تسهيل العلاقات الأخرى التى لا تنفع النوع، ولا تنفع الأخلاق، ولا ترفع مكانة المرأة فى عصمة رجل أو فى تناول كثير من الرجال.

وقالت الدكتورة / عائشة عبدالرحمن فى جانب من هذه القضية: "وليس من أزواجه ﷺ من دخلت بيته وفى حسابها أن تنفرد به، فقد كانت مسألة التعدد تبدو طبيعية إلى حد يسهل علينا تصوره، لو ذكرنا أن خولة بنت حكيم اقترحت على المصطفى أن يخطب عائشة بنت

---

(١) النساء فى القرآن ص١٢٠ .
(٢) راجع الكتاب السابق .

أبىبكر، وسودة بنت زمعة فى وقت واحد ، وأن أم المؤمنين ميمونـــة بنت الحارث هى التى عرضت أن يتزوجها المصطفى وفى بيته ثمانى زوجات، وأن عمر بن الخطاب عرض ابنته حفصة على أبـــى بكـــر وعنده [أم رومان] حماة النبى ﷺ ، وأن على بن أبى طالب هـــم بـــأن يتزوج على [فاطمة الزهراء بنت النبى] وأن أبا بكر وعمر صـــهرى المصطفى ، رغبا فى الزواج من [أم سلمة بنت زاد الركب] حين مات عنها زوجها.

ولو خيرت نساء النبى بين حياتهن المشتركة فى بيت واحد لزوج واحد وحياة أخرى منفرده ، مستقلة فى غير ذلك البيت لمـــا رضـــين عن حياتهن بديلا"(١).

وإذا كان الرسول ﷺ قد اضطرته الحياة مع زوجاته المتعـــددات أن يلجأ إلى الشدة أحيانا ــ وما عدا ذلك فيما يتصل بحياته مـــع كـــل زوجة ــ فلم يكن مهموما به، ولا يمثل عبأ عليه إذ لم يكن معنيا بترك معركته مع أعداء الإسلام وخصوم الدعوة ليشغل بـــالأمور الصـــغيرة التى تقع بين نسائه إذ لم يحاول أن يقهر الغريزة الأنسوية عندهن، ولم يروضهن على ذلك ــ كما تقول بنت الشاطئ ــ كما لم يكن يطيب له أن تتجرد زوجاته من الغيرة والشوق واللهفة والرغبة فـــى الاســـتئثار تقول الدكتورة عائشة فى نهاية مقدمتها لكتاب نساء النبى : "وما كـــان أحلمه ﷺ ــ وأرق وجدانه ، وألطف مزاجه، حين سمع قصة ائتمـــار

---

(١) نساء النبى صـــ٢٥ .

نسائه بعروس له أشفقن من جمالها، فأوصينها أن تستعيذ بـــالله حـــين يدخل المصطفى عليها استجلابا لمحبته ورضـــاه، ففعلـــت، وســـرحها المصطفى قبل أن يدخل بها، وقال عن نســـائه : "إنهـــن صـــواحبات يوسف، وإن كيدهن عظيم"[١].

رضى الله تعالى عن نساء النبى وآل بيته الذين نهضوا بمهـــامهم وتبعاتهم فى خدمة الرسول ورسالته أثناء حياته وبعد وفاته.

والحمد لله تعالى أولا وأخيرا

(١) نساء النبى صـــ٢٨ .

كتب للمؤلف

الكتاب	السنة
١ - شعر الحماسة فى العصر العباسى الثانى	١٩٨٤
٢ - ياقوت الحموى أديبا وناقدا	١٩٨٨
٣ - امرؤ القيس بين القدماء والمحدثين	١٩٨٩
٤ - الغموض فى شعر أبى تمام	١٩٨٩
٥ - شعراء الطائف فى الجاهلية والإسلام	١٩٨٩
٦ - فن الرواية فى المملكة العربية السعودية بين النشأة والتطور (الطبعة الأولى)	١٩٨٩
٧ - من روائع الأدب العربى فى العصرين العباسى الثانى والأندلسى	١٩٩٠
٨ - من روائع الأدب العربى فى العصرين الأموى والعباسى.	١٩٩١
٩ - أوزان الشعر - دراسة فى العروض والقافية	١٩٩٤
١٠ - فن الرواية فى المملكة العربية السعودية بين النشأة والتطور (الطبعة الثانية)	١٩٩٥
١١ - دراسات فى الأدب الجاهلى	١٩٩٨
١٢ - أطوار الأدب العربى فى العصر الإسلامى	١٩٩٩
١٣ - دراسات فى الأدب الأندلسى	١٩٩٩
١٤ - مناهج البحث فى الأدب واللغة والتربية	٢٠٠٠
١٥ - رحيق المعرفة	٢٠٠١

الكتاب	السنة
١٦ - تاريخ الأدب الجاهلى	٢٠٠١
١٧ - أدب البيئة بين الأصالة والمعاصرة	٢٠٠٥
١٨ - دراسات فى الأدب العربى الحديث	٢٠٠٥
١٩ - الثروة فى الإسلام	٢٠٠٦
٢٠ - قطوف من السيرة والدعوة	٢٠٠٦
٢١ - أصوات الأرض والحب والثورة	٢٠٠٦
٢٢ - قضايا ثقافية	٢٠٠٦
٢٣ - ألوان من الأدب والفكر والحياة	٢٠٠٦

تطلب الكتب المذكورة من دور الطبع والنشر الآتية :

١- المكتبة الأزهرية للتراث بالقاهرة ٩٠ درب الأتراك خلف الأزهر الشريف ت ٠٥١٢٠٨٤٧.

٢- مكتبة النهضة المصرية ٩ شارع عدلى بالقاهرة ت: ٠٢٩٥٦٧٧١٠.

٣- مكتبة الآداب ٤٢ ميدان الأوبرا - القاهرة.

فهرس الكتاب

رقم الإيداع
بدار الكتب المصرية
١٣٧٧٧ / ٢٠٠٦

